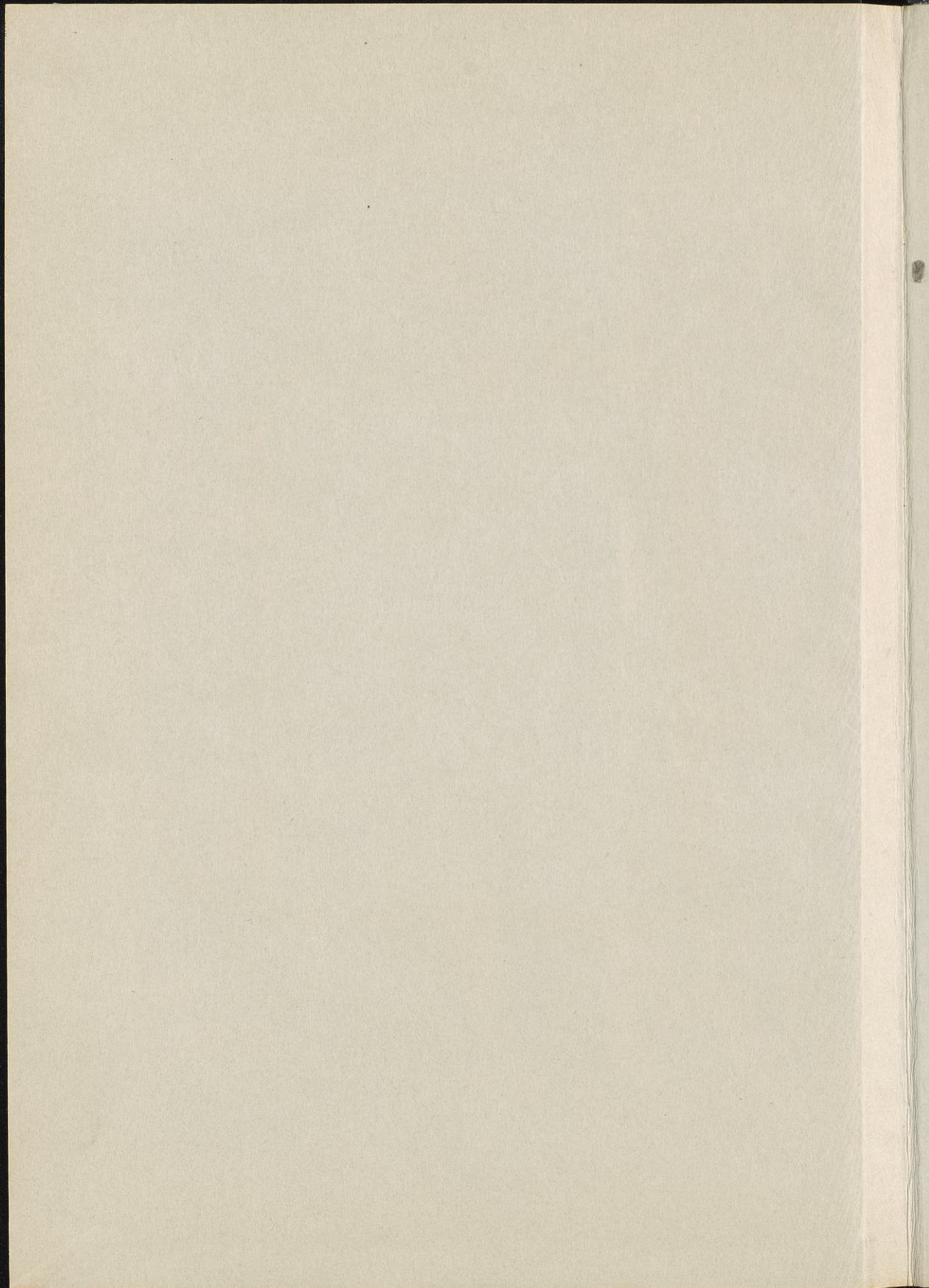
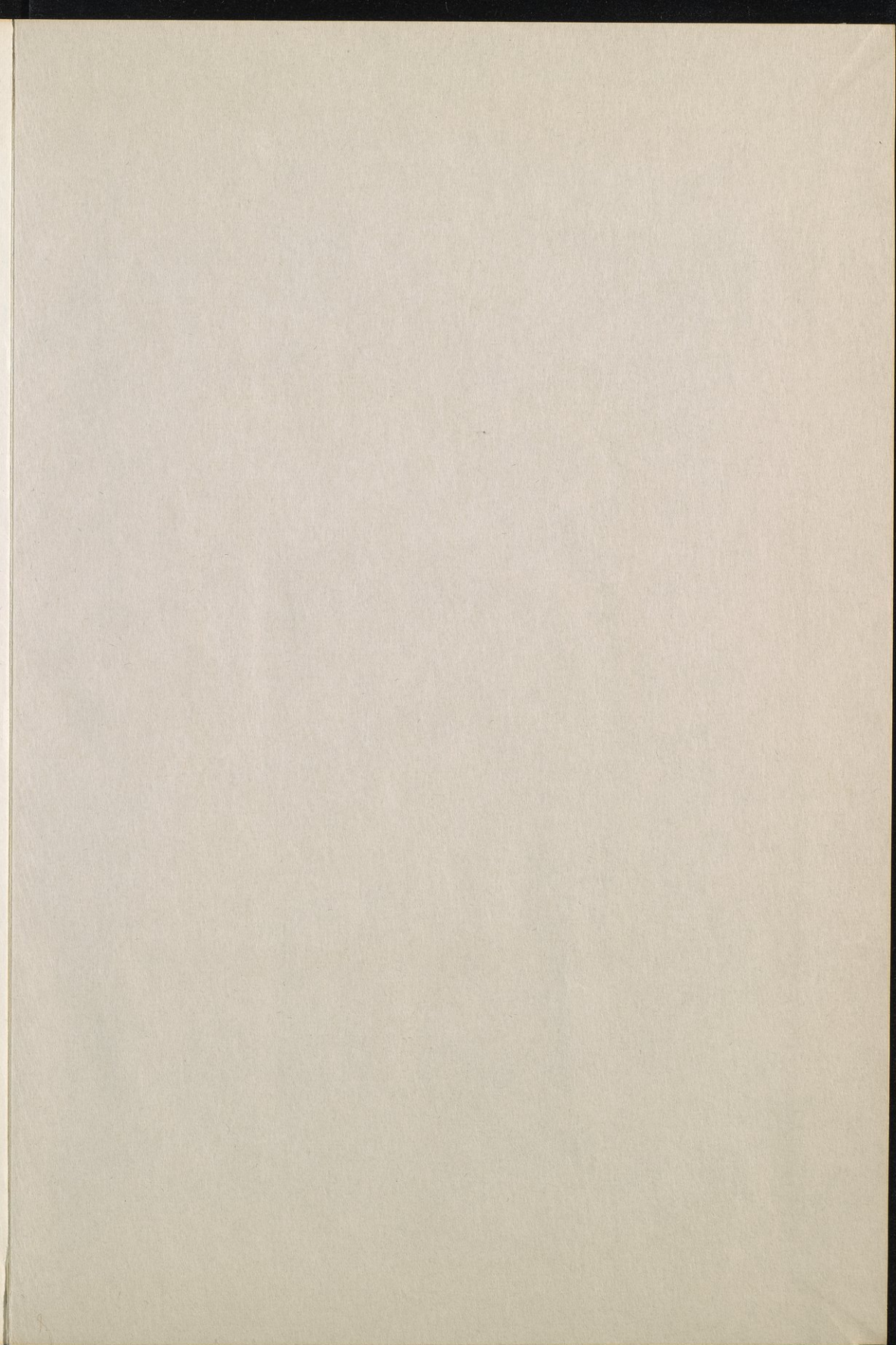


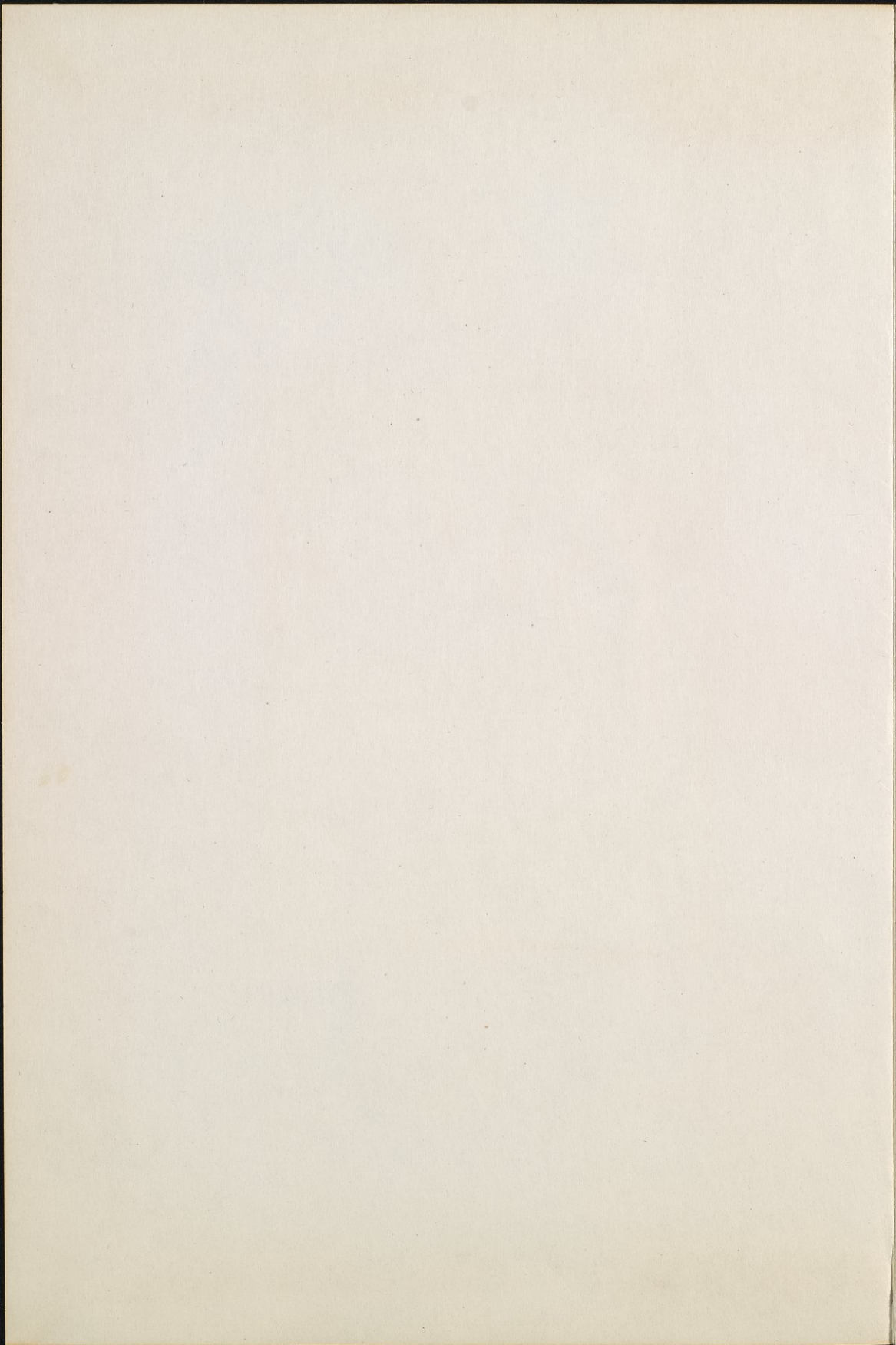


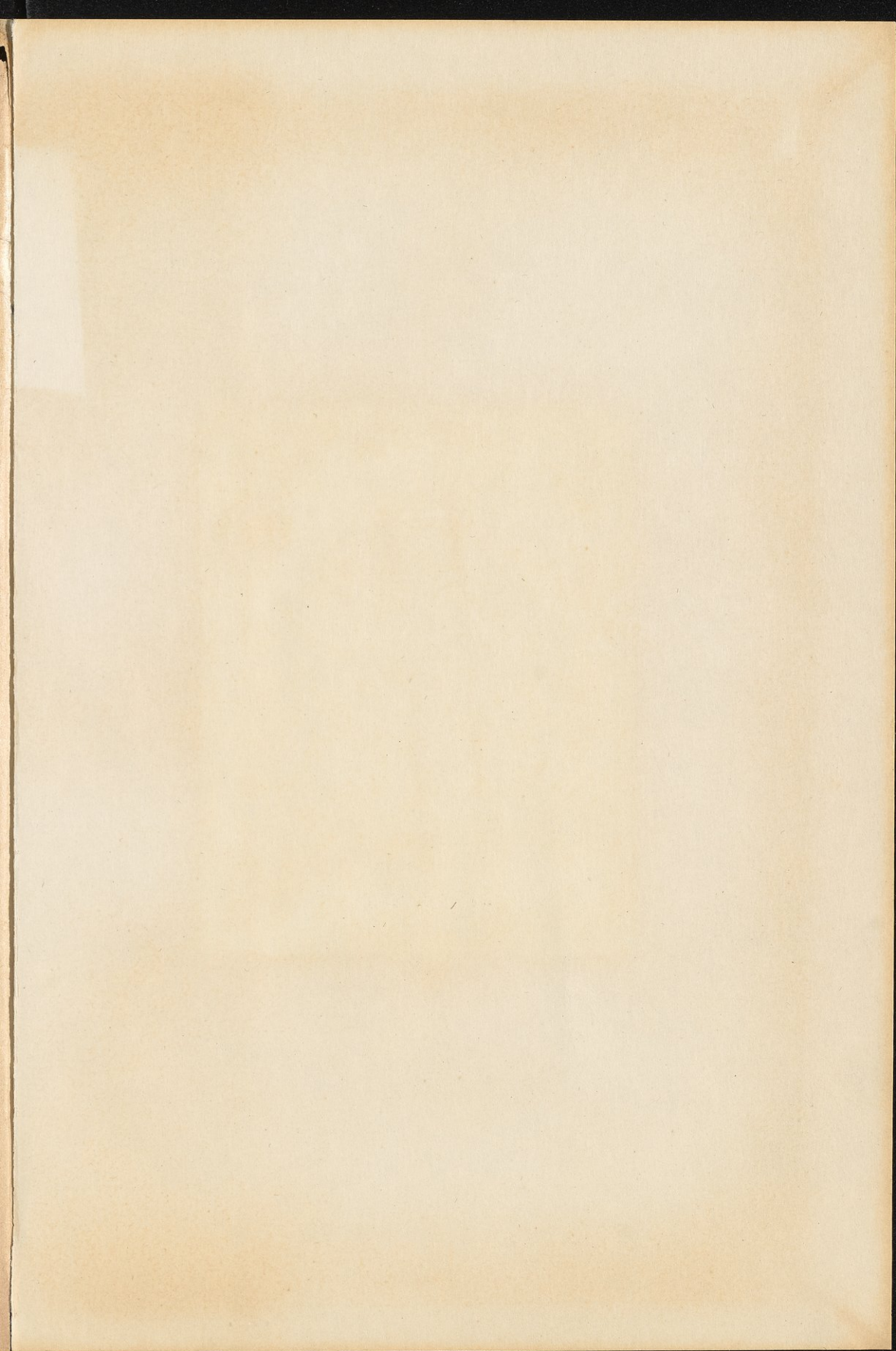
THE LIBRARIES
COLUMBIA UNIVERSITY











مهدى المخزومي

الخليفة ابن محمد الفراهيدي

أعماله ومنهجه

ساعدت وزارة المعارف على نشره

مطبعة الزهراء - بغداد

١٩٦٠

893.72
M 289

مقدمة

هذا بحث حاولت فيه استجلاء غوامض مر عليها تاريخ الحياة العقلية مرورا خاطفا ، تتصل بحياة شخصية من أمتع الشخصيات العلمية ، وأقواها أثرا في تاريخ العراق العربي الاسلامي ، وأغزرها نتاجا ، وأدقها فكرا ، وأعمقها عقلا ، وأكثرها تجردا لطلب العلم والابداع في جوانبه المختلفة ، وموضوعاته المتعددة • تلك هي شخصية الخليل بن أحمد الفراهيدي ، الرجل الذي وهب نفسه لخدمة العلم ، وصرف همه الى طلبه ، والذي كسب به أصحابه المال والجاه ، وهو في خُص لا يُشعَّرُ به ، كما كان تلميذه النضر بن شُمَيْل يقول •

عزفت نفس الخليل عن كل ما يتصل بالجاه والسلطان ، وعافت كل مباحج الحياة التي كانت الغاية للطمحين في تلك الحقبة من الزمان ، وحالت دون أن يسخر ذلك القلب الكبير ، والعقل المبدع لخدمة وال ، أو يستنزف في تملق خليفة ، وانصرفت الى تثبيت قواعد راسخة حياة أمتنا العقلية ، والى الابداع في كل ما كانت تصبو اليه حياة فتيّة هي حياة أمتنا الصاعدة المتطلعة الى الاسهام في النهوض بالحضارة الانسانية ، ودفعها الى طريق تطورها وازدهارها •

وآب الخليل بعد عمر حافل بالاعمال الجليلة على رأس الطليعة التي مهدت للانسانية طريق التطور العظيم ، وعاد رائدا مجربا يجوب آفاق العلم المجهولة ، ليضع للاجيال ركائز ينبنى عليها تطورها ، وينصب في متاهاتها منائر تهديها في سبيلها الوعر الطويل •

لقد تناول الخليل كل ما عرفته البيئة البصرية من ثقافات ، فقوتها
وتعهدا ، وأحسن تربيتها ، وأبدع في أعمال علمية أخرى لم تخطر على بال
معاصر له مع أن من بين معاصريه علماء ومبدعين يعسر تعدادهم • وقد كان
ابداعه أسرع من أن يدركه زمن ، فلم يتسع وقته لتسجيل كل ما كان ينطوى
عليه من أفكار ، فكان يملّه على تلاميذه ، وكان تلاميذه يكتبون ، وكانوا له
أوفياء حقا ، نقلوا عنه نقلا آمينا ، وفي مقدمة هؤلاء سيبويه الذي اقترن اسمه
باسم أستاذه ، ونال من الشهرة ما لم ينله دارس نابه ، عاصره أو تأخر عنه •

ان الامام بأعمال الخليل غاية ليس من اليسير تحقيقها ، وان دراسة
أعماله لتحتاج الى أكثر من متخصص واحد • يضاف الى ذلك أن كثيرا من
آرائه وأقواله كانت قد تفرقت في بطون الكتب ، وذهب بها تقادم العهد ، ولم
يتيسر للدارس أن يقف عليها ، ولم يكن التدوين اذ ذاك من السعة بحيث
يسجل كل شيء •

ولا يكفي كتاب سيبويه في الامام بكل آرائه ، أو الاحاطة بكل أقواله ،
فلم يكن الخليل في هذا الكتاب الا نحويا ، وليس الخليل نحويا حسب ، ولكنه
لغوى ، ودارس أصوات ، وعروضي ، وهو في كل هذا مبدع أو مخترع ،
وهو في كلها مرجع للخائضين فيها والخائمين حولها • فلا بد لدارس أعمال
الخليل أن يلمّ بكل ذلك ، وهو هدف بعيد ، ومطلب صعب ، وكتبنا القديمة
تتعب من يحاول دراستها ، وأمّات مراجعنا مخطوطات ملؤها التصحيف
والتحريف ، لم يكتب لها أن تتحقق وأن تطبع •

ولا بد لدارس أعمال الخليل من أن يضع نصب عينيه كل ذلك ، ولا بد له
من أن يقضى وقتا طويلا في تلقّط ما يتصل بالخليل في ثنايا الصفحات ، من
كتب لا مطبوعة ولا مفهرسة ، ومن خلال نصوص يعوزها كثير من التمهيص
والتحقيق •

وقد نبهني أستاذي ابراهيم مصطفى ساعة وافق على الاشراف على
اعداء هذه الرسالة - الى وعورة الطريق وصعوبة الموضوع ، ولكنني كنت
تواقا الى أن أكون أول واليج ، ويكفي الدارس أن يهيء للدارسين من بعده
أعرض الخطوط التي ترسم للخليل صورة ، وأن يكفر المحدثون من بعده
عن سيئات التاريخ تجاه مفخرة من مفاخر التاريخ .

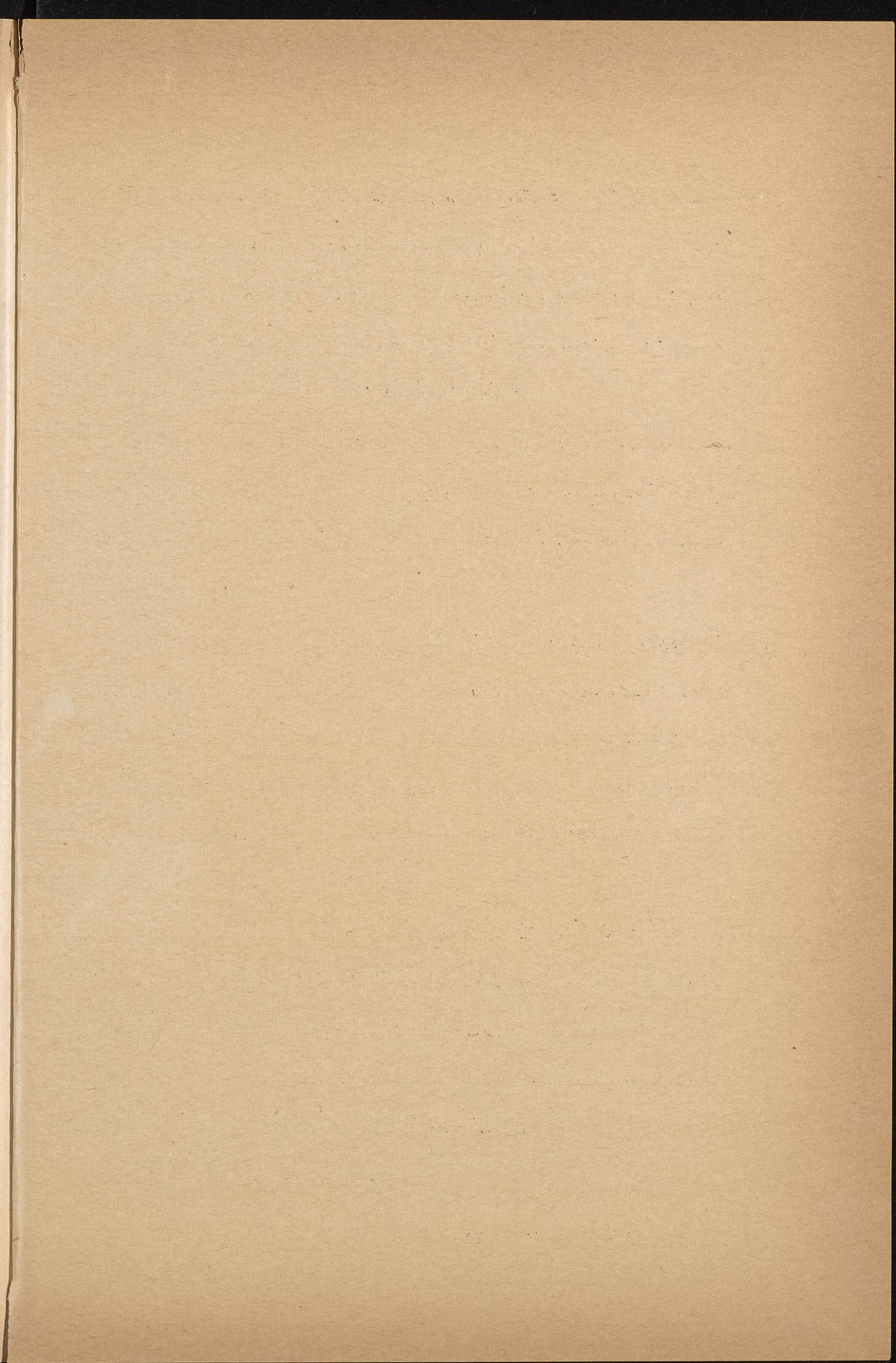
وأنا مع اعترافي ، كما قلت في خاتمة هذه الرسالة ، أنني لم أستطع
الوصول الى كل ماله صلة بأعمال هذا الرجل ، قد بذلت في سبيل ذلك جهدي
وطاقتي ، وأبت بصورة له ان لم تكن مكتملة فانها معبرة ، تحمل الخطوط
الرئيسة التي تقوم عليها .

واذ أعددت هذه الرسالة للطبع لم أشأ أن أغير فيها شيئا ، وحاولت أن
تبقى كما أعدت ، وكما نوقشت ، الا تصحيحات طفيفة لا بد منها ، لاقامة
عبارة ، أو اتمام جملة . أما التبويب ، وأما القصول ، وأما الموضوعات فهي
هي كما أخرجت قبل عشر سنوات ، وقد جدّ لي بعدها ما يعدل موضوعا ،
يزيد عليه أو ينقص منه ، وما يوجه فكرة توجيهها آخر ، ولكنني أرجأت كل
ذلك الى فرصة أخرى .

وما أنس لا أنس ما أفدت من توجيهات أساتذة لي كرام على نفسي ،
أذكر من بينهم أستاذين أشرفا اشرافا فعليا على اخراج الرسالة ، هما الاستاذ
ابراهيم مصطفى والأستاذ أمين الحولى ، وقد حياني من التوجيهات ما يسرّ لي
اعداد هذه الرسالة ، وأستاذًا كنت أختلف اليه ، ثم أشرف على اعداد رسالة
الدكتوراه «مدرسة الكوفة» وهو الأستاذ مصطفى السقا .

فاليهم أوجه شكرى وتقديرى .

١٩٦٠/٢/٢٠ مهدي المخزومي



العراق قبل الفتح الاسلامي

شهد وادي الرافدين حضارات قديمة تركت آثارها في نفوس أهل الوادي فاذا تركنا ذكر الحضارات المتوغلّة في التاريخ كحضارة بابل وآشور فلا بد أن نعرض لدولة السلوقيين اليونانية التي استمرت بالعراق ما يقارب ثلاثة قرون ، ولدولة الفرس ومنها ما تقدم دولة السلوقيين ومنها ما تأخر عنها . كانت مدينة اصطخر في اقليم فارس مركزا للدولة الفارسية قبل فتح الاسكندر وكان العراق اذ ذاك خاضعا للفرس . وكان آخر ملوك الفرس قبل فتح الاسكندر دارا بن دارا الذي ناجزه الاسكندر وقتله .

ثم نشأت بعد موت الاسكندر ممالك صغيرة حكمها ملوك الطوائف الذين دام عهدهم ستين ومائتي سنة كما يقول الدينوري . (١)

وفي هذه الاثناء تأسست دولة السلوقيين ، أسسها سلوقيوس أحد قواد الاسكندر ، وأخذت هذه الدولة تتسع في عهد ملوك الطوائف وعلى حسابهم حتى دان لها العراق ، وبنى سلوقيوس مؤسس هذه الدولة مدينة سلوقية على دجلة بازاء المدينة القديمة التي كانت تسمى اكنزيفون ووردت على السنة المؤرخين العرب باسم طيسفون وهي المدائن ، وأصبحت سلوقية عاصمة السلوقيين الذين دام حكمهم ما يقارب ثلاثة قرون .

وكانت اللغة اليونانية في عهد الاسكندر ، وفي عهد هذه الدولة هي اللغة الرسمية لهذه البلاد كما عرفت فيها حضارة اليونان وثقافتهم ، ولم

يقتصر أثر اليونان على العراق وحده بل تسرب الى بلاد الفرس أيضا ، وظلت الثقافة اليونانية دائرة في هذه الاقطار بضعة قرون (٢) .

ثم كان أن قامت الدولة الرومانية في الشرق واعتنق أباطرتها المسيحية وتعصبوا لها واضطهدوا الوثنيين من فلاسفة اليونان وبعض الطوائف التي لاتدين بمذهب الدولة الرسمي حتى اضطروهم الى الهجرة فهاجروا الى الشرق ، الى الجزيرة والى بلاد فارس ووجدوا من أكاسرة الفرس ترحيبا وتكريما فأسسوا في هذه البلاد مراكز ثقافية ، وكان الفرس يشجعون هذه المدارس ويؤسسون على غرارها مدارس أخرى تدرس فيها الثقافة اليونانية كما حدث في مدينة «جنديسابور» فقد أسسها سابور بن أردشير وأسكن فيها أسرى الروم وبعض الفرس وتأسست فيها مدرسة كان يقوم بالعمل فيها يونان وسريان .

ثم انتهى حكم اليونان في هذه الربوع بظهور الدولة الساسانية على يد مؤسسها أردشير بن بابكان .

نشأ أردشير في مدينة اصطخر واستطاع أن يخضع لحكمه ملوك الطوائف الذين كانوا يحكمون الاقاليم المحيطة باقليم فارس وأن يكون من مجموعها دولة كبيرة أعاد بها ملك فارس الى ماكان عليه قبل مقتل دارا من اتساع ونفوذ . فاتجه الى الشرق حتى استولى على بلاد الجبل التي كان يحكمها الاشغانيون . والى الشمال حتى استولى على الجزيرة وشارف الدولة الرومانية ، والى الجنوب حتى غزا البحرين واخضعها للملكه وبنى فيها مدينة الخط ، والى الغرب حتى أخضع بلاد السواد وبنى هنا وهناك مدنا كثيرة زعم البستاني أنها ثمان منها مدينة بهرمسير مقابل المدائن ، ومدينة فيروزاباد ، ومدينة بهمن أردشير .

(٢) من حديث الشعر والنثر ص ٢٩ .

وقد زعم الدينورى أنه اختط المدائن حين عسكر بموضعها فى أثناء غزوه العراق (٣) ولم أجد ما يؤيد زعمه فان اسمها الاول وهو اكرتريفون قديم ، ولكن لا يبعد أن يكون أردشير قد وسعها واتخذها عاصمة لملكه بعدما استشار الاطباء والمنجمين فأكدوا له «أنه ليس فى المملكة بلد أصح ولا أعدل من تلك البقعة وما قرب منها من اقليم بابل (٤)» .



كان الوادى - ولايزال - خصبا غنيا ، وكان مطعما للمستغلين والمستثمرين وكان العرب يقصدون الى مراعيه الخصبية ، لذلك كان منذ الزمن القديم منزلا للقبائل العربية من معد وغيرهم ، وكانت قبائل اياد بن نزار منتشرة فى السهل المحاذى لبلاد العرب فى المساحة الواسعة بين الجزيرة ومنطقة البصرة (٥) ، ثم أخذت الهجرات تتعاقب ، ومنها هجرة اليمانيين من حُم وغسان ، وكانت بداية هذه الهجرات فى عهد ملوك الطوائف .

ولما عاد الحكم الفارسى من جديد ، وعادت الامبراطورية الفارسية الى ما كانت عليه من اتساع رقعة وامتداد نفوذ كان العراق أحد الأقاليم التى خضعت للدولة الفارسية الجديدة ، وقد شاعت سياسة الفرس أن تشي على الحدود الغربية دولة عربية خاضعة لنفوذها فكانت دولة المناذرة الذين كانوا من حُم ، وقد قامت هذه الدولة على الفرات جنوب المدينة التى مصّرت بعد الفتح الاسلامى وهى الكوفة ، وظلت قائمة تحت حماية الدولة الفارسية يقدم ملوكها للموك الفرس جرايات سنوية ، ويدفعون عن الامبراطورية غارات العدو ويشدون أزرها ضد خصومهم الرومان الى أن جاء عهد سابور الملقب بنى الاكتاف ، فقد أخذ هذا يتحرش بالعرب الذين كانوا يمالئون الروم فى

(٣) الاخبار الطوال ص ٤٦ .

(٤) تاريخ اليعقوبى ج ١ ص ٢٠٠ (طبع أوروبا) .

(٥) تاريخ اليعقوبى ج ١ ص ٢٣٦ (طبع أوروبا) .

الجزيرة وجنوبي الشام وكانوا قد ساعدوا الروم عليه فهزموه وأوقعوا بجيشه،
وظل يحقد على العرب جميعا •

ثم عادت العلاقات بين العرب والفرس ولكن سلطان الفرس على العرب
أصبح أوضح من ذي قبل فقد كان الملك الفارسي يتحكم فى تعيين الملوك ،
كان يولى من يشاء ويعزل من يشاء وكان من نتائج هذا التحكم وذلك الحقد
المتبادل أن تآلبت القبائل عليه ملتفة حول هانىء بن مسعود زعيم شيبان ،
واصطدمت بالفرس فى موقعة (ذى قار) وكانت الغلبة فيها للعرب ، وكان هذا
«أول يوم ظفرت فيه العرب بالعجم» ، والفضل فيه يعود الى بنى شيبان الذين
خرجوا على ارادة الفرس ومنعوا سلاح النعمان عن كسرى •

وبنو شيبان هم الذين سهلوا مهمة العرب فى فتح العراق وفارس بعدما
عجموا عود الفرس وجربوا القتال معهم ، فقد طلب المثنى بن حارثة الشيبانى
الى أبى بكر أن ينجده لمحاربة الفرس الذين أصبحوا فى ذلك العهد فى حال
من الانحلال بحيث لا يصبرون على الضربات القوية يسدها لهم خصوم أقوىاء
فقد أدركهم الضعف ودب فى حكمهم الفساد فما كانت موقعة القادسية
بزعامه سعد بن أبى وقاص حتى أخذت أركان الامبراطورية تتهاوى الى أن
زالت من الوجود •

ومهما يكن من شىء فان نشوء حضارات البابليين والآشوريين فى هذه
البلاد ، ووفود حضارات أخرى يونانية وفارسية وعربية كان مما ترك آثارا
عظيمة فى تكوين عقل أهل العراق ودينهم وعاداتهم ، وكان العرب يسكنون
الوادى ويشاركون فى هذه الآثار •

فلما فتح العرب المسلمون العراق كان لهم اخوان من العرب سبقوا الفتح
واستوطنوا البلاد من قبل وكانوا لهم عدة وسندا فى مواقعهم ضد الفرس •
وكان من جموع الفاتحين العرب ومن هؤلاء وأولئك أمة أسست
حضارة العراق الاسلامية •

(٢)

البصرة

أنا لانعرف بلدا أقرب من بحر ،
وحضرا من بدو ، وريفا من فلاة ،
وملاحا من جمال وقانص وحش من
صائد سمك ، ونجدا من غور من
البصرة فهي واسطة الارض وغوصة
البحر ومغيض الاقطار وقلب الدنيا .

«البلدان»

لقد تم فتح المنطقة الجنوبية من بلاد السواد على يد خالد بن الوليد الذي
لم يجتز هذه المنطقة الا بعد أن احتل الحربية التي كانت تغرا من تغور
الفرس وترك عليها سويد بن قطبة .

وأمر عمر بن الخطاب سعد بن أبي وقاص الذي كان يدير الحركات
الحربية في المنطقة الوسطى أن يرسل عتبة بن غزوان أحد المهاجرين من ذوى
المكانة بين المسلمين مع جماعة من المقاتلين الى منطقة البصرة ، يهدف فى ذلك
الى خطة حربية قوية هى شدّ أزر العرب هنا وتجميد بعض الجيوش التى
خيف أن يستفيد منها الفرس لمقاتلة سعد ، وقال له : «حطّ قيروانك بالكوفة
وابعث بعتبة بن غزوان الى أرض الهند» .

ذهب عتبة بن غزوان الى منطقة البصرة مع بضع مئات من الجنود وأصبح
عتبة هو المرجع المسئول ، واستقرت الأمور وهدأت الحال فى الجنوب فلم يبق
الا أن يدبّر عتبة اسكان من كان معه .

وقد وجد العرب فى منطقة البصرة مستقرا عامرا فقد كانت أهلة قبلهم ،
وكان فيها بعض القرى والمسالح الفارسية لاتزال قائمة كالحربية والزابوقة ،
والدقاقة ، والأبلة ، فاستقر الرأى على أن يحتط عتبة هناك لأصحابه خططا

تكون لهم مستقرا ومقاما ، وكان لابد أن يستشير الخليفة في ذلك فعمل له رأيا آخر يهتدى به ، فأرسل الى عمر يستأذنه في اتخاذ منطقة البصرة معسكرا لجنوده ومستقرا لأسرهم وقد وصفها كما كانت تبدو له وصفا ملائما لما كان يتغيه عمر في تشييد الأمصار ، فقد كان يشترط فيه أن تكون في موضع لايفصلها عن العاصمة الاسلامية فاصل طبيعي قد يكون عقبة تحول دون الاتصال بها اذا أصبحت مهددة بالتطويق من جانب الأعداء .

وقد أذن عمر لعتبة أن يختط نواة هذا المصر الذي سيكون من أهم الأمصار الاسلامية والذي كان له مزايا هامة من الناحية العسكرية والتجارية والثقافية ، وقد حظ المسلمون رحالهم في هذه المنطقة على أنقاض قرية فارسية كانت تغرا من تغور الفرس وهي الحربية .



ولهذه المنطقة أهمية تجارية عظيمة لأنها نقطة اتصال الشرق بالغرب والشمال بالجنوب ، ولأنها ملتقى الخطوط التجارية المنحدرة من الجبال الشرقية التي هي حدّ طبيعي بين العراق وايران ، والخطوط التجارية الآتية من بوادي نجد ، وهي موقع يتوسط المواصلات النهرية الآتية من دجلة والفرات والمواصلات البحرية التي تصل هذه المنطقة بالهند وبموانئ الخليج .

هذه الشبكة من خطوط المواصلات جعلت للبصرة أهمية عظيمة كانت قد لفتت إليها أنظار الفاتحين وجعلت منها مركزا تجاريا مهما كان له شأن في سرعة استقرار الحضارة العربية والتقاءها بالحضارات الأجنبية الأخرى .

ولعل وقوع البصرة في هذه الشبكة من الخطوط التجارية وطرق القوافل يؤيد من ذهب الى أن اصل الاسم فارسي وهو «بس راه» ومعناه «الطرق الكثيرة» (١) ، ولم يكن العرب بادىء الامر يعرفون هذا الاسم كما

(١) معجم البلدان ج٢ ص ١٩٣ .

يفهم من الأمر الذي بعث به عمر بن الخطاب الى سعد بن أبي وقاص : « أن
حطّ قيروانك بالكوفة وابعث بعثة بن غزوان الى أرض الهند» (٢) .

ولقد لفت تمصيرها وموقعها الجغرافي ومرکزها التجاري أنظار الناس
اليها ، فبدأت الهجرات تتوالى عليها ، وكان الجنود الذين تركهم خالد بن
الوليد بعد فتح هذه المنطقة من أوائل المهاجرين اليها . ثم جاءت الموجة الثانية
من الجند بقيادة عتبة بن غزوان ، وكان عدد الجنود الذين جاءوا معه ثمانين
مائة (٣) وقد اصطحبوا معهم عائلاتهم ، وكان العرب الذين يغزون يحملون معهم
نساءهم واطفالهم كأنهم كانوا يقصدون الى الاستيطان حيث يصل بهم الغزو .
ثم أخذ الناس من الحجاز وغيره يتوافدون على البصرة شيئاً فشيئاً حتى
كان عدد من هاجر اليها كبيراً بحيث لم يمض على تأسيسها خمسون عاماً حتى
كان عدد نفوسها ثلاث مائة ألف نسمة (٤) .

وأخذت أعراب بنى تميم تتوافد على البصرة بعد تأسيسها لأنها أصبحت
سوقاً تجارية مهمة بحكم كونها ملتقى للخطوط التجارية ، وكانت منازلهم
متتدة فيما يحاذي البصرة من جهة الغرب الى اطراف الكوفة . ووفدت عليها
جماعات من عرب الحجاز ونجد من قريش وكنانة ومن ثقيف وباهلة ومن
آل بكر بن وائل وعبد القيس وغيرهم ، وأخذت قبائل الأزد كذلك تتوافد عليها
وكان مسكنها عمان حتى أصبح لهم هناك عدد كبير .

وكان في البصرة جماعات كبيرة من الأساورة الذين ينسبون الى سياه
الأسواري أو ينسب اليهم ، وكان سياه هذا على مقدمة يزجرده ، وقد رأى هو
وأصحابه ماتمّ على أيدي العرب من فتح ميين ، وما آل اليه أمر الفرس من
هزيمة فكتب الى أبي موسى الأشعري والى البصرة من قبل عمر بن الخطاب

(٢) البلدان لابن الفقيه ص ١٨٨ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) دائرة المعارف الاسلامية (بصرة) .

وأخبره بعزمه وعزم أصحابه على الدخول في الاسلام بشروط اشترطها على
أبي موسى رفضها أبو موسى أولاً ولكنه خضع لأمر عمر قبلها ، ورضوا هم
أن يقاتلوا عدو الاسلام وأن يضمن لهم أبو موسى المساعدة والحماية حتى من
المسلمين لو اعتدى المسلمون عليهم وأن يكونوا أحراراً ينزلون حيث شاءوا
ويحالفون من أحبوا فكان له ولأصحابه ما أرادوا ، ونزلوا البصرة وحالفوا
بنى تميم ♦

وكانت المنطقة المائية التي تقع شمال البصرة فيما يسمى «البييحة» ملجأ
لأقوام من السند يسمون الزرط ، وكان الحجاج بن يوسف الثقفي قد أسكن
جماعة منهم في هذه المنطقة ومعهم دوابهم للملازمة هذه البيعة لها ♦ وكانت مأوى
لآخرين من النبط الأرامي الاصل وهم الصائبة الذين لا يزالون يحتلون
هذه المنطقة المائية التي تسمى الآن «هور الحمّار» ويكثرون في جنوبها وعند
مدينة القرنة الواقعة عند ملتقى دجلة والفرات ♦

وكان هناك عنصر آخر له اتصال قديم بهذه المنطقة ولا يزال هذا الاتصال
قائماً حتى اليوم ، وكانوا كما يروى البلاذري يسكنون في البحرين وفي
منطقة السواحل ، هذا العنصر هم السابجة الذين كانوا يفدون من جزائر
الهند الشرقية ومن جاوة ، وهذه المنطقة الجزرية اتصال قديم ببلاد العرب
يعرفه العرب القدماء من سكان اليمن والبحرين وهذه المنطقة التي سميت بهم
وبالزط وغيرهم من الهنود «أرض الهند» أعنى البصرة ♦

ولليونانيين في إقليم البصرة مقام ملحوظ فقد كانت البصرة لهم سوقاً
تجارية وكان لهم فيها جالية أسكنها الاسكندر حين غزا بلاد «ماين النهرين»
وظلت هذه الجالية هناك تتكاثر منذ ذلك العهد ♦

يؤيد هذا ما ذكره ابن الفقيه من أن عبيدالله بن زياد بنى داراً في
البصرة وفيها باب ينفذ الى سكة أصفانوس وباب آخر الى السكة التي

تعرف بالبخرية فان وجود سكة في البصرة تنسب الى اصطفانوس وهو اسم يوناني يعنى وجود يونانيين (٥) •

يضاف الى هؤلاء جميعا بعض العناصر الزنجية التي جاءت الى هذه المنطقة من السودان او من زنجبار الواقعة على الساحل الافريقي الشرقى (٦) •

وكان لأهل البصرة موارد كثيرة هيأها لهم موقع البصرة الجغرافي ومركزها التجارى كالزراعة واستثمار النخيل والصيد وانشاء الحمامات التي كانت تدر عليهم أرباحا طائلة ، ولكن أهم مصدر مالى لهم هو التجارة ، وقد اشتغل بها العرب وغيرهم ، ولم تقتصر التجارة على المنفعة المادية فقد أكسبت البصريين خبرة وحكمة وصبغت عقلياتهم بالصبغة العملية وطبعت لغتهم بطابع خاص •

ومهما يكن من أمر فان مجتمعا كمجتمع البصرة يشغل بالتجارة والزراعة وبالأعمال الأخرى التي لا بد أن يحتاج اليها مجتمع كمجتمع البصرة ، لا بد أن يكون قد أثرى ووجد فيه أثرياء كثيرون ، وقد أثرى فعلا ووجد فيه من الأموال والثروات مالم يوجد فى غيرها ، وتوفر فيها من أسباب الترف والنعيم مالم يتوفر فى سواها ، وكانت المعيشة فيها لا تخلو من يسر ورخاء حتى كانت «خير بلاد الله للجائع والغريب والمفلس» (٧) •

(٥) البلدان لابن الفقيه ص ١٩١ (طبع أوروية) •

(٦) دائرة المعارف الاسلامية (بصرة) •

(٧) معجم البلدان ج ١ ص ٢٠٢ •

(٣)

الاندماج

كان في البصرة - كما مرت الإشارة إليه - عنصر عربي وعناصر أجنبية مختلفة • عاشت هذه العناصر بعد تمصير البصرة في بيئة واحدة وحيث حياة مشتركة وتفاعلت بهذه الحياة المشتركة عادات القوم وتقاليدهم وتقابلت عقلياتهم فتأثر بعضها ببعض •

وأهم العناصر التي عاشت فيها عنصران كبيران هما العنصر العربي والعنصر الفارسي وأوضح مظاهر الاندماج يتمثل فيما تبادلته هذان العنصران من اقتباس ، فقد اقتبس الفرس من العرب كثيرا ، واقتبس العرب من الفرس كثيرا ، وشارك الفرس العرب في لغتهم ودينهم وفي حياتهم الاقتصادية وحياتهم الثقافية ، وتركوا في ذلك كله آثارا تمثل فيما ظهر في المجتمع العربي الاسلامي من أهواء ليس للاسلام بها عهد ، وفيما سنعرض له من عادات وتقاليد أجنبية طارئة •

كان للعنصر العربي لغته الخاصة ودينه الخاص وله تجارته واتصالاته بالروم والفرس ، وله جيشه المنظم وله عاداته وتقاليد •

وكان للعنصر الفارسي لغته الخاصة ودينه الخاص وتجارته وموائمه وجيوشه المنظمة وله عاداته وتقاليد أيضا •

وكان للفرس تنظيم اقتصادي داخلي « كان لملوكهم ديوانان أحدهما ديوان الخراج والآخر ديوان النفقات فكان كل مايرد فالى ديوان الخراج وكل ماينفق ويخرج في جيش وغيره ففي ديوان النفقات » (١) •

(١) الجهشيارى في «الوزراء والكتاب» ص ٣ (القاهرة) •

وكان للعرب أيضا حياة اقتصادية منظمة ولم يكونوا بالشكل الذى عرف
عن بدو رحل فقد كان لحواضرهم ولاسيما الحواضر الحجازية تجارة منظمة
تتصل بالأجانب وتقوم مقام الصلة بين العرب فى أنحاء الجزيرة وبين البلاد
الأجنبية ، وكان لأهل الحجاز رحلتان تسيّر القوافل فى احدهما الى الشمال
للمتاجرة مع الروم وفى الأخرى الى الجنوب للمتاجرة مع الهند والفرس
والأحباش ، وقد اقتبسوا بهذه الاتصالات كثيرا يتصل بعضه باللغة وبعضه
بالشئون الاجتماعية الأخرى •

وكان للعرب حين جاء الاسلام ثقافة دينية ، وتجارية واقتصادية صورتها
لنا الآيات الكريمة التى تعالج التنظيم الاقتصادى وشئون المعاملات والعبادات •
وقد تأثر هذان العنصران أحدهما بالآخر ، أما تأثر الفرس بالعرب
ففى شيئين مهمين هما الدين واللغة •

أما الدين فقد انتشر فى هذه الربع حتى أصبح يشرف على الوثنية
فى مجاهل الهند والصين ، وكان الداخلون فى هذا الدين اناسا آمنوا به ايمانا
عميقا ، وحرصوا عليه ، وكان لهم فضل المشاركة فى تدعيم أركانه ، ومن
هؤلاء كثير من الصحابة والتابعين وتابعى التابعين كسلمان الفارسى وسعيد بن
جبير والحسن البصرى ومحمد بن سيرين وغيرهم •

وأما اللغة فكان لها أثر عظيم أيضا فقد أقبلوا على تعلمها لأنها لغة
القرآن ولغة الدين ، ولغة الحياة أيضا لقوم دخلوا فى حكم عربى وخضعوا
لدولة عربية •

أقبل الفرس على تعلمها حتى مهرروا فيها وأقبلوا على القرآن يحفظونه
ويتدارسونه وعلى الأحاديث يروونها فكان قراء ومحدثون ، وأقبلوا على
الشعر يروونه ويقرضونه وظهر منهم شعراء مجيدون كبشار بن برد وأبى
نواس ، وسلم الخاسر وأبان اللاحقى وغيرهم •

والمعلوم أن الشعر والموسيقى من الفنون التي تتوارثها الأمم وتتصل
بسلاقتها وملكاتهما ولكن الفرس مع هذا قد تأثروا بالأدب العربي والشعر
خاصة واستساغوا موسيقاه واستعاروا أوزانه يوم أخذت الحياة تدب في
الفارسية مجددا ♦

وظهر فيهم كتاب كابن المقفع وأمره معروف ، وخطباء كموسى بن
سياه الاسوارى الذى قال فيه الجاحظ : «انه كان من أعاجيب الدنيا ، كانت
فصاحته بالفارسية فى وزن فصاحته بالعربية ، وكان يجلس فى مجلسه المشهور
به فيقعد العرب عن يمينه والفرس عن يساره فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرها
للرب بالعربية ثم يحول وجهه الى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية فلا يدري
بأى اللسانين هو أبين ، واللغتان اذا التقتا فى اللسان الواحد أدخلت كل واحدة
منهما الضيم على صاحبها الا ما ذكرنا من لسان ابن سياه الأسوارى» (٢) ♦

وأما تأثر العرب بالفرس فقد كان واسع المدى أيضا ، أثر الفرس فى
اللغة العربية فأدخلوا فيها مفردات فارسية ، وأكثرها يتصل بأسماء الأطعمة
والأشربة ومجالس اللهو وأدواته الى غير ذلك ♦

كما أدخلوا بعض القواعد النحوية الفارسية فقد شاعت فى بيئة البصرة
نسبة فارسية تتمثل بالحقاق (آن) فى آخر الاسم فكانوا يقولون فى النسبة الى
طلحة وحات : طلحان وحاتان ، وفى البصرة قطائع وأنهار منسوبة الى
أصحابها بهذه الطريقة الفارسية كزيادان وأميتان وسليمانان نسبة الى زياد
وأمية وسليمان (٣) ♦

وتأثرت العربية أيضا بهذا الاندماج فشاعت اللفظة واللفظ ولم يقتصر
أمرهما على الموالى حسب بل تعداهم الى العرب أنفسهم وظهر اللحنون واللفظ

(٢) البيان والتبيين ج ١ ص ٣٤٦ ♦

(٣) فتوح البلدان - فصل تمصير البصرة ♦

وقد تحدث عنهم الجاحظ وغيره ، وعبيدالله بن زياد الذي كان يلكن بالكاف مثل من هذه الأمثلة . (٤)

وكان الفرس قد وغلوا في الحضارة وأسباب الترف ، وكانوا يتأقنون في ملابسهم وماكلهم ومشاربهم وملاعبهم فأقتبس العرب منهم أساليبهم ، وكان للفرس نظم خاصة في مجالسهم فأخذ العرب يرتادون أماكن الشراب التي تكثر فيها الأزهار والرياحين « وكانت أرض قاعة الشراب ينثر عليها الزهر كما كان الحال عند القدماء وعند الروم البيزنطيين وكانت أكاليل الزهور تزين رءوس الشاربين » (٥) .

وأقتبس العرب منهم حتى أدوات التسلية فلعبوا بالترد وقامروا به ولعبوا بالشطرنج وكانت هذه اللعبة لهوا للأمرء والوزراء والحلفاء أيضا وكانوا يتسابقون في المهارة بها .

هذا الى ما اقتبسه العرب من نظم ادارية كنظام الدواوين ، ومن أساليب تتصل بنظام الحكم كنظام الوزارة ونظام الحكم المطلق .

وكان قيام الدولة العباسية بعد بمثابة انقلاب خطير شمل كل النواحي من اجتماع وسياسة وثقافة ، وكان من اليسير جدا أن ينقل هؤلاء الأجانب الذين احتلوا كثيرا من مناصب الدولة الى المجتمع الجديد ما كانوا أفقوه من أساليب تمس المجتمع والسياسة والعقيدة وشجعهم على ذلك ما رأوه من الدولة من عناية وتشجيع .

فاذا أضفنا الى هذا التأثير المتبادل بين العرب والفرس التأثير المتبادل بينهم وبين العناصر الأجنبية الأخرى بحكم اختلاطهم بهم والتعامل معهم أدركنا أننا ازاء مجتمع جديد ليس عربيا خالصا ولا أجنبيا خالصا قوامه الدين

(٤) البيان والتبيين ج ٢ ص ٢١٣ .

(٥) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع (آدم ميتس) ج ٢ ص ١٨٠ .

العربي واللغة العربية وكتاب العرب وعادات وتقاليد وثقافات عامة من هؤلاء وأولئك ، وقد تفاعلت هذه العناصر كلها بما لها من عادات وتقاليد وآداب وثقافة وكان من تفاعلها أن ظهرت عقلية خاصة ترجع الى أصول مختلفة عربية وفارسية ويونانية وسريانية وهندية ، أو على حد تعبير الدكتور طه حسين: ثقافة عربية خالصة تعتمد على القرآن وما يتصل به من علوم الدين ، وعلى الشعر العربي وما يتصل به من نحو ولغة ، وثقافة يونانية تعتمد على الطب والفلسفة ، وثقافة شرقية تستمد أصولها من الفرس والهنود والأمم السامية التي كانت منتشرة في العراق (٦) .

وكانت البصرة والكوفة أيضا مختبرا لهذه الثقافات ومسبكا تسبك فيه العقلية المتباينة ، وكانت مددا لا ينضب للعاصمة العربية الجديدة في العهد العباسي تبعثان اليها بالعلماء والفقهاء والأدباء والشعراء وبما تيسر لهما من ثقافات .

وكان الاندماج في البصرة أوضح منه في الكوفة فقد كان الاختلاط في البصرة أقوى منه في الكوفة ، وكانت البصرة تمتاز بحياة تجارية قائمة على التعامل وتبادل المنافع وما يستتبع من تفاعل في العقلية والثقافات .

(٦) من حديث الشعر والنثر ص ٩٠ (الطبعة الثانية) .

(٤)

المامة ب حياة البصرة الثقافية

جاء الاسلام ونصيب العرب من الثقافة يتناسب مع أساليب حياتهم ، وبضاعتهم منها هي ما كانوا يحفظونه من شعر وخطب وأمثال ، وما كانوا يروونه من سير الأبطال وقصص البطولات ، ثم أضاف الاسلام اليها أشياء جديدة هي ماتضمنه القرآن الكريم من أحكام دينية ونظم اجتماعية كان الهدف منها تنظيم تلك الكتل البشرية المتفرقة على وجه الجزيرة العربية وارشادهم الى الطرق القويمة لتنظيم علاقات الأفراد بالجماعة ، وقد أبطل الاسلام أن تكون القبيلة هي وحدة المجتمع وأحل محلها وحدة عامة شاملة لا تقتصر على قبيلة بعينها وانما جمع تلك الأشتات بجامع واحد تحت رمز واحد هو الاسلام فأخذت القبائل تتقارب وأخذت الفواصل بينها تختفي شيئاً فشيئاً •

جاء الاسلام ليكون من هذه الأشتات أمة واحدة تتعارف فيها القبائل وليقيم نظاما من السلام يكون فيه كل ذى دين آمناً على ماله ودينه ونفسه ، وترك للرعايا أن يقوموا بشعائر دينهم من غير أن يكلفهم الا الجزية وهي ثمن الأمان ونفقات السلام ولكن المتعصين عادوا الى اضطهاد من يخالفهم واحتقارهم فنفر أصحاب الأديان منهم وعادت العداوات التي كان الاسلام يسعى لمحوها بين الناس •

وكان العراق أكثر الأقاليم تأثراً بالأجانب لأنه أقرب الأقطار من بلاد العجم والبيط ، وليس غريباً أن تشيع اللكنة وأن يتفشى اللحن فيه لأن الأقوام قد اندمج بعضهم في بعض واللغات قد اتصل بعضها ببعض فلا بد أن يتمثل أثر هذا الاتصال وذاك الاندماج بظهور اللحن أو اللكنة لأن اللغات تتصل

بسلامة القوم وملكاتهم ، واللغتان اذا التقتا فى اللسان الواحد أدخلت كل واحدة منهما الضيم على صاحبها كما كان الجاحظ يقول •

فلا عجب اذن أن يهتم العرب والمسلمون بالقرآن والحديث مخافة أن يتسرب اليهما اللحن فتذهب اللغة ثم يذهب كيانهم الجديد فكان أول ما اهتموا به هو القرآن ، وسنرى كيف تطورت الدراسة القرآنية فى فصل قريب •

وتنشأت مدارس لاقراء القرآن واتخذت المساجد أماكن للاقراء ووجد معلمون لعامة الصبيان ، ومعلمون لخاصتهم من أبناء الخلفاء والولاة ، واهتم الناس - بالإضافة الى اهتمامهم بالقرآن - بما كان لهم من شعر وثقافات وأخذوا يدونون ذلك فنشأت فى العالم الاسلامى نواة المكتبات ، ولم يكن هناك كتب تتألف منها المكتبات وانما كان هناك مجموعات من المدونات تحتوى على أشئآت من هنا وهناك ، من حديث الى نادرة أدبية ، الى لفظ غريب ، الى مثل قديم ، الى مقطوعة شعرية ، الى مسألة فقهية أو كلامية أو نحوية ، فلم يكن التأليف معروفا فى المائة الأولى لأن التأليف مظهر من مظاهر التنظيم العلمى وأثر من آثار حياة عقلية منظمة وهو ما لم يتوفر للمجتمع العربى الاسلامى اذ ذاك •

وتطورت الحال فنشأت فى المساجد مجالس القصص وظهر قصاصون مثقفون يقصون على الناس ، وكان بعض أئمة اللغة والنحو والفقهاء يختلفون الى هذه المجالس فقد كان عمرو بن عبيد يختلف الى مجلس الفضل بن عيسى الرقاشى ويونس بن حبيب يختلف الى مجلس عمرو بن قائد الأسوارى يسمع منه كلام العرب (١) ، لان عامة قصاص البصرة كانوا قد توفر لهم نصيب كبير من الثقافة العامة ، ولعل موسى بن سياه الأسوارى الفارسى الذى

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ٢٨٣ •

كان يتقن العربية اتقانة الفارسية ، والذي كان يخوض فى موضوعات ثقافية مختلفة ، مثل رائع من هذه الأمثلة الكثيرة التى عجت بها البصرة •
ولأسواق الأمصار أثر كبير فى حياتها الثقافية فقد كان شعراء الكوفة يخرجون الى ظاهرها فيتحدثون ويتذكرون أيام الناس (٢) •

وكان شعراء البصرة وخطباؤها ورواتها يخرجون الى ظاهر البصرة وفى ظاهرها سوق أو مناخة لابل الأعراب القادمين من البادية للتمون من أسواق البصرة ، وهى المربد • وللمربد فى حياة البصرة بوجه خاص وفى حياة العراق بوجه عام أثر كبير فى الحياة الثقافية • وقد نشأ المربد فيما نعتقد سوقا تجارية يقصد اليها الأعراب يمتارون مما فى البصرة من غلات ، ثم أخذت هذه السوق بالتدريج تتبوأ مكانة علمية كان لها أثر فى الحياة العقلية ، فلم تسكد تنشأ هذه السوق حتى استغلتها القبائل للمفاخرة والمباهلة واستغلها الشعراء فى اظهار مواهبهم والدفاع عن عصبياتهم •

ومن أجل أن المربد كان مقصدا لأعراب الجزيرة. فقد كان موردا هاما للغويين والأدباء والشعراء والرواة • وشعر أصحاب الأهواء ورؤساء المذاهب بأهمية هذه السوق فاتخذوا منها مسرحا لمجادلاتهم ومناظراتهم وميدانا يدعون فيه الى آرائهم ومذاهبهم •

وكان فى البصرة ألوان من الصراع كان يتمثل أول الأمر بما كان يدور بين أحزاب المسلمين من جدال وكان له صلة بالصراع القبلى القديم ، ثم أخذ يتحول الى صراع بين الشعوب يوم أخذت الحركات التحريرية التى كانت تديرها الشعوب المغلوبة على أمرها فى الحفاء - تعلن عن نفسها جهارا حين شالت كفة العرب وأخذ الوضع يتطور فى مصلحة الشعوب المحكومة • وأخذ هذا الصراع يصطبغ بصبغة علمية يوم أخذت الحياة العقلية

(٢) الاغانى ج ١٤ ص ٣٠ (ساسى) •

تستقر وتتاول بالتنظيم مرافق الحياة الأخرى • وتشعب الصراع العلمي حتى سرى بين الطوائف العلمية المختلفة ، وكان أبطاله رجال العلم والأدب وأصحاب الكلام ، ومجاله حلقات الدرس في المساجد العامة ، وفي المجالس الخاصة التي كان الأمراء والوزراء يعقدونها لهذا الغرض كما حدث بين الأصمعي وأبي عبيدة في مجلس الفضل بين الربيع (٣) وكما حدث لعمر و ابن العلاء وعبدالله بن أبي اسحاق في مجلس بلال بن أبي بردة (٤) ، وكما حدث بين سيبويه والكسائي في مجلس يحيى بن خالد في المسألة النحوية المعروفة •

كان لهذه العوامل المختلفة أثر كبير في خلق حياة ثقافية عامة وفي ايجاد التنافس الذي لا بد منه لوجود حركة عقلية نشيطة دائبة •

ولما كانت نواة الحركة العلمية قد نبتت منذ أن اهتم المسلمون بالقرآن عقدت الفصل الأول للدراسة القرآنية لانها - فيما أرى - تعد أساسا للدراسات العربية ، تبعت فيه تطور العمل القرآني وتشعب مدارسه ، وعينت باجمال القول فيها لما لها من صلة وثيقة بنشأة النحو بوجه عام ونحو الخليل بوجه خاص •

(٣) نزهة الالباء ص ١٦٦ •

(٤) نزهة الالباء ص ٢٢ ، ٢٣ •

الفصل الاول

القرآن والمسلمون

عنى المسلمون بعد أن جمع القرآن فى عهد عثمان بحفظ متنه من التحريف واللحن بعد أن اخذ الأعاجم يسلمون ، وقد أخذ هؤلاء يتعلمون العربية ويقربون كتاب الله الكريم ويتدارسون أحاديث الرسول وليس لهم سلائق العرب ولا ملكاتهم فشاع اللحن وسرت عدواه الى العرب انفسهم ، وتنبه الصحابة والتابعون فرفعوا شكواهم الى اولى الامر ، وكان زياد بن أبيه يومئذ واليا على العراق بمصريه فى خلافة معاوية •

أدرك زياد أن خطرا كبيرا يهدد القرآن فأراد أن يعمل شيئا يدفع به هذا الخطر ويقوم بنصيه من هذا العمل الذى بدأه عمر ، وكان زياد شديد الإعجاب بعمر حريصا على أن يحتذيه ويترسم خطاه ، وكان عمر هو صاحب الفكرة الأولى فى جمع القرآن وحفظه من الضياع ، ولم يكن يومئذ يستهدف لبعض هذا الخطر الذى أصبح يتهده فى عهد زياد فقد أخذ اللحن يتفشى ويشيع حتى سمع فى القرآن نفسه • فعهد زياد بهذه المهمة لأبى الأسود الدؤلى ولكن الجفاء الذى كان بينه وبين زياد بسبب ولائه لعلّ حال بادىء الامر دون أن يستجيب له فاستعفاه • ولكنه عاد اليه يوما ليضع نفسه تحت تصرفه ويقوم بما طلب اليه فقد سمع يوما قارئاً يقرأ : «ان الله برىء من المشركين ورسوله» بكسر اللام ، فأدرك أبو الأسود ضرورة العمل الذى طلب زياد اليه أن يقوم به •

وهيّا زياد لأبى الأسود ماشاء من كتّاب وأدوات فاختار أبو الأسود كاتباً وأوصاه بهذه الوصايا • قال له : «إذا رأيتى قد فتحت فمى بالحرف

فانقط نقطة فوقه على أعلاه فان ضمنت فمى فانقط نقطة بين يدي الحرف وان كسرت فاجعل النقطة تحت الحرف ، فان اتبعت شيئاً من ذلك غنة فاجعل مكان النقطة نقطتين •» (١)

وظل هذا يقرأ وهذا ينقط حتى أنما اعراب القرآن ، وأذاع زياد هذا في الناس وأخذ عن أبي الأسود تلاميذه وأصحابه • فعمل زياد هذا يعدّ متمماً لما قام به عمر وعثمان فقد أراد أن يكتب القرآن بشكل يضمن له زوال اللحن عنه ، وليس وضع هذه النقط التي هي علامات للاعراب إلا محاولة لحمل الناس على قراءة صحيحة يستوى في الاستفادة منها العربي وغير العربي • ومرت الأعوام والناس يقرءون بهذا ولكن القرآن لم يسلم من التعرض للخطأ فقد هدده خطر جديد شاع بعدما استقرت الحياة وعاش الأجنب الى جانب العرب في بيئة واحدة وحيوا معهم حياة واحدة ، واذا استطاع العرب بسلاقتهم أن يميزوا بين الحروف اذ كانت غير منقوطة مستعينين بدلالة القرائن وسياق القول فليس للاجانب هذه الملكة ، وشاع أمر هذا التصحيف حتى خشي أولو الأمر والعلماء أن يذهب بكتاب الله •

كان الحجاج اذ ذاك واليا على العراقيين ، وكان من الولاة الذين استهوتهم سيرة زياد فأراد احتذاه والتشبه به ، وقد وقف الحجاج على خطورة الحال فجمع كتابه وأمرهم أن يعملوا شيئاً يتلافون به حدوث شيء في كتاب الله •

وفكر العلماء في ذلك وكان من بينهم نصر بن عاصم الليثي أحد تلاميذ أبي الأسود ، وكان نصر بطل هذا الميدان فتوصل الى طريقة الاعجام التي تتميز بها الحروف الهجائية بعضها من بعض فقد رتب الحروف جماعات ووضع كل حرف الى جانب الحرف الذي يشبهه في الصورة ، وميّز الحروف

(١) أخبار النحويين البصريين لابي سعيد السيرافي ص ١٦ (بيروت) •

المتشابهة بالنقط ، وخالف بين هذه النقط أفرادا وأزواجا ، وغاير بين مواضعها
فوضع بعضها فوق الحرف وبعضها تحت الحرف وأتمّ هذه العملية التي سميت
اعجاما . (٢)

وتعمد هذه العملية على النقط أيضا ولكنها تختلف عن عمل أبي الأسود
من حيث الغرض ، فعمل نصر يهدف الى تمييز الحروف المتشابهة في الصورة ،
وعمل أبي الأسود يهدف الى تمييز أجزاء الجملة ضما وفتحا وكسرا .
وعمل نصر هذا - كما يبدو لي - أساس لترتيب الحروف ترتيبا جديدا
وهو : أ ب ت ث ج ح خ د ذ الخ . . .

(٢) أنظر ترجمة الحجاج بن يوسف الثقفي في وفيات الاعيان .

(١)

مدارس القرآن في الكوفة

عنى المسلمون في الأمصار باقراء القرآن ، يحدوهم الى ذلك غيرتهم على القرآن من جهة والأحاديث التي تحثهم على قراءته واقراءه من جهة أخرى • وكانت الكوفة سبابة الى ذلك فقد عنيت منذ تمصيرها باقراء القرآن ورواية القراءات ، وقد جلس القراء في مسجدها الجامع يلقنون تلاميذهم القراءات التي رووها باسانيدهم ، وكان أبو عبدالرحمن السلمى شيخ القراء فيها وأول من قعد للاقراء في مسجدها ، وكان قد أخذ القراءة عن عليّ وعثمان وعبدالله بن مسعود وأبي بن كعب ورواها عنه الحسن والحسين ابنا علي ، وعاصم بن أبي النجود •

وكان من شيوخ الاقراء فيها أيضا زرّ بن حبيش أحد الأعلام في القراءة واللغة ، وعاصم بن أبي النجود الذي أخذ القراءة عن أبي عبدالرحمن السلمى وزرّ بن حبيش وغيرهما •

وكان من شيوخ الاقراء فيها أيضا حمزة بن حبيب الزيات أحد القراء السبعة ، وكان مقرئًا حافظًا للحديث بصيرا بالفرائض حتى قال له أبو حنيفة يوما : «شيثان غلبنا عليها لسنا ننازعك فيهما : القرآن والفرائض » (١)

ومن هؤلاء الشيوخ وغيرهم تتكون مدرسة الاقراء في الكوفة ، وهذه المدرسة وان ظلت قائمة خلال العصور - تعد بمثابة الاتجاه الأول الذي اتجهت اليه دراسة القرآن ، وهي مدرسة قائمة على الرواية والتلقين لاتكاد تتعداهما •

(١) غاية النهاية لابن الجزرى ج ١ ص ٢٦٣ •

وهناك في الكوفة طبقة من القراء لم يكتفوا بالتلقين بل عنوا بالجانب
العملي من القرآن وهو الجانب الذي يعنى بالأحكام الشرعية من عبادات
ومعاملات ، وهذه الطبقة هي طبقة الفقهاء •

والكوفة منذ تمصيرها كانت موطن الفقه ومستقر الفقهاء ، نزل بها
عدد كبير من الصحابة ، وتصدر للفتيا بها علي بن أبي طالب وعبدالله بن مسعود
وشريح القاضي وغيرهم •

ونشأ من تلاميذ هذه المدرسة فقهاء كان لهم نشاط ملحوظ في الميدان
العلمي وتركوا للناس مجموعة قيمة من الفتاوى في مختلف الأحوال ،
وفي مقدمة هؤلاء : عامر بن شراحيل الشعبي وسعيد بن جبير ، وقد كان
هذان التابعان زعيمى هذه المدرسة بعد علي بن أبي طالب وعبدالله بن مسعود •
وجاء بعدهما محمد بن أبي ليلى وهو من أعلام الفقه والقضاء وكان مقرئاً
أيضاً ولى القضاء لبني أمية وبنى العباس وكان يفتى بالرأى • (٢)
والكوفة بهؤلاء ومن جاء بعدهم زعيمة أمصار العراق في الفقه ،
ومصدر المذهب الرسمي للدولة الإسلامية في صدر الدولة العباسية •



وهناك في الكوفة طبقة أخرى من القراء عنت بالجانب اللفظي ، وعنى
أصحابها وشيوخها باعراب القرآن ورواية اللغة لتصحيح القراءات ، وحاولوا
التوفيق بين القراءات التي كانوا يروونها وقواعد الاعراب التي تعلموها في
مدارس البصرة التي سبقت الكوفة في هذا الميدان بما يقرب من مائة عام •
ومن شيوخ هذه المدرسة :

علي بن حمزة الكسائي : أحد القراء السبعة • انتهت اليه رئاسة الاقراء
بعد حمزة بن حبيب • كان قد أخذ القراءة عن ابن أبي ليلى وعيسى بن عمر

(٢) فهرست ابن النديم ص ٢٨٦ •

الهمداني ، وحمزة بن حبيب • وأخذ اللغة عن أبي جعفر الرواسي
والخليل بن أحمد الفراهيدي •

كانت الحلقة التي تحيط به في مسجد الكوفة أكبر الحلقات وأكثرها
طلابا ، وكان يجمع طلابه ويجلس على كرسي ثم يتلو عليهم القرآن «وهم
يسمعون ويضبطون عنه» (٣)

ويحيى بن زياد الفراء : وكان من نحاة الكوفة وشيوخها في العربية
كان ثعلب يقول : «لولا الفراء لسقطت العربية» (٤) •

يروى ابن النديم أنه قال لأصحابه : «اجتمعوا حتى أملى عليكم كتابا في
القرآن ، وجعل لهم يوما فلما حضروا خرج اليهم وكان في المسجد رجل
يؤذن ويقرأ بالناس في الصلاة فالتفت إليه الفراء فقال له : اقرأ فاتحة الكتاب
نفسرها ثم نوفي الكتاب كله ، فقرأ الرجل وجعل الفراء يفسر» (٥) •

ولم يكن الفراء مقرئا ولكن كان ممن عنوا بدراسة القرآن وتفسيره ،
وكان قد ألف كتابا اثبتها ابن النديم وغيره ، منها كتاب معاني القرآن ، وكتاب
المصادر في القرآن وكتاب الجمع والتشنية في القرآن •

وبالموازنة بينه وبين الكسائي نجد أن الكسائي كان مقرئا وكان نحويا
لا يغلب عليه أحد الوصفين ، وأن الفراء غلبت عليه الناحية اللغوية وان كانت
له دراسات في القرآن •

والفراء من حيث تطور الدراسات القرآنية في الكوفة يمثل الدور الثاني
لمدرسة الكسائي وهي المدرسة القرآنية الثالثة التي ظهرت في الكوفة وهي
التي تعتمد على الاقراء والاعراب بمعناه الاصطلاحي •

(٣) النشر في القراءات العشر ج ١ ص ١٧٣ •

(٤) نزهة الالباء ص ١٢٧ •

(٥) فهرست ابن النديم ص ٩٩ •

(٢)

مدارس القرآن في البصرة

أما أهل البصرة فلم يكن اهتمامهم بالقرآن أقل اهتمام أهل الكوفة به فقد أقبلوا عليه يقرءونه ، وتآلفت في مساجدها حلقات الاقراء وامتلاّت المساجد بشيوخ القراءة وطلابها كما كانت الحال في الكوفة •

وكان جعفر بن الحسن أول من اتخذ في مسجد البصرة حلقة وأقرأ القرآن فيها (١) • وكان عبدالله بن عباس يعتلى المنبر ثم يقرأ القرآن ويفسره ويحدث الناس بالأحاديث التي سمعها ، وكان له تلاميذ أخذوا عنه القراءة والتفسير والفقه والحديث • ومنهم تابعيان مشهوران هما أبو الاسود الدؤلي وسعيد بن جبير ، فنشأت اذ ذاك مدرسة قرآنية لم تقتصر على العناية بما عني به القراء من اقراء وتلقين ، وانما عنت بشيء آخر أهم من ذلك هو فقه القرآن ومعرفة أحكامه والنظم الاجتماعية التي يرمى الى تحقيقها ، وهي المدرسة الفقهية التي شاهدنا قيام نظيرتها في الكوفة •

سارت هذه المدرسة على ذلك المنوال ، وزادت فيه أخيرا أشياء أخرى ، ومن أجل أن البصرة بيئة معقدة فيها مذاهب دينية مختلفة ، وفيها عناصر وثقافات متباينة كان لمدرستها الفقهية طابع خاص هو أثر من آثار الامتزاج بين الثقافات والعقليات •

وأكبر الظن أن لوجود عبدالله بن عباس وقراءته القرآن على المستمعين

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ٣٤٥ •

وتفسيره آية آية أثرا في هذا الاتجاه أيضا • وكان الحسن البصرى يصفه
فيقول : « كان والله مثلجاً يسيل غرباً » (٢) •

ولاشك أن عبدالله بن عباس وغيره من المفسرين كانوا يعرضون
للآيات التي تتناول الخير والشر وفعالهما ، وموقفه من الخالق ، وللآيات
التي تعرض للمؤمن والكافر والفاسق والمنافق ، وللآيات التي تعرض
للقضاء والقدر ، والتي تعرض للخالق والمخلوق ولمناشدة الانسان أن يفكر
في السماوات والأرض وفي نفسه ليقف على قدرة خالقه ، فيدلون بآرائهم
وفق ماتسمح به ثقافتهم •

ولما تمّ الاندماج الفكرى وامتزجت الثقافات وظهرت الأهواء وتنوعت
النزعات كانت هذه المدرسة قد أخذت تعدّ العدة للوقوف أمامها ، فأخذت
تلمّ بالنزعات ، وتستمع الى الآراء وترد عليها بما وقفت عليه في كتاب الله
وتشهر عليها السلاح الذى تسلحت به نفسه وهو المنطق والجدل اللذين
تسربا الى العقلية البصرية •

وكان الحسن البصرى زعيم هذه المدرسة ، كان له مجلس يعظ ويقصّ
فيه ، وكان يجلس الى مجلسه ناس كثيرون لهم ميول مختلفة وأهواء متباينة ،
وكان يحتاج فى اقناع هؤلاء جميعا الى ثروة بيانية ، والى قوة فى الفصاحة
ليستطيع التأثير فيمن يحاوره ويجادله ••••• وهكذا كان الحسن البصرى ،
قوى الحجة فصيح اللسان ، خطيبا لا يشق له غبار ، وكان الحجاج يشهد له
بالفصاحة والبلاغة فكان يقول : «أخطب الناس صاحب العمامة السوداء بين
أخصاص البصرة اذا شاء خطب واذا شاء سكت» • (٣) ، وكان الحسن من

(٢) البيان والتبيين ج ١ ص ٣١٧ • المتج : الخطيب المفوه ، والغرب : الماء

يقطر من الدلو بين الحوض والبئر • «القاموس المحيط للفيروزابادى» •

(٣) البيان والتبيين ج ١ ص ٣٧٥ •

الغزارة في العلم والفقہ بحيث اذا ذكرت البصرة قيل : «شيخها الحسن» . (٤)
ولمجالس القصاصين أثر كبير في توجيه الناس الى هذا الاتجاه الجديد
وهو النظر في الخالق وعلاقة المخلوق به ، فقد كان الفضل بن عيسى الرقاشي
من أخطب الناس وكان كما قال الجاحظ : متكلمًا وكان قاصًا مجيدًا ، وقد
استمع اليه كثير من الفقهاء ورجال برزوا فيما بعد بأرائهم الكلامية كعمرو
ابن عبيد وهو أحد شيوخ المعتزلة .

والفضل هو الذي كان يقول في قصصه : «سل الأرض فقل من شقّ
أنهارك وغرس أشجارك وجنى ثمارك ؟ فان لم تجبك حوارا أجابتك
اعتبارا» (٥) .

وكان لمشاهدة الحسن كثيرا من الصحابة وسماعه منهم وتلمذته لعبدالله
ابن عباس أثر في تكوينه العلمي ، فقد اهتم بدراسة القرآن اهتماما عظيما
وسمع منه القراءة كثير من الأعلام منهم عيسى بن عمر الثقفي ، ولم يكنف
بقراءة القرآن واقرائه بل كان يعنى بالتفسير عناية كبيرة ، وكان لهذا يعدّ أفقه أهل
زمانه وأخبرهم بكتاب الله . وكان وهو ابن اثنتي عشرة سنة «قد جمع القرآن
ثم لم يخرج من سورة الى غيرها حتى يعرف تأويلها وفيما أنزلت» (٦)

ونشأت عن مدرسة القراءة والتفسير مدرسة قرآنية جديدة لم تعتمد على
التلقين والتلقى حسب وانما تعتمد على شيء آخر هو الاعراب وهو تصحيح
أواخر الكلم بالنقط . ، وكان أبو الأسود الدؤلي زعيم هذه المدرسة .

كان الجاحظ يقول في أبي الأسود : «أبو الأسود معدود في طبقات من

(٤) البيان والتبيين ج ١ ص ١١٤ .

(٥) البيان والتبيين ج ١ ص ٢٩٦ .

(٦) شذرات الذهب لابن العماد «حوادث سنة عشر ومائة» .

الناس وهو في كلها مقدم ، مأثور عنه الفضل في جميعها ، كان معدودا في
التابعين والفقهاء والشعراء والمحدثين النخ . . . » (٧)

كان أبو الأسود - كما قال الجاحظ - من وجوه التابعين وفقهائهم
ومحدثيهم وكان قد استعمل على البصرة في خلافة عليّ نائبا عن ابن عباس
فله اذن معرفة بالادارة والحكم ، ومن شأن هذه المعرفة أن تكون له عقلية
ادارية منظمة . هذا بالاضافة الى علمه وسعة اطلاعه ، فليس غريبا اذن أن يركن
اليه زياد مع ما بينهما من جفاء .

ولكننا مع ذلك لانرى ما قام به أبو الأسود من النحو الاصطلاحي في
شيء وان كانت له صلة به ، ولا نرى رأى كثير من القدماء من أن أبا الأسود
هو واضع علم النحو لأن النحو لم يضعه واحد بعينه وانما هو من عمل الجماعات وقد
نشأ بالتدريج تمشيا مع سنة الحياة في النشوء والارتقاء ومع حاجة المتعلمين
الى ما يصون ألسنتهم من لحن نشأ بتلاقى اللغات واختلاط المتكلمين بها في
بيئة واحدة .

أما ما قيل من أن أبا الأسود وضع باب التعجب فيستند الى ما يروى عن
ابنه أبي حرب أنه قال : « أول باب وضعه أبي من النحو التعجب » (٨) ، والى
ما قيل من أن ابنته قالت له يوما : يا أبت ما أحسن السماء قال : نجومها . قالت :
لم أرد أى شيء منها أحسن انما تعجبت من حسنها . قال : اذن فقولى : ما أحسن
السماء . قال السيرافي فحينئذ وضع كتابا (٩) .

وهذا بالاضافة الى ما يحوطه من ريبة اذا دل على شيء فانما يدل على أن
أبا الأسود قد تنبه سليقة الى الفرق بين قول القائل : ما أحسن السماء وقوله :
ما أحسن السماء ، لأن مثل هذه التفرقة لاتصعب على مثل أبي الأسود .

(٧) الاغانى ج ١١ ص ١٠٢ (ساسى) .

(٨) المصدر السابق .

(٩) أخبار النحويين البصريين للسيرافي ص ١٩ .

ومهما يكن من أمر قأبو الأسود هو أستاذ هذه المدرسة القرآنية التي
يمكن ايجاز القول في خصائصها : بأنها مدرسة تعتمد على الاقراء والاعراب
جميعا ♦



وتألفت من تلاميذ أبي الأسود نصر بن عاصم وعبسة الفيل ويحيى بن
يعمر وميمون الأقرن وأبي حرب بن أبي الأسود مدرسة قرآنية أخرى ،
وأبرز هؤلاء التلاميذ ممن كان له نشاط معروف في العمل القرآني نصر بن
عاصم ويحيى بن يعمر ♦

وقد سبق أن أخذنا برواية ابن خلكان ورجحنا أن يكون نصر بن عاصم
هو الذي قام بوضع الاعجام للحروف الهجائية بطلب من الحجاج فقد خيف
على القرآن من خطر التصحيف ♦

هذه المدرسة لم تقتصر على الاقراء كما كان شأن القراء قبل أبي الأسود
ولم تكتف بما قام به أبو الأسود من اعراب لأن عمل أبي الأسود اذا نجح
في دفع خطر اللحن عن القرآن لم يكن ليكفي في دفع خطر التصحيف الذي
قيل انه شاع أخيرا في العراق في عهد الحجاج ♦ (١٠)

بل عنيت هذه المدرسة بالإضافة الى ذلك بتمييز الحروف بعضها من
بعض وبالفرقة بين صور الباء والتاء والثاء مثلا ♦ والاعجام الذي وضعه نصر
كفيل بهذا التمييز المطلوب ، واذا كان العرب يفرقون بينها بسلاقتهم فليس
للأعجام تلك السلائق ولا تلك القدرة على فهم المعاني بدلالة السياق ♦

فالأعمال التي قامت بها هذه المدرسة القرآنية هي الاقراء والاعراب
والاعجام ، وعد رجال هذه المدرسة من النحويين متجاوز فيه ، وغاية القول
أن لعمل هؤلاء صلة بعمل النحاة ♦

(١٠) وفيات الاعيان لابن خلكان - ترجمة الحجاج

وهناك أخبار يتناقلها الأقدمون وينسبونها الى يحيى بن يعمر تدل على أن يحيى قد عرض لبعض مسائل النحو مما قيل ان الحجاج سأله يوما عما اذا كان يلحن فقال «الأمير أفصح من ذلك • فقال : عزمت عليك أتجدني ألحن ؟ فقال يحيى نعم • فقال له : فى أى شىء ؟ فقال : فى كتاب الله • فقال : ذلك أشنع ففى أى شىء من كتاب الله ؟ قال : قرأت : «قل ان كان آباؤكم وابناؤكم واخوانكم وازواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحبّ فرفعت أحب وهو منصوب» • (١١)

ومما قيل من أن الحجاج سأله أيضا فقال له يحيى : انك تلحن لحنا خفيا تزيد حرفا أو تنقص حرفا وتجعل أن فى موضع ان • (١٢)

اذا صحت الروايتان فليس فيهما دلالة على أن يحيى كان نحويا ، وكل ما هنالك أن يحيى بتضلعه فى اللغة ووقوفه على غريبها كما عرف عنه ، وبكونه ممن عنى بالعمل القرآنى اعرابا واعجاما قد التفت الى أشياء يمكن ارجاعها الى العمل النحوى ولكن لاعلى أنها من النحو فليس بعيدا أن يعرف يحيى أن (أحب) منصوبة لا مرفوعة وهو من المقرئين ، وليس بعيدا أن يفرق بين مواضع كسر الهمزة وفتحها •

ونحن نرجح أن يكون عدّه من النحويين يرجع الى ما عرف عنه من أنه أعرب مصحفا لمحمد بن سيرين (١٣) ، وليس رسم علامات الاعراب من النحو الاصطلاحى الذى نعرفه فى شىء •

وجاء بعد هؤلاء رجال كانوا أكثر توغلا فى البحوث اللغوية ممن سبقهم لأن الزمن قد امتد بالناس والمجتمع العربى أخذ يتوغل فى الحضارة ويمتدج

(١١) نزهة الالباء ص ١٩ • أخبار النحويين البصريين ص ٢٣ •

(١٢) الوزراء والكتاب للجهمسيارى ص ٤٢ •

(١٣) المقنع لابي عمرو الدانى ص ١٢٥ •

بالعناصر الأخرى التي بدأت تتبادل معه ما ورثته ، والعقلية العربية أخذت تتلقح بشيء من الأفكار الأجنبية •

والبارزون من رجال هذه المدرسة هم عبدالله بن أبي اسحاق وعيسى بن عمر التقفى وأبو عمرو بن العلاء ، ومرجع هؤلاء جميعا أبو الأسود ، وعنه أخذوا القراءة والاعراب ، فعبدالله بن أبي اسحاق أخذ القراءة عن يحيى بن يعمر ، ونصر بن عاصم وقد أخذها عن أبي الأسود (١٤) • وعيسى بن عمر أخذ القراءة عن عبدالله بن أبي اسحاق وأبي عمرو بن العلاء (١٥) وأبو عمرو ابن العلاء وهو أحد القراء السبعة أخذ القراءة عن عبدالله بن أبي اسحاق ويحيى بن يعمر عن أبي الأسود من البصريين • وأخذها من غير البصريين عن ناس آخرين كوفيين ومكيين ومدنيين • (١٦)

لم يقتصر عمل هؤلاء على الاقراء والاعراب والاعجام بل اتجهوا وجهة جديدة في البحث اللغوى والرواية الأدبية يدعمون بها عملهم القرآنى • ولم يكن اتجاه هذه المدرسة الى البحث اللغوى والرواية الأدبية عن رغبة في الاشتغال بعمل جديد ، ولا عن نية في التحلل من العمل القرآنى فرجالها جميعا قد عنوا بالقراءة والاقراء •

فأما عبدالله بن أبي اسحاق فلم تنفرد العربية بعنايته بل كان جانب القراءة والاقراء بارزا في حياته العلمية ، ولكنه مع ذلك كان من أئمة العربية وكان يقدم على أبي عمرو في النحو • قال الخليل : « كان عبدالله يقدم على أبي عمرو في النحو ، وأبو عمرو يقدم عليه في اللغة » • (١٧)

- (١٤) غاية النهاية لابن الجزرى ج ١ ص ٤١٠
(١٥) غاية النهاية لابن الجزرى ج ١ ص ٢٨٩
(١٦) التيسير لابی عمرو الدانى ص ٨
(١٧) المزهر ج ٢ ص ٢٤٧

وقال ابن الأنباري : « كان قيما بالعربية والقراءة اماما فيهما ، وكان شديد التجريد للقياس ، ويقال انه كان أشد تجريدا للقياس من أبي عمرو ، وكان أبو عمرو يقدم عليه في اللغة » . (١٨)

وقال السيرافي مثل ذلك في أخبار النحويين ، وذكر أن بلال بن أبي بردة - وكان واليا على البصرة - قد جمع بينهما للمناظرة فتساءلا في حضرته فغلب ابن أبي اسحاق أبا عمرو في مسألة الهمز كما تحدث أبو عمرو عن نفسه (١٩) .

وقد شاع عند القدماء أن ابن أبي اسحاق كان شديد التجريد للقياس والتخريج للعلل ، ولعله كان كما قالوا ولكننا لم نقف على أقوال تؤيد ذلك فهذا كتاب سيبويه وهو أقدم كتاب في النحو لم يرو عنه الا مسائل معدودات لا يكاد يتجاوز عددها ستا . نعم له مجادلات مع الفرزدق نجد فيها لمحات تنم على ذلك . منها ما عابه على الفرزدق من قوله :

فلو كان عبدالله مولى هجوته ولكن عبدالله مولى مواليا

وقد قال له : « كان ينبغي أن تقول مولى موال » (٢٠) وهو في اعتراضه على الفرزدق قاس (موالي) على جوار وغواس مما هو على وزن فواعل معتل اللام وجمهور العرب ينونه بعد حذف الياء .

وله كلام في الهمز كما روى السيرافي وابن الأنباري عن أبي عمرو ، ولكن كلامه لم يكن واسع المدى وقياسه لم يكن واضح التقاسيم كالقياس عند الخليل وسيبويه .

يؤيد ما ذهبنا اليه مقاله يونس بن حبيب وقد سئل عنه : « هو والبحر

(١٨) نزهة الالباء ص ٢٢ .

(١٩) أخبار النحويين ص ٢٥ ، ٢٦ .

(٢٠) نزهة الالباء ص ٢٤ .

سواء ، لو كان في الناس من لا يعلم الا علمه لضحك منه ، ولو كان فيهم من له ذهنه ونفاذه ونظره لكان أعلم الناس * (٢١)

وأما عيسى بن عمر فقد كان من ثقات القوم في الرواية ومن علمائهم بالقراءة والعربية ، وله قراءة معروفة ، وكان معاصرا لعبدالله بن أبي اسحاق وأبي عمرو بن العلاء *

قالوا كان لعيسى بن عمر كتابان يسمى أحدهما الجامع ويسمى الثاني الاكمال أو المكمل ، وقد أشار الخليل كما روى عنه بقوله :

بطل النحو جميعا كله غير ما أحدث عيسى بن عمر
ذاك اكمال وهذا جامع فهما للناس شمس وقمر

وقد عرض السيرافي وابن النديم لقصة هذين الكتابين ولكنهما - كما قالوا - سمعا عنهما ولم يرياها بل لم يسمعا أن احدا رآهما * (٢٢)

وكان عيسى بن عمر استاذا للخليل واستاذا لسيويه ايضا ، يروى ابن خلكان أن كتاب الجامع كان عند سيويه ودرسه على الخليل وحشاه بكلامه فكان من هذا وذاك كتابه المعروف * (٢٣)

ولكننا اذا رجعنا الى كتاب سيويه وجدناه يروى لعيسى بن عمر اقوالا كما يروى لغيره من شيوخه ، ووجدنا ما يرويه لعيسى بن عمر بعضه يتعلق بالرواية وبعضه يتعلق بالقراءة ، وما كان منه في النحو قليل لا يؤيد ما رواه ابن خلكان كالذي جاء في ص ٢٢٨ ، ٢٧٢ ، ٣١٣ من الجزء الاول وفي ص ٧ ، ٢٣ ، ١٣٢ من الجزء الثاني *

(٢١) انباه الرواه على أنباه النحاء ج١ ص ٤١٨ «نسخة مخطوطة بدار الكتب» *

(٢٢) اخبار النحويين البصريين للسيرافي ص ٣١ . فهرست ابن النديم ص ٦٣ *

(٢٣) وفيات الاعيان لابن خلكان ج١ ص ٥٤٨ (طبع باريس) *

نعم كان عيسى بن عمر احد رجال المدرسة النحوية الاولى ، وله كما لصاحبه عبدالله بن أبي اسحاق شأن في اصطناع القياس في الدراسة النحوية، وقد سئل عبدالله بن أبي اسحاق يوما : أتقول العرب : السقر فاجاب نعم والزقر أيضا ، مالك ولهذا؟! عليك باب من النحو يطرد وينقاس (٢٤) .

وأورد له سيبويه في كتابه مسائل بني حكمها على القياس من ذلك قياسه صرف (عمرو) اسم امرأة على صرف هند ودعد لحقة بنائه (٢٥) .
وقياسه نصب (مطرا) في قول الشاعر :

سلام الله يا مطرا عليها وليس عليك يامطر السلام

على نصب (يا رجلا) يجعله اذا نون وطال كالنكرة . قال سيبويه :
«لم نسمع عربيا يقوله ، وله وجه من القياس» (٢٦)

وأما أبو عمرو بن العلاء فقد كان من القراء السبعة وقد شاعت قراءته وكان كما يقول ابن الجزرى : «أعلم الناس بالقرآن والعربية مع الصدق والثقة والأمانة والدين» . مرّ الحسن البصرى به وحلقته متوافرة والناس عكوف عليه فقال : لا اله الا الله . لقد كاد العلماء أن يكونوا أربابا . كل عزّ لم يوطد بعلم فالى ذلّ يثول» (٢٧)

ومقامه في الرواية الأدبية أظهر من أن يحتاج الى شرح ، وكتب الأدب عامرة بالرواية عنه ، وله أقوال في العربية تتصل بالنحو كما روى له سيبويه في كتابه ، وان كان أكثر ما رواه عنه يتصل بالقراءة والرواية . (٢٨)

-
- (٢٤) طبقات الشعراء لابن سلام .
(٢٥) الكتاب ج٢ ص ٢٣ .
(٢٦) الكتاب ج١ ص ٣١٣ .
(٢٧) النشر في القراءات العشر لابن الجزرى ج١ ص ١٣٣ .
(٢٨) انظر ص ٢٠١ ، ٢٥٣ ، ٣١٦ ، ٤٢٧ ، ٤٥٣ ، ٤٤٦ من الجزء الاول من الكتاب .

والحق أن لرجال هذه المدرسة أقبالا هي من صميم النحو ولكنها ليست من السعة والدقة بحيث نعدم نحويين متخصصين ، وكانوا مقرئين ومعرين ومعجمين وكانوا أيضا نحويين ولكن بصورة محدودة ، وقد مهدوا لظهور النحو في صورته الكاملة •



ونشأت بعد هذه المدرسة التي عدناها المدرسة النحوية الاولى ، مدرسة جديدة فقد تقدم الزمن خطوات الى الأمام وأخذت الحياة تتعد اجتماعيا وثقافيا وسياسيا ، وسارت الحضارة بالناس في أواخر العهد الأموي وأوائل العهد العباسي شوطا بعيدا ، وخاصة بعد استقدام الجيوش الخراسانية واحتلالها الأمصار وبعد أن تسلم العنصر الفارسي كثيرا من المناصب العليا التي كانت وفقا على الأمصار وبعد أن تسلم العنصر الفارسي كثيرا من المناصب العليا التي كانت وفقا على العرب •

لقد أدخل الفرس كثيرا مما ألفوه في عهد أكاسرتهم سواء أكان متصلا بالادارة والسياسة أم بالثقافة ، وكان تراثهم ملقحا باليونانية لأن اليونان - كما سبقت الاشارة اليه - كانوا قد غلبوا على هذه البلاد قرونا واستوطنوها وأسسوا فيها مدنا وقرى ، واستوطن معهم ما نقلوه من فن يوناني وفلسفة يونانية • وكان ملقحا بالهندية أيضا فقد كان للفرس مع الهند صلات تجارية وثقافية •

فلما وصل الفرس الى مراكزهم الجديدة أخذوا في احياء تراثهم وهو تراث مزيج من عقليات مختلفة فترجمت الكتب وظهر أدباء فرس كانوا قد تعلموا العربية وأتقنوها ، ونقلوا الى العربية كل ما عرفوه واستطاعوا نقله ، واستتبع هذا أن أصبح العنصر الفارسي يقول بحرية ويعمل بحرية ، وأخذ يصارع العنصر العربي لاسترداد ما أخذه منه فسعى لحياء تراثه ومشاركته في مناصب الدولة ، وشهدت هذه الفترة صراعا قوميا بدأ مستترا ثم أخذ يسفر عن وجهه شيئا فشيئا •

وصراعا آخر ، وهو صراع بين أصحاب المذاهب الدينية التي كانت أخذت تظهر منذ العصر الاموى كالحارجية والتشيع والكيسانية والمرجئة والمعتزلة ، وكان أصحاب هذه المذاهب يتناقشون ويتجادلون ، وبرز من بينهم المعتزلة الذين كانوا يمثلون العنصر القوى الشيط ، وكانوا قد عنوا بالأدب واللغة ليدعموا حججهم بالأسلوب البياني القويم ، كما راحوا يلتمسون قواعد المنطق ليساعدتهم على تقوية حججهم فى افحام خصومهم •

كان بين رجال هذه المدرسة التي نتحدث عنها من اعتنق التشيع ومن اعتنق الاعتزال ، وقد مهد الشيعة والمعتزلة السبيل للفلسفة يؤيدون بها مباحثهم ومذاهبهم •

وبرز بين هؤلاء :

(١) الخليل بن أحمد الفراهيدى الذى يعد فى رأينا المؤسس الأول لأصول هذه المدرسة •

(٢) ويونس بن حبيب الذى خلف لنا بالاشتراك مع الخليل هذا العلم الذى نسميه نحوا •

(٣) وسيبويه وقد خلف وراءه كتابا هو الأول من نوعه فى هذا العلم ، وعامة الحكاية فيه عن الخليل ، بل لاتعدى الصواب اذا قلنا ان الخليل هو مرجع كتابه ، وأن ما صرح به من نقول عن الخليل انما هو لوضع أسس الأبواب التي يبحث فيها ، ولا تتعدى الصواب اذا ذهبنا الى أن كثيرا من نحو الخليل دون فى الكتاب دون أن يشير سيبويه الى أنه من رأى الخليل وقوله كما كان فى باب الادغام فقد سبقت للخليل فى غير هذا الباب أقوال نقلها سيبويه فلما جاء الى باب الادغام سكت عن أن يشير الى أنها من قول الخليل ومذهبه ، ولعله كان يعتمد على هذه النقول التي ذكرها فى فصول سابقة ، ومعرفة القارىء بها •

رجال هذه المدرسة يمثلون الزمن الذي عاشوا فيه تمثيلا صادقا فقد نشئوا في وسط هذه البيئة الجديدة وخاضوا عباب هذه التيارات المعقدة ، واضطروا الى الاستفادة من هؤلاء وهؤلاء فاقبضوا منهم جميعا ما يتفق مع طبيعة عملهم •

وكان الخليل نفسه من أصحاب الكلام كما يأتي بيانه في الفصل الآتي • وهو صديق لعبدالله بن المقفع الفارسي الذي كان ملما بالثقافة الفارسية الملونة بالثقافة اليونانية •
لقد امتازت هذه المدرسة :

(١) بأنها مدرسة لغوية نحوية عنت بالدراسة اللغوية النحوية عناية خاصة وأخذت تهتم باللغة لذاتها لأنها أداة للعمل القرآني •
(٢) وبأنها اتخذت من القياس والتعليل أصلا من أصول عملها اللغوي •

(٣) وبأنها عنت بالعقل وأحكامه عناية خاصة ، ولهذا نراها تهتم بالقواعد والأصول العامة وتغفل الشواذ التي لا تنطبق عليها تلك القواعد والأصول •

وليس القياس والتعليل شيئا جديدا على الدراسة اللغوية فقد سبقت اليهما مدرسة عبدالله بن أبي اسحاق وعيسى بن عمر الثقفي ، ولكن رجال هذه المدرسة توسعوا في القياس حتى اعتقد الكثير منهم أن النحو كله مبني على القياس ، فهذا الكسائي وهو أحد من تخرج في هذه المدرسة يقول :
انما النحو قياس يتبع وبه في كل علم ينتفع (٢٩)

(٢٩) بقية الرعاية للسيوطي ص ٣٣٧ •

وهذا ابن الأنبارى يقول فى أصوله - كما يروى السيوطى عنه - :
«ان انكار القياس فى النحو لا يتحقق لأن النحو كله قياس ولهذا قيل فى
حدّه : النحو علم بالمقاييس المستنبطة من استقراء كلام العرب ، فمن أنكر
القياس فقد أنكر النحو » (٣٠)

وأصبح النحاة المتأخرون ينظرون فى قياسهم الى أعمال الفقهاء أصحاب
القياس واذا تصفحت خصائص ابن جنّى واقتراح السيوطى وجدت نفسك ازاء
مباحث فقهية أصولية ♦

ومع تخصص رجال هذه المدرسة فى الجانب اللغوى فان للخليل بن
أحمد وهو زعيم هذه المدرسة عملا يعدّ متمما للعمل القرآنى الذى بدأه
أبو الأسود ، فقد كتب المصحف ونقطه وأعربه ، وكتبه حور شيئا فى
الطريقة فقد رمز للفتحة بألف صغيرة مائلة توضع فوق الحرف ، وللضمة
بواو صغيرة توضع فوق الحرف ، وللكسرة بياء راجعة استغنى أخيرا عن أحد
شقيها توضع تحت الحرف ♦ (٣١)

ان رمزه للفتحة بألف وللضمة بواو وللكسرة بياء يرجع الى رأيه أن
الفتحة ليست الا ألفا قصيرة ، والضمة ليست الا واوا قصيرة والكسرة ليست
الا ياء قصيرة ، وقد أُلحقت بأصول الكلمات للاستعانة بها على النطق بهذه
الأصول لأنها سواكن ، وقد نقل سيويه رأيه هذا فقال : «زعم الخليل أن
الفتحة والكسرة والضمة زوائد وهنّ يلحقن الحرف ليوصل الى
التكلم به » (٣٢)

(٣٠) الاقتراح للسيوطى ص ٢٨ .

(٣١) احياء النحو ص ٨١ .

(٣٢) الكتاب ج ٢ ص ٣١٥ .

وضع الحليل علامات أخرى لم يسبق الى وضعها كما روى أبو عمرو
الداني من أن الحليل بن أحمد هو الذي جعل الهمز والتشديد والروم
والأشمام . (٣٣)

ولكن هذا العمل لم يكن وحده الذي عرف به الحليل فقد عرف بأعمال
أخرى غلبت عليه ، بل لم يكن العمل القرآني شيئا مذكورا الى جانب أعماله
الأخرى .

وقد تأثر رجال هذه المدرسة بمنهج أصحاب الكلام وبنوا عليه عملهم
اللغوي ، وقد كان أصحاب الكلام قد نهجوا منهجا جديدا ، كانوا يعتقدون
بالأحكام العقلية العامة اعتدادا عظيما ، وكانوا لهذا لا يعنون بالجزئيات لذاتها
لأنها لاتغنى في تكوين أحكام عقلية .

وهذا هو مفترق الطرق الذي باعد بين المعتزلة والمحدثين وجعل المعتزلة
يسلكون سبيلا والمحدثين يسلكون سبيلا أخرى .

وبتأثر النحاة البصريين بمنهج أصحاب الكلام تباعدت وجهات النظر
بينهم وبين نحاة الكوفة ، فقد كانت الكوفة مستقر المحدثين ومهبط الصحابة
والتابعين ، وكانت تعنى بالأحاديث وتعتمد بأخبار الآحاد لأنها السبيل الوحيدة
للقوقوف على أقوال النبي وأفعاله ولم يكن لديهم سبيل أخرى غير المشافهة
والمناقلة .

وقد تأثر دارسو النحو في الكوفة بهذا الاتجاه الأخباري فعنوا بالأخبار
الجزئية في استخراج الأحكام النحوية ، وترخصوا في أمور كثيرة تشذ عن
القياس ، واعتدوا بالشواذ اذا وصلت اليهم عن طريق الثقات .

أما نحاة البصرة فكانوا قد تأثروا بالبيئة البصرية التي كان المعتزلة

(٣٣) المقنع لابي عمرو الداني ص ١٢٥ .

يتزعمون فيها الحركة الفكرية فنهجوا نهج المعتزلة وتأثروا بهم في الاعتداد بالعقل وطرح كل ما يتعارض معه فأهملوا الشواذ في اللغة ولم يعتدوا بأخبار الآحاد التي لا ينطبق عليها ما وضعوا من أصول وأهدروها وقالوا عنها انها شاذة تحفظ ولا يقاس عليها اذا عدموا الحيلة في تأويلها وادخالها في أصولهم ، ولهذا سمي نحاة البصرة أهل المنطق ♦

ومن هنا احتدم النزاع بينهم وبين القراء من جهة ، وبينهم وبين نحاة الكوفة الذين احتذوا القراء والمحدثين من جهة أخرى ♦



وبعد الوقوف على هذا الفصل يمكننا أن نسجل النتائج الآتية :-

(١) أن الفكرة في حفظ القرآن من اللحن والتصحيف والضياح كانت من عمل الدولة في مختلف الأزمنة ، فقد فكر فيها عمر بن الخطاب وأشار على أبي بكر أن يقوم بتأييدها وتحقيقها ، ووافق أبو بكر بعد تردد ، ثم عمل عثمان على توحيد نصّه ♦

ولما لم تكن تلك التدابير كافية لحفظ القرآن وصيائه جاء زياد فعمل على اعرابه ، ثم جاء الحجاج فعمل على اعجماه ، وبهذا تمت العمليات اللازمة لحفظ القرآن ♦

(٢) ولم يتم بتلك الاعمال رجال الدولة أنفسهم وانما ندبوا لها العلماء لأنها أعمالهم وفي نطاق تخصصهم فهم الذين حفظوا القرآن عن النبي ، وهم الذين نسخوه ، وهم الذين ضبطوه وأعربوه ، وأخيرا هم الذين أعجموه ♦

(٣) ولم يقف العلماء عندما أرادت الدولة من ضبط القرآن بل مضوا في دراسته وفقهه وفقه منهجه ، وراحت كل طائفة منهم تتجه اتجاهها خاصا

في دراسته ، فشأت طائفة اتجه نشاطها الى تصحيح متن القرآن عن طريق الرواية وهي طائفة القراء •

وطائفة راحت تدرس القرآن لتفهم الأحكام التي تضمنها مما هو لازم لبناء المجتمع وهي طائفة الفقهاء • ونشأت عن هذه الطائفة طائفة أخرى أخذت تدرس القرآن لتفهم العقائد وأصولها ، والمذاهب الاجتماعية ، وهي مدرسة الحسن البصري التي نشأت عنها طائفة المعتزلة •

وطائفة اتجهت اتجاها لغويا ووسعت الكلام في علل التأليف أو علل الاعراب وهي طائفة النحاة ، ثم جاء الخليل بن أحمد فقام بعبء هذا العمل ووسع الكلام فيه •

فقد كان النحو اذن عملا خالصا استبد به العلماء عن استقلال لان استجابة للأمرء ، حتى ان الضبط والاعراب الذي أحدثه الخليل كان عملا علميا خالصا وكان في الوقت ذاته محققا لأغراض الدولة •

(٤) أن النحو وليد التفكير في القرآن لأن العلماء لم يفكروا ابتداء في وضع علم يبحث في علل التأليف والاعراب ولكنهم توصلوا الى ذلك بعد أن نضجت الفكرة في أثناء قيامهم بعملهم القرآني •

وساعد على انمائه حاجة الشعوب الداخلة في حكم الدولة العربية الى معرفة لغة الدولة والى حياة السلام في ظلها ، وقد وجدت هذه الشعوب في هذه الدراسة التي ابتدأت بعمل أبي الأسود ما يحقق لها معرفة هذه اللغة والرغبة في حياة آمنة •

الفصل الثانى

الخليل بن أحمد الفراهيدى

من أحب أن ينظر الى رجل
خلق من الذهب والمسك فليُنظر الى
الخليل بن أحمد

(سفيان الثورى)

(١)

سيرته

لابد للمؤرخ الذى يؤرخ للحياة العقلية ، أو لجانب من جوانبها أن يعرض لدراسة الرجال الذين شاركوا فى انماء هذه الحياة بما قدموا للانسانية من نتاج عقلى • ودراسة هؤلاء دراسة لنقط الارتكاز التى يعتمد عليها التاريخ فى أشواطه ، ودراسة لينابيع الحياة التى تستقى منها الحياة العقلية نشاطها وقوتها •

والخليل مثل رائع من هذه الأمثلة التى كان لصنيعها أثر ملموس فى الحياة العقلية العربية الاسلامية ، فقد امتد نبوغه الى موضوعات ثقافية عدّة فبرز فيها ، وكان له فيها أثر الخلق والابداع •

والدارس الذى يعرض لسير اللغة والنحو لابد أن يمر فى طريق بحثه بشخصية الخليل اللامعة التى كان لها أثر واضح فى تشيئهما ورسم المنهج لدراستهما ، وأن يقف عليها لتسجيل آثارها والبحث فى نواحيها المختلفة عقلية وخلقية ، والعوامل التى تركت آثارها فيها ، والمجتمع الذى نفخ فيها فهداها الى شق طريقها ولونها بطابعه الخاص •

ومما يدعو الى الأسف أن كثيرا من جوانب شخصية الخليل مجهول لدى الباحث ، فلم يكد يعرف عنه الاّ جانباً من حياته العقلية ، يوم أن عرف أستاذا من أساتذة البصرة وشيخاً من شيوخ العلم فيها ، وهي فترة لايمكن تجاهلها ، ولا يسع التاريخ أن يمر عليها دون أن يقف عندها طويلاً •

ولم نكد نعرف عن نشأته الاّ أنه ولد سنة مائة للهجرة وتوفى سنة سبعين ومائة أو سنة خمس وسبعين ومائة ، والاّ اخباراً متفرقة من هنا وهناك ، أمّا كيف نشأ ، وكيف قضى فترة صباه ، ومتى بدأ تعلمه ، وكيف تدرج في حياته العلمية ، فهذه أسئلة لم يستطع الباحث الاجابة عنها لأن التاريخ نفسه لم يستطع الاحاطة بها حتى الآن •

أكبر الظن أن هناك عوامل اصطلحت على الخليل فحدّت من شهرته ووقوف الناس على دقائق حياته ، ومن هذه العوامل مايتصل بالسياسة ، ومنها مايتصل بالمجتمع •

أمّا الألى فهي الخارجية التي نشأ عليها كما سيأتى الكلام عليها ، والخوارج كانوا يومئذ من العناصر المناوئة للسياسة القائمة ، وقد اضطهدوا الحكم القائم وتجنبها الناس المائلون له •

فاذا أضيف الى ذلك تشييعه الذي سنتحدث عنه قويت عوامل اعتزاله عن الناس واعتزال الناس عنه ، فقد حورب الشيعة في العصر الأموي وحوربوا بعدما انقلب العباسيون عليهم •

وأما الثانية فإن التفاتة الناس الى شخصية من الشخصيات واهتمامهم بها واشادتهم بذكرها تقوم في أكثر الأحيان على أساس مادي ، أعنى على مدى ما وصل اليه من مركز اجتماعي يخافه الناس أو يرجونه ، والخليل بما نشأ عليه من ورع ودين وزهد وتعفف ، وعكوف على طلب العلم لم يعبأ بهذه الحياة المادية ، ولم تخدعه عن حياته المفضلة هذه المناصب البراقة التي

بهرت الناس واستطاع أن يصل إليها تلاميذه الذين هم دونه فضلا وعلما ، وقد أشار تلميذه النضر بن شميل الى هذا حين قال : «أكلت الدنيا بعلم الخليل وهو في خص لا يشعر به»^(١) ، وأقام بالبصرة لا يقدر على فلسين وعلمه قد انتشر وكسب به أصحابه الأموال «^(٢)» .

ولم يعن بالاتصال به إلا هؤلاء الذين وجدوا ضالتهم في العلم ، وهم خلاصة الجيل ، ولم يتردد عليه هؤلاء إلا بعد أن انحدر الى الشيخوخة وأصبح علما من أعلام الفكر . وعن هؤلاء وصل إلينا ما وصل من أعماله العلمية من عروض ولغة ونحو ، ومن أخبار متفرقة تتصل بزهده وتواضعه وذكائه ووجه للعلم والعلماء .

من هؤلاء سيويه والأخفش الثاني والليث بن المظفر وأبو محمد اليزيدي والنضر بن شميل ، وأبو محمد التوجي ، والمؤرج بن عمرو السدوسي ، وعلي بن نصر الجهضمي وغيرهم ممن أخذ وروى عنه وأوصل إلينا شيئا من آثاره وأخباره .

ولم يتحدث الخليل عن نفسه إلا قليلا جدا ، وسكوته عن نفسه مظهر من مظاهر زهده ولون من التواضع الذي يلازم العلماء ، وقد كان زاهدا متواضعا حقا لم يداخله الزهو ، ولا بهرته المنزلة التي كان مرموقا من أجلها ، وبقي ملازما خصه بعيدا عن المجتمعات الصاخبة لا يجاوز همّه باب خصّه كما كان يقول .^(٣)

وكان من زهده في دنيا المادة أن ابتعد عن تملق رجال الحكم فلم يقف

-
- (١) نزهة الالباء ص ٥٩ ، معجم الادباء ج ١١ ص ٧٢ .
(٢) وفيات الاعيان ج ١ ص ٢٤٣ (بولاق) شذرات الذهب لابن العماد حوادث سنة ١٧٠ هـ ج ١ .
(٣) البداية والنهاية لابن كثير ج ١٠ ص ١٦١ ، شذرات الذهب ج ١ ص ٢٧٥ .

على أبوابهم أو يرج نوالهم ، وكثيرا ما ردّ باباء ما كانوا يعرضونه عليه من عروض مغرية ، فقد طلب اليه سليمان بن علي والى المنصور على الأهواز أن يتولى تعليم أولاده ، وبعث له بهدايا يحاول بها اغراءه فما كان منه الا أن أخرج كسرة يابسة من الحبز وقال للرسول : مادامت هذه عندي فلا حاجة بي الى سليمان • بلغه عنى ذلك ثم حمّله أبياتا منها :

أبلغ سليمان أنى عنه فى سعة وفى غنى غير أنى لست ذا مال
سختى بنفسى أنى لا أرى أحدا يموت هزلا ولا يبقى على حال^(٤)

ولم يغادر البصرة الا لحج بيت الله الحرام ، والتطواف فى بوادى نجد والحجاز وتهامة يسمع من اعرابها ، والا لخراسان حيث يقيم تلميذه وصديقه الليث بن المظفر •

ولم يكن سبب ذهابه الى خراسان واضحا ، ولكنى أظن أن الذى دعاه الى الذهاب اليها هو الذى دعا تلميذه النضر بن شميل من بعده ، فقد ضاقت الحياة بالنضر وقلّ ما فى يده فاعتزم الخروج الى خراسان «فشيّعه من أهل البصرة نحو ثلاثة آلاف من المحدثين والفقهاء واللغويين والنحاة والأدباء فجلس لوداعهم فى المربد وقال : يا أهل البصرة يعز والله على فراقكم ولو وجدت عندكم كل يوم كيلجة من الباقلاء ما فارقتمكم» •^(٥)

وكما نجعل فى الخليل جوانب عدة من حياته نكاد نجعل أيضا هواء وعقيدته واذا تتبعنا أقوال المترجمين له وجدناهم يزعمون أنه كان خارجيا أباضيا ، ثم عدل عن أباضيته الى مذهب أهل السنة بهداية أيوب السخيتاني فقيه البصرة ومحدثها ولكنه لم يلبث أن عدل عن هذه السنّة كما عدل عن

(٤) معجم الادباء ج ١١ (الخليل) • طبقات النحويين للزبيدي (نسخة مصورة بدار الكتب) •

(٥) معجم الادباء ج ١١ ص ٧٣ •

أباضيته الأولى التي درج عليها صييا ، فقد روى القفطى عن النيسابورى :
«أنه كان يتشيع وأنه كان من شيعة جعفر بن محمد» • (٦)

ان انسانا مثل الخليل وهب ذهنها مرهفا وعقلا راسخا لايسهل عليه أن
يعتق مذهبا أو يؤمن بفكرة كما يفعل السذج من الناس فلا بد أن يفكر
ويتدبر قبل أن يقف عند مذهب أو يستقر عند عقيدة •

لقد عاش فى البصرة وهى بيئة كانت عاجة بالأهواء والمذاهب وكانت
مستقر عقليات مختلفة وكان الحجاج بين زعماء المذاهب والعقائد على أشده ،
وكان هو من ذلك كله على كثر ، يستمع الى حجاج المتخاصمين ، وينعم النظر
فى أساليبهم ، وكانت هذه الأهواء والمذاهب تقوم مقام المبادئ السياسية ،
فاعتناق الخارجية ليس مذهبا وتدينا حسب بل هو مبدأ سياسى أيضا ، يرمى
الى مناوأة السياسية الأموية القائمة ، ومن مظاهر هذه المناوأة هذا الصراع
العنيف بين الخوارج والأمويين طوال حكمهم •

كذلك اعتناق التشيع ليس تدينا حسب وانما هو مبدأ سياسى أيضا ،
ناوأ الأمويين وكافحهم ، وأخذ يناوىء العباسيين بعد انقلابهم على الشيعة ،
وخاصة فى عهد أبى جعفر المنصور •

والناس فى كل زمان ومكان متأثرون بما يدور حولهم وفى آفاقهم من
مبادئ سياسية تناوىء الحكم القائم أو تمائه ، وهكذا كان الناس فى البصرة
يومذاك شيعا وأحزابا ، فقلما تجد عالما أو متعلما لم ينحز الى جهة معينة يؤمن
بمبادئها ويدافع عن سياستها •

فمن الشعراء من كان أموى النزعة كجربير ، ومنهم من كان علوى
المذهب كالفرزدق والكميت والسيد الحميرى ، ومنهم من كان يرى رأى
الخوارج كالطرماح وقطرى بن الفجاءة •

(٦) انباء الرواه على أنباء النجاه ج ١ نسخة مخطوطة بدار الكتب •

وكان النحاة وهم من العناصر المثقفة في البصرة من ذوى الأهواء أيضا ،
كان منهم الشيعى والخارجى ، والمعتزلى ولم يستثن منهم الاّ قليل •
قال صاحب تهذيب التهذيب : « كان أهل البصرة - يعنى أهل العربية
منهم - أصحاب أهواء الاّ أربعة فانهم كانوا أصحاب سنة ، أبو عمرو بن
العلاء ، والحليل بن أحمد ويونس بن حبيب والأصمعى • » (٧)

حتى هؤلاء الذين استنهم العسقلانى لانستطيع مسيرته فى أنهم لم
يعتقوا مبدأ سياسيا فليس كونهم أصحاب سنة أنهم لم يميلوا الى مبدأ معين
فأبو عمرو بن العلاء مثلا مع أنه كان من أصحاب السنة ومن غير ذوى الأهواء
كان مطاردا هاربا من الحجاج ، وقد قضى شطرا من عمره مختفيا بعيدا عن
البصرة حتى ليروى عنه أنه قال « كنت هاربا من الحجاج ، وكان يشبهه على
(فرجة) هل هو بالفتح أو بالضم فسمعت قائلا يقول :

ربما تجزع النفوس من الأمر له فرجة كحل العقال

بفتح الفاء ، ثم قال : ألا انه قد مات الحجاج • قال أبو عمرو : فما أدرى
بأيهما كنت أشد فرحا بقوله فرجة أو بقوله : مات الحجاج ، » (٨) •

وهل يفسر هربه من الحجاج الاّ بكونه كان يرى رأيا لا توافقه عليه
السياسة القائمة عليه •؟؟

ورجل مثل الحليل ينتمى الى قبيلة كبيرة لها ماضيها وحاضرها ، ولها
مكائنها الاجتماعية والسياسية ، ليس من اليسير أن نزعّم أنه كان بعيدا عن
هذا الصراع المذهبى أو السياسى •

نشأ الحليل أباضيا بحكم مافظن له من هوى عشيرته ثم استمع وهو

(٧) تهذيب التهذيب للعسقلانى ج ٣ ص ١٦٤ •

(٨) نزهة الالباء ص ٣٢ •

صبي الى وعظ أيوب السخيتاني (توفي سنة ١٣١ هـ) فعدل عن خارجيته واعتق مذهب أستاذه ، وكان أستاذه من أصحاب السنة المحدثين ، ولكنه عدل عن هذه السنة الى التشيع كما مرّ من رواية القفطي ، وظهرت آثار هذا التشيع في تفكيره لأن الشيعة كانوا كالمعتزلة من أوائل المتكلمين فقد كان جعفر بن محمد الصادق زعيم الشيعة الامامية وقد أدرك الدولتين - من أصحاب الكلام ورأيه في أفعال الانسان معروف ، فقد كان يذهب الى أنه «لا جبر ولا تفويض ولكن أمر بين أمرين»^(٩) وكان لجعفر بن محمد أصحاب متكلمون ذكر ابن التديم منهم : هشام بن الحكم وشيطان الطاق أو مؤمن الطاق •

وكان الخليل من أصحاب الكلام فعلا كما يفهم مما أورده حمزة بن الحسن الأصفهاني ، فقد ذكر أنه تكلم في فنون كثيرة «فمن تلك الفنون علم الغناء والايقاع ، وعلم الكلام والجدل وعلم الشطرنج والنرد»^(١٠) وكما يفهم من قول الجاحظ : «ان كبار المتكلمين ورؤساء النظارين كانوا فوق أكثر الخطباء وأبلغ من كثير من البلغاء ، وهم تخيروا تلك الألفاظ لتلك المعاني وهم اشتقوا لها من كلام العرب تلك الأسماء ، وهم اصطلحوا على تسمية ما لم يكن له في لغة العرب اسم فصاروا في ذلك سلفا لكل خلف وقدوة لكل تابع ، ولذلك قالو : العرض والجوهر ، وأيس وليس ، وفرقوا بين البطلان والتلاشي ، وذكروا الهدية والهوية والماهية وأشياء ذلك •

وكما وضع الخليل بن أحمد لأوزان القصيد وقصار الأرجاز ألقابا لم تكن تتعارف تلك الأعارض بتلك الألقاب ، وتلك الأوزان بتلك الأسماء ، وكما ذكر الطويل والبسيط والمديد والوافر والكمال وأشياء ذلك»^(١١)

(٩) عقيدة الشيعة (دوايت • م • رونلدسن) ص ١٤٣ •

(١٠) التنبيه على حدوث التصحيف لحمزة بن الحسن الاصفهاني «نسخة مصورة بدار الكتب» •

(١١) البيان والتبيين ج ١ ص ١٥٣ «مطبعة الاستقامة ١٩٤٧» •

وظهرت آثار التشيع في بعض ما روى عنه من أشعار فقد روى الزبيدي

أنه قال :

فاطلب النحو لنحجاج وللشعر مقيما والمسند المروى
قيمة المرء كل ما يحسن المرء قضاء من الامام على
والخطاب البليغ عن حوار القول يزهي بمثله في الندي
وارفض القول من طعام جفوا عنه فعادوه نصبة للنبي

وأنه قال :

أبلغا عنى المنجم أني كافر بالذي قضته الكواكب
عالم أن ما يكون وما كان بحتم من المهيمن واجب
شاهد أن من يفوض أو يجبر زار على المقادير كاذب (١٢)

ففي الأبيات الأولى تسمع نغمة لم تكن لتسمعها إلا من متشيعين أمثال
أبي الأسود الدؤلي والسيد الحميري • وفي الأبيات الأخرى تجده يشهد
بكذب المفوضة والمجبرة ، وشهادته بكذبهما فيما نرى ذهاب الى ماذهب اليه
الامامية على لسان جعفر بن محمد الصادق من أنه « لا جبر ولا تفويض ولكن
أمر بين أمرين » •

ومهما يكن من أمر فقد كان الخليل من أهل الدين والورع والزهد ،
وكان يقرن في العلم والزهد بعبيدالله بن عون فقيلا : « قل من كان بظاهرة
البصرة من العلماء والزهاد الا كان في باطنها مثله يضعه أهل البصرة حياله ،
وكان عبيدالله بن عون في الباطنة ، وكان الخليل بن أحمد يعد في الظاهرة
نظيره » • (١٣)

(١٢) طبقات النحويين للزبيدي «الخليل» (نسخة مصورة بدار الكتب) •

(١٣) مراتب النحويين لابي الطيب اللغوي ص ٤٧ «مخطوطة بدار الكتب» •

وكان النضر بن شميل يقول : « ما رأيت رجلا أعلم بالسنة بعد ابن
عون من الخليل بن أحمد » (١٤)

وكان الخليل من أهل الدين الذين جاهدوا في سبيله ، وكان لجهاده في
سبيل الدين ألون اصطبغ مرة بالسياسة ، واصطبغ مرة بالعلم ، ولما لم تسعفه
الظروف السياسية في كفاحه السياسي انصرف الى خدمة الدين عن طريق
العلم ، وقد عكف على العلم عكوف المتصوفين ، وانصرف الى طلبه تاركا الحياة
المادية ، غير عابئ بجاه أو منصب واعتزل في خصه مغلقا عليه بابه حتى
لا يجاوزه همته كما كان يقول ، وقضى حياته في طلبه ، وهو القائل : « ان لم
تكن هذه الطائفة - يعني أهل العلم - أولياء الله فليس له ولي » (١٥) •

(١٤) نزهة الالباء ص ٥٩ •

(١٥) انباه الرواه على انباه النحاة للقفطى ص ٣٢١ ج ١ «مخطوطة بدار
الكتب» •

(٢)

حياته العلمية

ولكى نرسم صورة للخليل لا بد أن نقف وقفة قصيرة على المجتمع الذى كان يعيش فيه للوقوف منه على ماله صلة بحياة الخليل العلمية ، وعلى الشيوخ الذين يتحدث التاريخ أنه درس عليهم لمعرفة الخطوط الأساسية التى تكونت منها حياته العقلية •

الحق أنه لم يصلنا بالخليل الا تلاميذه الذين كتبوا ما سمعوا عنه ، وما أملاه عليهم ، ولم يترك الخليل لنا من الكتب ما نستطيع معه أن نتعرف به على ملامح شخصيته العلمية •

فنحوه لم يصل الينا الا عن طريق سيبويه وكتابه وأقواله فى اللغة والأصوات لم تصل الينا الا عن طريق تلميذه الليث بن المظفر ، وعروضه لم يصل الينا الا عن طريق الأخفش •

هذه الجوانب الثلاثة من حياة الخليل العلمية لم تصل اليها فى كتب صنّفها هو وانما أملاها على تلاميذه الذين نقلوها عنه بأمانة واخلاص •

وأظننى قد رسمت فيما سبق ملامح المجتمع البصرى ، وألمت المامة موجزة بحياته الثقافية العامة فلنقف الآن قليلا عند بيئته الخاصة التى ربما تركت فى نفسه أثرا وطبعت عقله بطابعها الخاص ، فلاشك أن للأستاذ فى تلميذه تأثيرا ، وأن التلميذ يستجيب لهذا التأثير ، ولا نغنى بالاستجابة أن يملأ ذهنه بما يمليه الأستاذ عليه أو أن يستوعب ما فى عيته من معلومات بل نغنى بها التقليد والمحاكاة ، بأن يقف التلميذ من أستاذه موقف المقلد المحاكى ،

وأن يصبح صدى لما فى نفس أستاذه ، أو مرآة تعكس عليها خصائصه ومزاياه
الخلقية والعلمية والفنية •

وإذا وصل التلميذ الى درجة كبيرة من الاستجابة فقلد وحاكى وتمثل
ذلك فى نفسه لمحا لذلك أثرا فى تصرفاته وسلوكه وأسلوب تفكيره ،
ولاحظنا شباها كبيرا بين عقلية الأستاذ وتلميذه •

لهذا كان لزاما على الباحث الذى يحاول أن يدرس شخصية من
الشخصيات أن يلم بالخصائص التى يمتاز بها شيوخه وأساتذته الذين استجاب
لهم لنصل الى الخطوط الرئيسة التى انبت عليها شخصية التلميذ •

وعلى هذا لا بد أن نرجع الى الوراء قليلا لتقف وقفة قصيرة عند
الشيوخ الذين أخذ الخليل عنهم •

شيوخه :

يبدو لى أن باكورة دراسته كانت على أيوب السخيتانى ، تلقى عنه
الحديث والفقه ، وكان السخيتانى فقيها من فقهاء البصرة ومحدثا من محدثيها ،
وكان الحسن البصرى يقول : «أيوب سيد شباب أهل البصرة» (١) لما كان
يتصف به من ورع وصلاح ومن زهد وعبادة ، وكان لأيوب حلقة فى مسجد
البصرة يعظ فيها ويحدث ، وكان الخليل اذ ذاك حدثا وقد راقه حديثه فاستمع
اليه طويلا ، واختلف الى مجلسه كثيرا حتى تأثر بتعاليمه ، وأخذ عنه نسكه
وزهده • وكان أيوب يقول : «تعلموا النحو فانه جمال للوضع وتركه هجنة
للشريف» (٢) •

وقد انصرف الخليل للنحو فعلا ، وتنقل بين الحلقات ، ولا أدري أكان

(١) البيان والتبيين ج٢ ص ١٥٤ •

(٢) البيان والتبيين ج٢ ص ٢٢٣ •

انصرافه للنحو اتباعا لقول شيخه أم انقيادا للتيار الثقافي الجديد الذى أقبل عليه المثقفون وهو النحو؟!

ومهما يكن من أمر فقد كانت حلقات النحو فى المسجد الجامع أهلة بالطلاب فكان الحليل كغيره من الطلاب يتنقل بينها ، يسمع من هذا ويجلس الى ذاك ، ولم يقتصر على الأخذ من أستاذ واحد ، لأن الانسان - كما كان يقول - لا يعلم خطأ معلمه حتى يجالس غيره • وقد اقتبس هذا من كلام أستاذه أيوب السخيتانى الذى كان يقول : «لا يعرف الرجل خطأ معلمه حتى يسمع الاختلاف» (٣) •

وكان الحليل حريصا على التزود من العلم من ينابيعه المختلفة ، لا يحجم عن طلبه ولا يقف بينه وبين الاستفادة حائل ، وكان لا يأنف أن يستفيد ولو ممن هو أقل منه علما وتجربة ، وكان لا يعرف معنى للتكبر فى العلم ، وكان يقول : «تربع الجهل بين الحياء والكبر فى العلم» (٤) ، وكان يقول أيضا : «من استغنى بما عنده جهل ومن ضم الى علمه علم غيره كان من الموصوفين ينعى الربانيين» (٥) •

أفلا تراه قد تمثل تعاليم أستاذه أيوب ، وكانت هادية له فى حياته العلمية الناشئة ، حتى بلغ الدرجة التى بلغها من بعد •
فنحن اذن اذا رجعنا الى الخطوط الأساسية التى رسمت حياته الخلقية وجدناها أثرا من آثار أيوب فقد تأثر بها وتمثلها فى نفسه تمثلا حملها على النسك والزهد والتواضع والعفة والانصراف عن الحياة المادية حتى قال فيه سفيان الثورى : «من أحب أن ينظر الى رجل خلق من الذهب والمسك فيلنظر الى الحليل بن أحمد» •

(٣) البيان والتبيين ج ٢ ص ٩٥ •

(٤) طبقات النحويين للزبيدي عن «نسخة مصورة بدار الكتب» •

(٥) المصدر السابق •

وحتى كان النضر بن شميل أحد تلاميذه يقول : « كنا نمثل بين ابن عون
والخليل بن أحمد أيهما تقدم في الزهد والعبادة فلا ندرى أيهما تقدم » (٦) .
أما أسانده الآخرون فآثارهم فيه غير واضحة ، ومن هؤلاء :

عيسى بن عمر الثقفي المقرئ النحوي وقد مرّ ذكره حين عرضنا
للمدارس القرآنية ومر بنا اعجاب الخليل به واشادته بعلمه وبكتابه الجامع
والاكمل ، ولكننا لاستطيع أن نتعرف على ملامح شخصيته من أقواله النحوية
القليلة التي ذكرها سيبويه في كتابه . أما كتابه اللذان أشار اليهما الخليل
فلم يقعا في أيدي الناس ولم يتدارسوهما .

فإذا كان هناك تأثير له في الخليل فقد يكون هذا التأثير في ميله الى
اصطناع القياس أصلا من أصول النحو ، ثم التوسع فيه على النحو الذي عرف
الخليل به ، وكان معروفا أن عيسى بن عمر كان يصطنع القياس ، وأشرنا الى
مسائل أوردها سيبويه في كتابه كان لعيسى بن عمر فيها قياس .

وأبو عمرو بن العلاء ، وكان اذ ذاك شيخا من شيوخ القراءة والعربية ،
وكانت له حلقة في المسجد الجامع بالبصرة ، يجتمع اليه فيها رجال القراءة
والأدب واللغة والنحو .

وكان أول اتصاله به يوم هبط البصرة وهو يعتزم مناظرته ، يحدوه الى
ذلك اندفاع الشباب والاعتزاز بما كان يحسّ به في نفسه من ذكاء وقدرة ،
ولكن الخليل لم يكن مزهوا بنفسه ، ولا مغرورا بما وصل اليه ، وظلّ يستمع
اليه وهو ساكت ، فسئل عن سكوته فقال : « هو رئيس منذ خمسين سنة فحفت
أن ينقطع فيفتضح في البلد » (٧) .

وهذا الخلق الكريم هو الطابع البادي على سلوك الخليل في حياته ،

(٦) نزهة الالباء ص ٥٨ .

(٧) شذرات الذهب لابن العماد ج ١ حوادث سنة ١٧٠ هـ .

وهو فيما نرى ثمرة جناها من سلوك أستاذه أيوب • وابو الخطاب الأخصش
الكبير أحد كبار اللغويين الرواة ، اخذ عنه الخليل وأبو عبيدة •

والخليل مع أنه أخذ من هؤلاء واختلف الى حلقاتهم ، لم يؤمن بأن العلم
الذي وصلوا اليه مما يحسن الوقوف عنده والاقتصار عليه ، وان احتلوا به
مراكز الزعامة العلمية • وما أقرب موقفه منهم من موقف يونس بن حبيب
من عبدالله بن أبي اسحاق حين سئل أن يوازن بين علم الناس في عهده وعلمه ،
فقد قال : « لو كان في الناس اليوم من لا يعلم إلا علمه لضحك منه » (٨) •

وكان الخليل طلعة لا يكتفى بلون من ألوان المعرفة ، وكان يحاول
الوقوف على مختلف التيارات الثقافية ويستفيد منها ، وكانت البصرة اذ ذاك
معهدا علميا لم يشهد تاريخ العربية الى العصر الذي عاش فيه الخليل معهدا
أوعى منه للثقافات ، فقد أخذت الثقافات تتوافد عليها مع الوافدين من هنا
وهناك ، وكانت الحركات العلمية تسابق الزمن بحيث لم يمر عهد طويل
حتى كانت البصرة منبعا غزير الفيض للثقافات والعلوم •

ولقد نظر الخليل في الثقافات القديمة ، وأخذ منها حاجته ، نظر في
القراءات وكان تلميذا لأبي عمرو بن العلاء أحد القراء السبعة ، وكانت للخليل
أعمال قرآنية سبق أن اشرنا اليها من كتابة المصحف ، وابتداعه حركات
الاعراب الجديدة ، ووضع علامات أخرى للتشديد والادغام ، كما قال أبو
عمرو الداني •

ونظر في الفقه وتبع تطوراته الجديدة ، ووقف على مذهب المجددين
من أصحاب الرأي والقياس ، وكان أبو حنيفة يعاصره •
ونظر في اللغة وأخذها عن أبي الخطاب وعن فصحاء العرب كأبي خيرة

(٨) طبقات الشعراء لابن سلام ص ٦ •

وأبى الدقيش وعن الأعراب فى بوادى نجد والحجاز وتهامة خلال حجّاته •
ونظر فى النجو واختلف الى حلقاته فى البصرة ، وكان من شيوخه فيه
عيسى بن عمر الثقفى وأبو عمرو بن العلاء •

وأخذ يلتمس الثقافات الجديدة فنظر فى الكلام وكانت مدارسه قد
ترعرعت فى البيئة البصرية اذ ذلك ، وكان هو من أصحاب الكلام فعلا لأنك
تلمح فى أقواله ودراساته ظلالات المناهج أصحاب الكلام وأساليبهم ، واعتداده
بالعتل يؤيد شهادة الجاحظ وحمزة بن الحسن الأصفهانى بأنه كان من
أصحاب الكلام •

ونظر فى الموسيقى ، وكانت له معرفة بها وكثير من المؤرخين يشنون له
هذه المعرفة •

يقول القفطى : «وله علم بالأنغام ، وله كتاب فيه ، ومعرفته بالنغم
ومواقعها أحدثت له علم العروض» (٩) •

ويقول حمزة بن الحسن الأصفهانى : « وأما علم الغناء والايقاع فانه
صنع فيه كتابا وسماه تراكيب الأصوات ، وهو لم يعالج وترا ولا مسّ قضيبا ،
ولا كثرت مشاهدته للمغنين» (١٠) •

وأكثر المترجمين له من العرب يروون أن له كتابا فى النغم وكتابا فى
الايقاع ومنهم ابن النديم •

ويروى جول روانيت فى دائرة المعارف الموسيقية أن الخليل كان له كتاب
فى الموسيقى •

ويقول : ج • ب • ترند : «يقال ان مخترع هذه الموسيقى المقيسة هو

(٩) انباء الرواه على أنباء النجاة ج ١ «مخطوطة بدار الكتب» •

(١٠) التنبيه على حدوث التصحيف لحمزة بن الحسن الاصفهانى ص ١٢٢

• «من المجموعة التيمورية بدار الكتب» •

فرانكو الكولوني ولكن فرانكو هذا يتحدث عن الموسيقى المقيسة كشيء سبق أن عرف ، ويظهر أن الخليل بن أحمد عرفها قبل ذلك في القرن الثامن» (١١) ♦

ولكن من أين جاءت هذه المعرفة ؟

المؤرخون يجيبون على ذلك فيزعمون أنه عرفها من ممر له بالصفارين من وقع مطرقة على طست (١٢) ♦

ولكننا نستبعد مازعمه القدماء لأن الموسيقى كانت معروفة في البيئـة العراقية ، والظاهر أن أصولها عرفت قبل زمن الخليل ، وقد شهد العصر الأموي كثيرا من المغنين كطويس وابن مسجح وابن محرز والغريص ومبعد، ومن الملحنين كالوليد بن يزيد ، ويونس الكاتب ♦ والتاريخ يحدثنا أن الوليد ابن يزيد كان شاعرا ملحنا مؤلفا في الموسيقى ، وأنه كانت له ألحان ، وكان يعزف على العود ، ويعرف صناعة الايقاع (١٣) ♦ ويذهب أبو الفرج الى أنه أول من دون الغناء (١٤) ♦

وقد كان الحجاز موفدا للهاوين يتعلمون بمدارسه الموسيقية أحدث الألحان والأنغام ، وكان في الحجاز أقطاب الغناء ، وكان كثير من هؤلاء يذهبون الى بلاد فارس ، فيقتبسون من ألحان الفرس وموسيقاهم ، وربما ذهبوا الى بلاد الشام المتأثرة بفنون الرومان واليونان (١٥) ♦

وظهر في العراق مغنيان مشهوران أحدهما نشأ قبل الخليل و ثانيهما

(١١) تراث الاسلام ج ١ ص ٣٤ ♦

(١٢) التنبيه على حدوث التصحيف ♦

(١٣) دائرة المعارف الموسيقية ص ٥٥ ♦

(١٤) الاغانى ج ٤ ص ١١٣ ♦

(١٥) ص ٦٤ ، ٦٧ من دائرة المعارف الموسيقية ♦

عاصره ، فأما أولهما فهو أبو كعب حنين بن بلّوع «توفى سنة ٧١٨ م» • كان من نصارى الحيرة «وكان يبيع الأزهار والفاكهة متنقلا بين منازل المطربين وأعيان القوم الموسرين فيسمع الغناء» (١٦) •

وأما ثانيهما فهو ابراهيم الكوفى الموصلى ، وقد ذهب ابراهيم هذا الى الموصل يتعلم فيها الغناء ثم ذهب الى بلاد فارس ، وأصبح بعد زمن فى الصف الأول من رجال الغناء والموسيقى •

وعلى هذا فالموسيقى كانت معروفة فى البيئات العربية والاسلامية ، ومنها الكوفة والبصرة ، فلا غرابة أن يكون الخليل وهو المتطلع الى فنون المعرفة ، قد وقف على الموسيقى وعرف قواعدها وأصولها معرفة أتاحت له التأليف فى النغم والايقاع ، وقد يكون فيما أُلّف فى هذا تجديد وابتكار ، ولكننا لانعرف مدى ذلك •

أما قصة ممرّه على الصفارين وسماعه وقع المطارق على الطسوت واستخراجه أصول الموسيقى منها ، فينبغى الوقوف منها موقف التريث قبل الاندفاع الى تصديقها ومتابعة المتقدمين فى القول بها •

ونظر الخليل فى أغلب الظن - فى كل ما كان ييسر له الاتصال به من ثقافات دخلت البيئة البصرية نتيجة للاندماج الذى حقق الاتصال بين العرب وغيرهم •

ولم تكن طريقة الخليل فى دراسته استيعاب ما كان يأخذه عن شيوخه شأن الرواة الحفاظ ، بل كان يتمثل كل ذلك فى نفسه ، ولم نسجل هذا عن افتراض نفترضه وانما نعتمد فيه على كلام له ، فقد روى المبرد أنه قال : «كن على مدارسة ما فى قلبك أحرص منك على حفظ كتبك» •

ص ٦٩ من دائرة المعارف الموسيقية •

فالذى نرجحه أن الخليل بتجاربه وبما فطر عليه من ذكاء وبما وهب من مزاج علمى قد نشأ نفسه هذه التنشئة ، وأفاد من هذه التيارات الفكرية التى كانت دائرة فى المجتمع البصرى ، ومن هذه النهضة العلمية القوية التى غزت حلقات العلم فى الزمن الذى عاش فيه ، وكانت ملقحة بثقافات وأفكار أجنبية تبادلها الدارسون العرب والأجانب فى اتصالاتهم وتلمذة بعضهم لبعض ♦ حتى تدينه كان خاضعا لمزاجه الخاص فلم يكن مدينا به لشيء ، ولا لما نشأ عليه فى أهله ، وكما كان الخليل معنيا بالتجربة فى الدراسة كان معنيا بها أيضا فى التدين ، وكما خبر العلوم والثقافات خبر المذاهب والأهواء أيضا ، وكان العقل فى كل ذلك هدى له فى طريق بحثه واختباره ♦

كان لهذه الثقافات المتنوعة أثرها فى عقلية الخليل فقد أكسبته عمقا فى التفكير وقدرة على الاحاطة بالموضوعات التى تناولها بالدرس ، وعنايته بهذه الثقافات المختلفة أفادته فى حياته العلمية ، وكان لها أثر تطبيقي فى مجال تخصصه ♦

كان للموسيقى أثرها فى تنمية حسه الموسيقى الذى أوصله الى تحديد مخارج الحروف والتمييز بين طبائع أصواتها ووضع كل حرف فى مدرجته داخل الفم ♦

واستطاع بها أن يحس بما للكلمات من موسيقى فتوصل الى استخراج أوزانها سواء أكانت أفعالا أم أسماء ، والى ضبط أوزان الشعر وتقسيمها الى ضروب ، وتقسيم كل ضرب الى تفعيلات ، وتقسيم التفعيلات الى أسباب وأوتاد ، وأدى به هذا الضبط الى سهولة التمييز بين كلمة عربية وأخرى دخيلة لمجرد خروجها عن الوزن المألوف ♦

وكان للكلام والخطرات الفلسفية أثرها فى ايمان الخليل بالعقل وأحكامه واخضاعه موضوعات دراسته الى هذه الأحكام ، وفى صبغ عقليته بصبغة علمية عملية ♦

وقد كان أصحاب الكلام من المعتزلة وغيرهم يتخذون من التجربة قاعدة لأعمالهم ودراساتهم حتى بلغ بهم ذلك أن أخضعوا لتجاربهم حتى الحيوانات كما حدثنا الجاحظ عن النظام وعن اجراء تجاربه على الطيبي والنعام وغيرهما (١٧) •

وليس معنى ذلك أن التجربة عندهم كانت أصلا عمليا ، أو كانت تطبق على أنها منهج واضح المعالم والحدود ، ولكنهم فطنوا لها وبدت منهم محاولات في الاستفادة منها •

وهكذا كان الخليل عمليا تجريبيا استقرأ كلام العرب وأخذ يتذوق أساليبهم ويتدبر تعبيراتهم ، ثم أخذ يجرى عليها تجاربه ليصل الى نتائج لا يمكن الوصول إليها بغير التجربة والاستقراء ، فقد توصل الى حصر الأوزان التي انبنى عليها الشعر العربي ، ووضع لكل وزن اسما خاصا ، وفصل الكلام في تفعيلاته وأجزاء تفعيلاته وطلع على العالم بما سماه علم العروض • وتوصل أيضا الى حصر أوزان الكلمات وتصنيفها طوائف ، كل طائفة لها وزن خاص سواء في ذلك الأسماء والأفعال ، ليسهل عليه أن يتدبر الأحكام الخاصة بكل طائفة ، وأن يدرك الصفات الخاصة بها • ثم شرع بعد انتهائه من ترتيب الحروف في وضع معجم مرتبة فصوله على أساس هذا الترتيب الجديد ، وهو كتاب العين الذي سمي بهذا الاسم لأن أول فصوله يتضمن الألفاظ التي تبدأ بالعين أو تتضمنها •

وكان لهذه الثقافة الكلامية أثرها أيضا في طبع عقلية بطابع العموم والتقصي وقد هدته عقليته هذه الى حصر أوزان الكلمات ، والى حصر أقسام الكلمات في الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي ، والى تصور القضايا النحوية على أنها قضايا عامة تقوم مقام القضايا في العلوم العقلية والطبيعية •

ومن هنا أزعج أن الخليل هو أول نحوي عنى بدراسة النحو دراسة

كتاب الحيوان ج ٢ ص ٨٣ ، ج ٤ ص ١٠٦ «المطبعة الحميدية» •

علمية منظمة ، وأول من نهج الطريق لعلماء النحو أن يدرسو النحو على أنه مجموعة من القواعد والأصول العامة ، وقبله كان النحو خطرات لغوية توحى بها السليقة ، ومجموعة من المسائل يتناولها الدارسون على أنها جزئيات مستقل بعضها عن بعض ، دون أن يلتفتوا الى الرباط العام الذى ينتظم المسائل ، اللهم الا محاولات أولية قام بها نحاة قبل الخليل ، كعبدالله بن أبى اسحاق وعيسى بن عمر •

ومن هنا أزعم أيضا أن الخليل هو واضع علم النحو ، بمعنى أنه واضع المنهج لدراسته دراسة علمية منظمة ، أو على الأقل هو زعيم المدرسة النحوية القياسية التقعيدية •

(٣)

منطق أرسطو ونحو الخليل

ليست فكرة تأثير النحو العربي بمنطق أرسطو بعيدة عن الأذهان • ولا بد لمن يعرض لتاريخ النحو العربي أن يمر عليها ويدون رأيه فيها ، ولم أجد وأنا أدرس نحو الخليل مناصا من أن أعرض لهذه الفكرة أيضا ، لأن تاريخ نحو الخليل هو تاريخ النحو العربي بوصفه علما له أصوله وقواعده •

وقد وجدت وأنا في طريق البحث في نحو الخليل مقالة للدكتور ابراهيم بيومي مذكور ألقاها في مؤتمر مجمع فؤاد الأول للغة العربية ١٩٤٨-١٩٤٩ ، وموضوعها «منطق أرسطو والنحو العربي» ، والدكتور ممن يقف الدارس عند آرائه فيما يتعلق بالفلسفة وتاريخها • وكان لا بد لي أن أقف عند مقالته هذه لأنها تمس الموضوع ، ولها بنحو الخليل صلة ، لأنها تتناول علاقة المنطق بالنحو العربي ، وبنحو الخليل بصفة خاصة •

ذهب الدكتور في مقالته هذه الى تأثير النحو العربي بمنطق أرسطو وتأثيرا يمس المنهج والموضوع ، فقال : «وقد أثر فيه - يعنى النحو العربي - المنطق الأرسطي من جانبين : أحدهما : موضوعي والآخر منهجي ، فتأثر النحو العربي عن قرب أو عن بعد بما ورد على لسان أرسطو في كتبه المنطقية من قواعد نحوية ، وأريد بالقياس النحوي أن يحدد ويوضع على نحو ما حدّد القياس المنطقي» (١) •

وقد بنى رأيه في تأثير النحو العربي بمنطق أرسطو على أمور :

(١) انظر مقالة الدكتور ص ٢ •

الأول : اعتبار القياس صلا من أصول العمل النحوى وتحديدده ووضع
على نحو ما حدد القياس المنطقى ، ثم هذا التشابه بين ما جاء من تقسيم الكلمة
عند سيبويه الى اسم وفعل وحرف ، وما جاء من تقسيمها عند أرسطو الى اسم
وفعل وأداة •

الثانى : ظهور النحو السريانى فى مدرسة نصيين فى القرن السادس
الميلادى على مقربة من نحاة العرب الأولين ، ثم ترجمة عبدالله بن المقفع لمنطق
أرسطو التى تعد كما يقول : ثروة جديدة نقلت الى العالم الاسلامى •

الثالث : تلمذة بعض السريان للخليل بن أحمد كحنين بن اسحاق
الطيب السريانى المعروف ، الذى كان له أثر كبير فى نقل علوم اليونان ،
ومنها الأجرومية الى العربية ، وفى افتتاح حركة الترجمة الكبرى فى العالم
الاسلامى •

وقرر الدكتور هنا : أن حنينا كان «معاصرا للخليل وسيبويه ، بل
وصديقا للخليل ، وقد تعلم العربية فى سن متقدمة ، وعانى منها ما عانى ، ومن
اليسير أن تتصور أنه قد تبادل فيما تبادل مع الخليل بعض القواعد النحوية» •

ولابد لنا من الوقوف عند هذه الأمور للنظر فيها ومحاكمتها واستخلاص
ما يمكن الاعتماد عليه فى تأييد هذه الفكرة التى لاتزال تترجح عند الباحثين
بين النفى والاثبات وبين الشك واليقين •

أما الأمر الأول فلا نستطيع الاطمئنان اليه ، فضلا عن أننا نعتمد عليه
فى تأييد الفكرة ، لأن اعتبار القياس أصلا من أصول العمل النحوى ليس
معناه أن النحويين اقتبسوه من منطق اليونان ، ونحن فى هذا نعتمد على :

(١) أن هناك فرقا بين مفهوم القياس عند النحويين ومفهومه عند المناطقة ،
فالقياس النحوى انتقال من الجزئى الى الكلى ، وهو يساوى الاستقراء
عند أرسطو ، والقياس المنطقى انتقال من الكلى الى الجزئى •

(٢) وأن هناك فرقا أيضا بين مدلول الاصطلاح النحوى ومدلول الاصطلاح المنطقى ، فالحرف مثلا فى النحو هو العنصر الذى قصر عن الدلالة على المعنى بنفسه ، والذى وظيفته ربط أجزاء الجمل بعضها ببعض ، بينما الأداة فى المنطق تكون اسما وفعلا وحرفا •

وأما الأمر الثانى فليس فيه دلالة أيضا على صحة هذه الدعوى ، أما ظهور النحو السريانى المقتبس من اليونانية فليس له تأثير - فيما نظن - فى النحو العربى وان ظهر على مقربة من نحاة العرب الأولين ، لأن الظاهر أن النحو السريانى لم توضع قواعده الا فى اواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن للميلاد •

نعم أخذ السريان يفكرون فى وضع قواعد للفتهم حين شعروا بالخطر يهددها بالقضاء بعد انتشار العربية فى ربوع العراق وبلاد الشام ، واستعان الشرقيون منهم وهم سكان العراق بالنقط فى اعراب الكلمات كما كانت الحال عند العرب ، وكان ذلك حوالى سنة ٧٠٠ للميلاد (٢) ، وقد شهدت هذه الفترة أواخر خلافة عبدالمك بن مروان الذى توفى سنة ٧٠٥ للميلاد ، وكان العرب اذ ذاك قد فرغوا من نقط المصحف على يد أبى الأسود الدؤلى بين سنتى ٤٩ ، ٥٣ للهجرة ، أو على وجه التقريب بين سنتى ٦٧٠ - ٦٧٤ للميلاد ، وهى الفترة التى ولى زياد فيها المصريين •

وهذا فيما أظن هو الذى دعا الأستاذ (ليتمان) أن يذهب الى أن النحو السريانى مأخوذ من النحو العربى ، وهو الذى دعا الأستاذ (جب) أن يذهب الى أن النحو السريانى والنحو العربى نشأ فى وقت واحد (٣) ، مع التسامح فى هذه الفترة التى كانت بين عمل أبى الأسود وعمل يعقوب الرهاوى واضع النحو السريانى المتوفى سنة ٧٠٨ للميلاد •

(٢) الفصل فى قواعد اللغة السريانية وآدابها ص ٦ •

وأما ترجمة منطق أرسطو في عهد الخليل فمع أن كثيرا من الباحثين قد ذهب إلى القول بها ومنهم (دى بور) في تاريخ الفلسفة في الإسلام ، ليست من الثبوت في درجة أن نقطح بتأثيرها المباشر في النحو العربي في عهد الخليل ، لأن اسناد الترجمة لعبدالله بن المقفع قضية لم ينته الباحثون من تحقيقها ، وان قال بها باحثون محققون ، فان (بول كراوس) قد استظهر أن الذى قام بها هو محمد بن عبدالله بن المتفّع لا ابن المقفع نفسه ، وعلى هذا يكون مذهب الخليل في النحو قد رسمت حدوده وبانت معاملة قبل ظهور هذه الترجمة ، ودون أن يتأثر بها تأثيرا مباشرا ، والدكتور نفسه لم يصرح بتأثر الخليل بها ، بل نسب التأثير بها إلى سيبويه الذى ألف الكتاب بعد وفاة الخليل سنة ١٧٧ للهجرة •

وأما الأمر الثالث وهو تلمذة حين للخليل فأمر لا نستطيع الاطمئنان إليه ، ولا نسمح لأنفسنا بمتابعة الدكتور فى القول به ، وليس الدكتور أول من قال بهذه التلمذة المزعومة ، فان القائلين بها قدماء ومحدثون •

وليس من القدماء من قال بها - فيما أعلم - الا ابن أبى أصيبعة (٥٩٦-٦١٨هـ) الذى روى عن سليمان بن حسان : «أن حيننا نهض من بغداد إلى أرض فارس ، وكان الخليل بن أحمد النحوى بارض فارس فلزمه حين حتى برع فى لسان العرب وأدخل كتاب العين بغداد ، ثم اختير للترجمة واؤتمن عليها » (٤) •

والقفطى (٥٦٨ - ٦٤٦ هـ) الذى ذكر هذه الرواية أيضا مع شىء من الاختلاف ، فقال : «ان حيننا دخل البصرة ولزم الخليل بن أحمد حتى برع فى اللسان العربى وأدخل كتاب العين بغداد واختير للترجمة واؤتمن عليها » (٥) •

(٤) عيون الانباء لابن أبى أصيبعة ج ١ ص ١٨٤ •

(٥) اخبار العلماء باخبار الحكماء ص ١١٧ •

وأما المحدثون فأسبق القائلين بها فيما أعتقد هو الأستاذ أحمد أمين فقد قال في ضحى الإسلام ، فى الجزء الأول ص ٢٩٨ : « أن حيننا ذهب الى بلاد الروم ، وأجاد تعلم اليونانية ثم عاد الى البصرة ولازم الخليل بن أحمد يأخذ عنه العربية » •

ومنهم الدكتور مدكور فى هذه المقالة التى تتحدث عنها ، وقد أثبتنا مقاله فى هذه التلمذة المزعومة •

ومنهم الأستاذ مصطفى نظيف ، وقد وقفت على رأى له فى هذا فى تعليقه له على هذه المحاضرة ، فقد صرح بلهجة الواثق أنه « ثابت أنه - يعنى الخليل - كان متصلاً بـحنين بن اسحاق ، وأن حيننا تعلم العربية على الخليل » • وهؤلاء الباحثون المحدثون يريدون الى الظن بتأثر النحو العربى بمنطق أرسطو متأثراً مباشراً ، وهم - فيما يبدو لى - يعتمدون على ما زعمه ابن أبى أصيبعة والقفطى وزعمهما ايفال فى الخلط ، وابعاد فى التسميح ، لأننا لو التفتنا الى تاريخ حياة الخليل وتاريخ حياة حنين لظهر لنا بطلان ما زعماه مما كادا ينفردان به ، فقد نصت الكتب التى ترجمت للخليل ، والمطان التى استطعت الرجوع اليها على أن وفاة الخليل لا تتعدى سنة ١٨٠ هـ فى اكثر تقدير ، وأن ولادة حنين لم تكن قبل سنة ١٩٤ هـ ، واذن فين وفاة الخليل وولادة حنين أربع عشرة سنة فى أقل تقدير ، واذن فان حيننا لم يدرك الخليل ولا رآه فلا يصح لنا أن نقفوا أثر ابن أبى أصيبعة والقفطى وهمهما ، فنقول بمقالتهما ، ولا يجوز أن نزعم أن حيننا قد تلمذ للخليل وتعلم العربية عليه ، أو نغلو فنقرر أن حيننا قد تعلم العربية عليه فى سن متقدمة •

والغريب أن القارىء فى ضحى الإسلام يرى أن الأستاذ أحمد أمين قد أثبت ما أثبتوه مما يتصل بتحديد الزمن الذى توفى فيه الخليل ، والزمن الذى ولد فيه حنين ، فقد نص فى الجزء الأول على أن حيننا ولد فى سنة ١٩٤ هـ ، وفى

الجزء الثاني حين ترجم للخليل على أنه عاش من سنة ١٠٠-١٧٥ هـ •
ولم يحاول التوفيق بين ذهابه الى اتصال حين بالخليل وتعلمه العربية عليه ،
وبين التاريخ الذي أمته لولادة الخليل ووفاته ، وولادة حين مع أن بينهما
تعارضاً ظاهراً •

فالحق أن القول بتأثر النحو العربي أو نحو الخليل بوجه خاص بمنطق
أرسطو أو بالنحو السرياني متأثراً مباشراً زعم يقتصر الى شيء كثير من التحقيق ،
وأن صلات هؤلاء الأجانب بالخليل لم يقم على ثبوتها دليل تطمئن اليه نفس
الباحث ، أو يحمله على الظن بأنه قد أقبس منهم أو تأثر بهم أو تبادل معهم
بعض القواعد النحوية •

والحق أيضاً أن ما اعتد به الخليل من قياس ومن منهج كلامي ، وما
جرى على لسانه أو لسان تلميذه سيبويه من مصطلحات يشبه ما جاء في منطق
أرسطو ، ليس فيه ما يدل على أن نحو الخليل متأثر بالمنطق الأرسطي متأثراً
مباشراً في المنهج والموضوع •

نشأ الخليل في بيئة البصرة في بداية القرن الثاني للهجرة ، في الوقت
الذي اكتمل فيه الاندماج بين العناصر العربية والأجنبية أو كاد ، وفي الوقت
الذي أخذت فيه العقلات تتفاعل ويؤثر بعضها في بعض ، وفي الوقت الذي
تهيأ فيه لأهل البصرة عقلية خاصة ، لم تكن عربية خالصة ، بل كانت متأثرة
بالعقل الأجنبي ، نتيجة لهذا الاندماج ، ولوجود بعض المدارس اليونانية التي
أنشئت قديماً حول البصرة قبل تمصيرها • وكان السريان واليونان قوامين
عليها ، كمدرسة جنديسابور ، وكمدارس التي نشأت في الديارات ، وحول
البصرة منها : دير الدهدار بين البصرة وواسط ، ودير مخراق من أعمال
خوزستان ، ولا ريب أن علوم اليونان كانت العلوم الأساسية التي يعنى بها
الطلاب •

وجاء النحاة فتأثروا بهذه العقلية العامة التي لاتخلو من آثار أجنبية ثم جاء الخليل وهو شخصية طلعة ذواقة، بلغ من الذكاء وعمق النظر شأوا بعيدا، فلم يتوان أن يلم بما كان يدور حوله من ثقافات، وقد تواترت الأخبار، ودلت الآثار التي وصلت إلينا عنه أنه كان من البارعين بعلوم كثيرة كان في أكثرها مبدعا خلاقا •

كان الخليل يقول: «إذا أردت أن تعلم العلم لنفسك فاجمع من كل شيء شيئا، وإذا أردت أن تكون رأسا في العلم فعليك بطريق واحد» (٦) •

وهو كما يبدو لنا قد سار في كلتا الطريقتين، قضى الجانب الأول من حياته بالأخذ من كل شيء بطرف، حتى إذا نضج عقله سلك طريقا واحدا، وتخصص باللغة والنحو، وكلاهما من واد واحد، وجاء بالعروض، ورسم المعجم، ووضع أسس المدرسة البصرية في دراسة اللغة والنحو •

ويظن كثير من الباحثين أنه كان ملما باليونانية أو متأثرا بها كل التأثر، فالبيستاني يستظهر أنه «كان له الملم تام باليونانية» (٧)، والأستاذ ماسنيون يرى «أن نفوذ منطق أرسطو على نحو العرب بدأ من عهد الخليل» (٨)، وعلى الجارم كان يعتقد أن الخليل تأثر باليونانية كثيرا (٩) •

وجميع هذه الآراء كسابقاتها لاتستند إلا إلى الحدس والتخمين، فلم يتوفر لأصحابها أدلة قاطعة على أنه كان يعرف اليونانية، كما لم يتوفر لهم أو لغيرهم ما يدل على أن النحو العربي بوجه عام قد تأثر في نشأته الأولى، أو في عهد الخليل بالأجرومية اليونانية فضلا عن أن بعض الباحثين من

(٦) معجم الادباء ج ١ ص ٧٣ •

(٧) دائرة معارف البيستاني ج ٧ ص ٤٦١ •

(٨) انظر تعليق الاستاذ ماسنيون على محاضرة الدكتور •

(٩) انظر تعليق الاستاذ الجارم على محاضرة الدكتور •

المستشرقين يرى أن النحو العربي أثر من آثار العقل العربي ، وأن العرب
«قد أبدعوا علم النحو في الابتداء ، وأنه لا يوجد في كتاب سيبويه إلا ما
اختره هو والذين تقدموه» (١٠) .

وما رواه الزبيدي من «أن ملك اليونانية كتب الى الخليل كتابا باليونانية
فخلا بالكتاب شهرا حتى فهمه ، ف قيل له في ذلك فقال : قلت انه لا بد من أن
يفتح الكتاب بسم الله أو ما أشبهه فبنت أول حروفه على ذلك فافتاس لي .
فكان هذا الأصل الذي عمل له الخليل كتاب المعنى» (١١) .

واستند البستاني الى مارواه الزبيدي فاستظهر أن الخليل كان له الملم تام
باليونانية .

ما رواه الزبيدي زعم يحمل بين طياته دلائل الوضع والاختلاق ، لأنه ان كان
يعرف اليونانية فلا معنى لأن يعتكف في بيته شهرا حتى يفهمه و يترجمه ، وان
لم يعرف اليونانية فكيف يستطيع أن يترجم الكتاب ؟ ولن يستطيع ترجمته
ولو بقي في بيته شهورا .

ثم مل هذا الذي زعم الزبيدي أن الخليل تيقنه من أنه لا بد أن يفتح
الكتاب بسم الله أو ما أشبهه ، وكيف يتوهم الخليل أن الكتاب مبدوء بالبسملة
وهو مرسل من نصراني ؟!

وهذا هو الذي دفع بعض الأدباء الى أن يتكلف فيزعم أن ملك اليونانية
أمر كاتبه أن يبعث اليه كتابا عربيا بحروف يونانية (١٢) ، ليتسلى هذا الملك
بامتحان الخليل الذي افتخر به العرب على اليونان وغيرهم .

(١٠) هذا رأى للاستاذ ليمان في محاضراته .

(١١) انظر ترجمة الخليل في طبقات النحويين للزبيدي «نسخة مصورة
بدار الكتب» .

(١٢) انظر ص ٧٣ من «قصة عبقرى» من سلسلة اقرأ .

ولو عرف الخليل سرّ هذا الكتاب ، واستنتج أن لغته عربية ، ثم اعتكف
في بيته شهرا ليعرف أصوات هذه الحروف من البسمة وغيرها ، فلا دلالة
فيه على أن الخليل كان يلم باليونانية المما تاما كما استظهره البستاني من رواية
الزبيدي •

على أن الخليل لم يكن مغمض العينين عما كان يدور حوله من تيارات
أجنبية كانت معروفة في البيئة البصرية ، غير أن هذه التيارات ليست من
الوضوح الى حد أن نميز بين موضوعاتها ، وليست الا أفكارا عامة تتناقلها
الأذهان ، وتركت ظلالها في النفوس •

وقد ظهرت هذه الظلال في عقول المفكرين الذين سبقوا الخليل كالحسن
البصرى ومعبد الجهني وغيرهما من أوائل المتكلمين ، فما تقرأ لهم حتى تلاحظ
الفرق الواضح بين أقوالهم وأقوال الأوائل الذين لم يتأثروا بهذه
العقيدة الجديدة التي تمخض عنها الاندماج •

والخليل أحد هؤلاء الذين نشئوا في هذه البيئة وتأثروا بها ، ولا عجب
اذن اذا رأينا تفكيره يحمل طابعا جديدا فيه خطوط حضارية جديدة ، وفيه
ظلال من الدقة وعمق النظر •

وكان الخليل متكلمنا بشهادة الجاحظ وحمزة بن الحسن الاصفهاني ،
ولكن آراءه الكلامية لم تصل اليها فلم تتعرف ملامحها ، ولم نستطع ردها الى
الأصول التي انحدرت منها ، ولم نحس في نحوه بأفكار أجنبية طارئة قد
اقتبسها اقتباسا ، وكل ما نلمسه فيه هو هذا العمق في نظره الى الموضوعات
والمسائل ، وهذه الدقة في ادراك القضايا النحوية •

ولا يسعنا الاطمئنان الى النعمات التي تعودنا سماعها من الذين يعشقون

التكهن على حساب التراث العربي الاسلامى ، ويحاولون تحت ستار من صدق النية وحب البحث أن يرجعوا كل شيء الى أصل أجنبي •

ولو تتبعنا تاريخ النحو لوجدناه يخطو خطوات طبيعية من البساطة الى التعقيد ، ومن الفطرة الى النظر العلمى ، فلم ينشأ النحو مرة واحدة ، ولم ينسب الى طبقة معينة ، وانما تعاونت على تكوينه أجيال كانوا مدفوعين أولا بدافع دينى يهدف الى حفظ القرآن من اللحن بعدما شاع فى لغة التخاطب نتيجة حتمية لهذا الامتزاج بين عناصر مختلفة تباعدت مناشئها وتباينت لغاتها ، واضطرتها الظروف الى الارتباط بروابط الدين والمعاملات ، ثم بدافع حاجة هذه الشعوب الأجنبية الى علم يحقق لهم معرفة هذه اللغة التى اضطروا الى تعلمها ليعيشوا فى ظل الحكم العربى الاسلامى •

والأمة العربية الاسلامية لم تبق على طور واحد ، وانما هى ككل أمة شقت طريقها الى الحياة الحضارية المستقرة ، مرت عليها أطوار وأطوار ، وانتقلت من البداوة التى تنشأ عليها كل أمة جديدة عهد بالتكوين الى الحضارة المستقرة ، ولم تقفز اليها دفعة واحدة ، ولكنها امتازت بأشواطها السريعة ، لأنه قد ساعد على هذا التطور السريع عوامل طبيعية واجتماعية ، فقد هاجرت الى البلاد المفتوحة وهى بلاد غنية خصبة ذات موقع تجارى ممتاز ، ووارثة حضارات ومدنيات ، فامتزجت بعناصر أجنبية ، تحمل فى أعماق نفوسها ما ورثته من ميراث يتصل بالفكر ، وحملت هى ما ورثته وما نشأت عليه من ثقافة وتقاليد ، وامتزج كل ذلك فى صعيد البيئات الجديدة ، وتلقحت الأفكار بعضها ببعض •

فلما فتح الخليل عينيه للحياة العلمية بهرته هذه الألوان الثقافية ، وأحس بالدافع يدفعه قويا الى مزاولتها ، وساعده على تحقيق غايته ما فطر عليه من ذكاء وقدرة عقلية •

رأى تراثا عربيا ضخما يتمثل بالشعر والأدب وبالدراسات القرآنية ، ورأى مر كبا ثقافيا ترجع أصوله الى عقليات أجنبية مختلفة سماه الدكتور طه حسين ثقافة شرقية ، هي ما عرفته الأمم الشرقية من تراث حضارى وثقافى تمتد جذوره الى أقدم العصور ، وخبر هذا وذاك فأكسبته هذه الخبرة عقلية خاصة ، ولونت نفسه بألوان جديدة •

وليس كثيرا على عربى مثقف موهوب كالخليل أن يدع فى دراسة ما يتناوله من موضوعات ، وأن يتوب بالتناجح الباهرة كما فعل فى العروض واللغة والنحو •

فالخليل متأثر قبل كل شىء بالعقلية البصرية ، وهى عقلية لم تكن عربية خالصة ، بل كانت ملحقة بعقليات أجنبية شهدتها البصرة منذ تمصيرها وتتابع الهجرات إليها •

أما الظن بمعرفة الخليل اليونانية وتأثره بها كما سبقت الإشارة إليه فمصدره هذا الاتجاه الذى وجّه هو النحو اليه ، وهذا المنهج الذى امتازت به دراسة العربية فى عهده ، وهذا الميل الى القياس والتعليل فى تنظيم دراسة النحو واستخراج أصوله وقواعده •

وليس فى هذا دلالة مقنعة ، لأن الخليل كان قد سبق بفكرة عامة عن القياس ، وكان قد عاصر مدرسة الفقه القياسية التى نشأت فى الكوفة ، وقد سارت كلتا المدرستين القياسيتين فى خطوات طبيعية ، وفى كل منهما نشأ القياس فطريا أوليا دعت اليه ظروف ملحّة وفى كل منهما ظهر أناس تناولوا هذا القياس الفطرى ، وأخذوا ينظمونه تنظيما علميا •

نشأ القياس الفقهى منذ العصر الاسلامى الأول عند جماعة من الصحابة والتابعين ، وظهر من بعدهم فقهاء يفتون بالرأى كمحمد بن أبى ليلى الذى

يقول فيه ابن النديم انه «كان يفتى بالرأى قبل أبي حنيفة» (١٣) ، ثم جاء أبو حنيفة وتلميذاه محمد بن الحسن وأبو يوسف فنحوا بالقياس نحوا علميا •

ونشأ القياس النحوى عند جماعة من النحويين عاشوا قبل الخليل ، وقبل أن يعرف الدارسون ماترجم من منطق أرسطو وعلوم اليونان الأخرى بزمن طويل • منهم عبدالله بن أبي اسحاق الذى قال عنه المؤرخون : «انه كان شديد التجريد للقياس» (١٤) ، «وأنه كان أول من بعج النحو ومد القياس والعلل» (١٥) ، ثم جاء الخليل بن أحمد فتحا بالقياس نحوا علميا امتازت به المدرسة البصرية ، وأصبح فيها أصلا من أصولها العلمية فيما بعد • ولم يتأثر الدارسون بمنطق اليونان تأثرا مباشرا فيما نرى الا بعد أن عرف فى البيئات العلمية ، وأقبل الدارسون على دراسته ، وكان النحويون من بين هؤلاء الذين درسوه ، وتأثروا به فظهرت آثاره فى مؤلفاتهم •

وإذا وازنت بين كثير من مؤلفات النحاة الذين أدركوا عصر الترجمة - وشرح أبى سعيد السيرافى لكتاب سيبويه فى مقدمة هذه الأمثلة - وبين نحو الخليل الممثل فى كتاب سيبويه ، وجدت بين الطريقتين فروقا وفروقا هى ما بين الطريقة العلمية والطريقة الفنية ، فطريقة الخليل لغوية ونحوه يغلب عليه الحس اللغوى ، وينبى على دعائم قوية من التدقيق للأساليب العربية ، بالرغم من محاولاته لاختضاع النحو لقوانين العلم وأحكام العقل •

وطريقة المتأخرين علمية ، ونحوهم نحو مفلسف قد عنوا فيه بالجانب اللفظى وعنوا بالعلل العقلية ، وقالوا بالعلل الثوانى والثالث ، وراحوا

(١٣) فهرست ابن النديم

(١٤) نزهة الالباء ص ٢٢ •

(١٥) طبقات الشعراء لابن سلام ص ١١ •

يمعنون في استخراج الصور والوجوه الاعرابية ، مهملين جانب القصد والمعنى
• مما تجاوز بالنحو حدوده الطبيعية •

فكل ما يقال عن تأثير النحو في عهد الخليل بمنطق أرسطو تأثيرا مباشرا
في المنهج والموضوع كما يقول الدكتور مذكور ايفال في الحدس وتمسك
• بأهداب الفروض •



الفصل الثالث

نحو الخليل

حين ندرس النحو هنا ندرسه بمعناه العام كما كان الخليل يفهمه ، وكما كان النحاة في عهده يفهمونه • لست أقصد منه الى هذا المفهوم الضيق الخاص الذي عرف بعد الخليل بزمن ، والذي يقتصر على دراسة أحوال الكلمات من حيث اعرابها وبنائها ، فلم تتميز هذه الدراسة عن مجموعة الدراسات العربية الا بعد حين ، ولكنني أقصد الى هذه الدراسة العامة التي تتناول الكلمات أصولا وبناء وحرركات فتشمل دراسة الحروف أو الأصوات اللغوية مفردة ومركبة ، ودراسة الكلمات بناء واشتقاقا ، ودراستها بناء و اعرابا •

أو بعبارة أخرى لعلها أوفى بما نريد الى التعبير عنه : تشمل دراسة الكلمة مفردة لفهم بنائها العام في العربية ، ودراستها في الجملة لفهم دلالتها على معنى من المعاني التي أراد العرب الى التعبير عنها •

لقد خطا الخليل بهذه الدراسة خطوات واسعة ، وتعجل تكوينها في زمن تقتضى ظواهر الأشياء أن تتأخر عنه ، واختصر المسافة والزمن اللذين ينبغي أن تقطعهما لكي تصل الى المستوى الذي وصلت اليه ، وتوصل من ذلك الى نتائج باهرة حقا تدعو الى كثير من الاعجاب •

وبهذا الاعتبار ، وبما توصل اليه ، وما وضعه من قواعد ومصطلحات يمكن أن نعدده الواضع الأول للنحو بوصفه علما منظما له أصوله وقواعده ، وان سبقه الى الكلام في بعض أبوابه ومسائله علماء راحوا يفكرون في هذا الأفق العلمي الجديد ، منذ أن احتاجت الحياة الى تنظيم النشاط اللغوي ،

وبذل جهد دراسي فيه ، ومنذ أن توجت هذه الجهود بعمل أبي الاسود الدؤلي
المعروف •

ولكن آراءهم فيما بحثوا فيه من مسائل لا تتعدى في الغالب أن تكون
خطرات جزئية لم تنتظم مسائل النحو كما انتظمتها أعمال الخليل •
وسوف أسجل من هذه النتائج ما يؤيد قولي ، وسأعرض للموازنة بينها
وبين ما توصل اليه الباحثون المحدثون ، وسأعرضها عرضا لا يتجاوز كونه
وصفا لها ، فإن وافقت أعمال المحدثين والآل فقد بذل الخليل أقصى ما يستطيع
في سبيلها •

بعض هذه الأعمال التي كان للخليل فيها نشاط ملحوظ قد سبق الى
أصوله ، وبعضها كان هو البادى به والواضع لأسسه •

ومن هذه الأعمال التي لم يسبق اليها ، وكان هو البادى بها والمتفطن
لها دراسة الأصوات اللغوية ، وقد جاءت التفاتته اليها يوم أن فكر في دراسة
اللغة دراسة مبنية على التفقه فيها ، وعلى ادراك الحسن اللغوى عند العرب •

مذهب الخليل في اللغة

لو كان أثر الاختلاط مقصورا على اللحن لهان الأمر وخف العبء على المهتمين بأمر القرآن واللغة ، لأنهم فعلوا في سبيل ذلك ما استطاعوا أن يفعلوه مما يكفل لهم التغلب على اللحن ، فقد تقطوا الحروف اعرابا واعجابا ، ووضعوا علامات أخرى للادغام والهمز والتشديد ، وغيروا بين علامات الاعراب وعلامات الاعجاب ، لئلا يلتبس الأمر على القارئين • ولكنه تجاوز ذلك الى بناء الكلم أيضا ، فقد أدخلت العناصر الأجنبية معها كثيرا من ألفاظها ، وشاعت هذه الألفاظ ، وصقلها الاستعمال ، وغير شيئا من صيغها ، وحرف شيئا من أصولها حتى كادت تخفى ملامحها الأصلية ، ولذلك أصبح العبء على الباحثين ثقيلًا واضطروهم ذلك الى التفكير في الوسائل التي تكفل لهم سلامة اللغة ، فراحوا يجمعونها من مصادرها الصحيحة ، واستعانوا بالرواية حتى راجت سوقها ، وكثر الرواة ، وأصبحت الرواية وسيلة من وسائل كسب العيش ، وعمد كثير من الرواة الى الكذب والوضع ، وكان هؤلاء يجدون رواجًا عند كثير من العلماء الذين لم يتفقهوا في اللغة ، وتبها اللغويون الى ذلك ، وأدركوا أنه ليس كل العرب ممن يصح الأخذ عنه ، فمن العرب من تأثر بالأجانب كثيرا لمجاورته اياهم فلا ينبغي الأخذ عنه ، وانما يجب أن تؤخذ اللغة عن من لم تشب لغتهم شائبة من عجمة ، وان تأثروا بالأجانب فليس تأثرهم بهم مباشرة •

أخذ اللغويون والأدباء يتبعون كلام العرب ، ويرصدون استعمال ألفاظهم في ثنايا الكلام من الشعر ، وأفواه الفصحاء من العرب بالتجوال في البوادي حينًا ، وبالارتباط بمن يقصد الى الأمصار من فصحاء الناس وعلمائهم

بالسير والأمثال حيناً آخر ، وقد كانت الأسواق العربية مقصدا للغويين والنحاة ، يجدون فيها ما يتبعون من بضاعة لغوية وأدبية يعودون بها لتقرير أصل أو تعديد قاعدة ، فاجتمع لديهم مجموعات ضخمة من المفردات ، ولكنها لم تكن هي العربية كلها ، لأنهم تصروا الأخذ على جماعة من العرب عدوهم فصحاء وتركوا الأخذ من جماعات أخرى كثيرة ، وبذلك أضاعوا جانباً مهماً من لغة العرب لعلهم لو عنوا به كما عنوا بالجانب الآخر لجنوا للعربية خيراً كثيراً •

والعرب الذين أخذوا عنهم هم : قيس وتميم وأسد وهذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين ، أو بعبارة أخرى أوضح ، هم الذين كانوا يسكنون أواسط بلاد العرب ، والذين هم أكثر توغلاً في البداوة •

ومن العرب الذين لم يأخذوا عنهم : لخم وتغلب لمجاورتهم النبط والفرس ، وأهل مصر واليونان ، وقضاة وغسان وإياد لمجاورتهم أهل الشام ، وأكثرهم كان يقرؤ بالعبرانية أو بالسريانية ، وأزد عمان وعبد القيس لمخالطتهم تجار الهند •

وربما رجعوا إلى ناس غير عرب ممن صحت سلاتهم ، كما رجعوا إلى خلف الأحمر والحسن البصرى وموسى بن سياه الأسوارى وغيرهم •

ومهما يكن من أمر فإن اللغويين ورواة الأدب بذلوا جهداً كبيراً في جمع اللغة ورصدها في مظانها ومواطن استعمالها ، وكان عملهم يستدعى من الباحثين إعجاباً كبيراً ، وكانوا قد جمعوا من هذا الفصح مجموعات كبيرة تدل ضخامتها على ما لقيت اللغة من عناية ، وعلى ما كان الرواة عليه من صبر على البحث وطول أناة في الجمع •

وجملة المصادر التي عنوا بالأخذ منها هي :

(١) القرآن الكريم ، وهو أصدق مرجع وأصح مصدر يرجع النحاة إليه في تقنين القوانين واستخراج الأصول •

(٢) الشعر العربي الجاهلي والاسلامي ، وقد استشهدوا بشعر جرير والفرزدق والعجاج ورؤبة وأبي النجم ، وعنوا ببشار بن برد وأبي نواس فاستشهدوا بشعرهما (١) •

ويذهب السيوطي - مستندا الى ما رواه ثعلب عن الأصمعي - الى أن ابراهيم بن هرمة (ولد سنة تسعين للهجرة وعمّر طويلا حتى اجتاز منتصف القرن الثاني) آخر الحجج (٢) ، فهم يستشهدون على وجه التقريب بأشعار المحدين الذين عاشوا حتى منتصف القرن الثاني للهجرة •

(٣) الفصحاء من العرب وهم سكان البادية الذين بعدوا عن التأثير بلغات أجنبية ، وقد مرّ علينا أسماء القبائل التي ينتمون اليها ، والفصحاء من غير العرب ممن صحت سلاتقهم واطمأنّ العلماء الى قوة ملكاتهم كالحسن البصرى وموسى بن سياه الأسوارى وغيرهما •

(٤) الأمثال وهى النموذج النثرى الوحيد الذى اطمأن العلماء اليه فى صحة الاستشهاد به •

أما الحديث فلم يجوز للغويون والنحاة الأولون كأبى عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر والحليل بن أحمد وسيبويه من البصريين ، وكالكسائى والفرّاء وغيرهما من الكوفيين الاستشهاد به ، وتقفاهم المتأخرون من نحاة بغداد والأندلس اللهم الا جماعة من النحاة المتأخرين فى مقدمتهم ابن مالك (٣) •

-
- (١) خزانة الادب لعبدالقادر البغدادي ج ١ ص ٢٠ (المطبعة السلفية) •
(٢) الاقتراح للسيوطي ص ٢٧ «طبعة حيدر آباد» •
(٣) الاقتراح للسيوطي ص ١٧ «طبعة حيدر آباد» ، مقدمة خزانة الادب للبغدادي ص ٢٣ •

وحجة المانعين من الاستشهاد بالحديث أن أكثر الأحاديث لم تنقل كما سمعت ، وانما رويت بالمعنى ، وكان سفيان الثوري يقول : «ان قلت لكم انى أحدثكم كما سمعت فلا تصدقونى انما هو المعنى» (٤) • وأن كثيرا من رواته ناس ليسوا بعرب ، وهؤلاء لم يتكلموا العربية عن طبع ، وانما كانوا يتكلمونها عن تعلم ، فلم يستبعد وقوع اللحن فيما يروون ، بل وقع اللحن فى كلامهم وفيما يروون فعلا ، وان لم يكونوا قاصدين •

وكان نحة البصرة بعد استقراءاتهم الطويلة لكلام العرب ، واستخراجهم القواعد والأصول قد اطمأنوا الى صحة ما استقرءوا واعتدوا بالقواعد التى استنبطوها ، حتى أصبحت هذه القواعد عندهم مقاييس مفروغا من صحتها ، فاذا ما اعترضتهم المسائل التى تخالف أصولهم تأولوها حتى يدخلوها فى عموم الأصول ، بينما نجد الكوفيين لا يتلددون ولا يترددون فى القياس على الشاذ حتى انهم «لو سمعوا بيتا واحدا فيه جواز شىء مخالف للأصول جعلوه أصلا وتبوا عليه» (د) •

وبلغ من اعتداد البصريين بأصولهم أن غلطوا قراءات صح سندها ، كما فعلوا مع حمزة فى قراءته : «واتقوا الله الذى تساءلون به والارحام» (يكسر الميم) ، فقد خطأ نحة البصرة هذه القراءة ، لأنه لا يعطف عندهم ظاهر على ضمير مجرور الاّ باعادة الجار ، كما هو مذهب الخليل وسيبويه ، وعندهما أنه لا يجوز ذلك فى النثر ، وقد يجوز فى الشعر «أن تشرك بين الظاهر والمضمر على المرفوع والمجرور اذا اضطر الشاعر» ، وأورد سيبويه شاهدا على اضطرار الشاعر الى ترك اعادة المجرور بقول الشاعر :

فاليوم قربت تهجونا وتشتمنا فاذهب فما بك والأيام من عجب (٦)

(٤) المصدر السابق •

(٥) الاقتراح ص ٨٤ •

(٦) الكتاب ج ١ ص ٣٩١ ••• الانصاف فى مسائل الخلاف مسألة (٦٥) •

وأن غلطوا ابن عامر مقرئ أهل الشام في قراءته قوله تعالى : وكذلك
زين لكثير من المشركين قتل اولادهم شركائهم • وحجتهم في هذا أن
قواعدهم لاتجيز الفصل بين المضاف والمضاف اليه بالمفعول في غير ضرورة
الشعر (٧) •

وتخصه هذين القارئين وغيرهما ، ورهيهما بالجهل بأصول العربية
مظهر من مظاهر النزاع بين منهج المحدثين الذين يهتمهم صحة السند دون
التفات الى ما يحمله ، وبين منهج علماء العربية القائم على نقد المروى بقطع
النظر عن السند •

فلما اجتمع للغويين والنحاة تلك المجموعات الضخمة من المرويات في
اللغة والشعر والأمثال اتجهت عنايتهم الى تدوين ماسمعوا وما رووا لحفظه
من الضياع ، ولم يهتموا بترتيبه وتصنيفه ، فكانوا يضعون الغريب الى جانب
الشعر ، والنادرة الى جانب المثل ، فاذا تم لهم ما أرادوا اتجهت عنايتهم الى
التأليف ، وقد خطا التأليف خطوانه الأولى بالأمالى • كان الشيوخ يملون
والتلاميذ يكتبون دون أن يعنى الشيوخ بتصنيف ما يملون ، وانا لنجد هذا
مثلا في مجالس ثعلب «وهي مجالسات أملاها على أصحابه في مجالسة
تحتوى على قطعة من النحو واللغة والأخبار ومعانى القرآن والشعر مما سمع
وتكلم عليه» (٨) •

ثم جاءت الخطوة التالية وهي تهدف الى تصنيف هذه المجموعات
الضخمة من المرويات بحسب مالها من معان مشتركة أو بحسب مالها من
موضوعات ، وألفت الرسائل في ذلك ، كالتى تنسب لأبى زيد الانصارى وأبى
عبدة والاصمعي •

(٧) الانصاف ج ١ ص ٢٥٢ •

(٨) فهرست ابن النديم ص ١١١ •

وهاتان الخطوتان الأوليان قد تتمشيان مع جميع الثقافات الأدبية

واللغوية •

ثم جاء الخليل بن أحمد ، فأراد أن يدرس اللغة لاعلى أساس الجمع
كيفما اتفق ، ولا على أساس تصنيف المسائل بحسب المعاني ، وإنما أراد أن
يدرسها على أساس من فقه اللغة ، وعلى أساس علمي • والنظر العلمي لازمة
من لوازم الخليل الفكرية طغت على تفكيره وبحوثه ودراساته ، سواء أكان
ذلك مما يتصل باللغة أم مما يتصل بالنحو •

وأول ما فعل لتحقيق هذا الغرض أن أخذ يدرس الحروف ، ويتذوقها ،
ويستخرج خصائصها وصفاتها ، لأنه رأى أن دراسة الحروف على هذه الصورة
هي الدراسة الأولى التي يتوصل منها الى فقه اللغة وفهم بنائها ، فلا بد أن يبدأ
بها ، فليست الكلمات الا مجموعات من الأصوات ، ولكل صوت منها رمز دال
عليه ، فليرجع اذن الى هذه الأصول التي تتكون منها الكلمات ، وينظر فيها ،
ويدرس خصائصها ، وعلاقة بعضها ببعض ، ليتاح له أن يتوب بنتائج لها قيمة
علمية ، وأحكام واقعية طبيعية ، وهكذا فعل •

وقد أدرك أن الحروف التي تتكون منها الكلمات أصوات ليس لها مكان
الا الفم من الحنجرة الى الشفتين ، فأراد أن يحدد مواضع هذه الأصوات
من الفم وأن يرجع كل صوت من هذه الأصوات المسموعة في أثناء الكلام
الى موضعه الخاص ويحدد مواضعها التي سماها مخارج استطاع أن يرتب
الحروف ترتيبا جديدا ، وكان هذا بداية الكلام في أصول علم جديد لم يسبق
الخليل اليه ، وهو علم الأصوات •

(٢)

نشأة اللغة

بين العلماء منذ القديم خلاف في نشأة اللغة ، فهل هي بوحى ؟ وهل هي باصطلاح ؟ وهل هي ظاهرة اجتماعية نشأت أول أمرها بمحاكاة الانسان أصوات بنى الانسان وأصوات الحيوانات وأصوات الأشياء ؟ ذهب الى كل رأى منها فريق •

ولعل أقدم هذه الآراء هو الأول القائل بان اللغة موحاة الى آدم ، وآدم هو الواضع الأول للغات جميعا ، وضع أسماء جميع المخلوقات من انسان وحيوان وجماد ، أو وضع أسماء ما كان وما يكون الى يوم القيامة ، أو وضع أسماء النجوم فقط أو أسماء الملائكة فقط •

وقد جاء في التوراة : «وجبل الرب الاله من الأرض كل حيوانات البرية وكل طيور السماء فأحضرها الى آدم ، ليرى ماذا يدعوها ، وكل ما دعا به آدم ذات نفس حية فهو اسمها ، فدعا آدم بأسماء جميع البهائم وطيور السماء وجميع حيوانات البرية» (١) •

ثم شاع هذا الرأى عند العرب فقال به من الفقهاء والمحدثين عبدالله ابن عباس ومجاهد وقتادة والربيع بن خثيم ، واستند القائلون بهذا الى قوله تعالى : وعلم آدم الأسماء كلها • (٢)

قال ابن عباس فى تفسير هذه الآية : «علمه الأسماء كلها وهى هذه

(١) سفر التكوين - الاصحاح الثانى •

(٢) البحر المحيط ج١ ص ١٤٥ ، تفسير الطبرى ج ، ص ١٧٠ ، روح المعانى للالوسى ج ١ ص ١٤٥ •

التي يتعارفها الناس من دابة وسهل وجبل وحمار وأشباه ذلك من الأمم
وغيرها» (٣) • وكان معروفًا عن ابن عباس أنه كان يعنى بالاسرائيليات ، ولعله
اعتمد في تفسير هذه الآية على ما جاء في التوراة مما أثبتناه ، فبين ما جاء في
سفر التكوين وما جاء عنه تشابه واضح يؤيد اعتماده على التوراة في تفسير
هذه الآية •

وقال به من المتكلمين الأشعري وأصحابه مستدلين على أن الواضع
للغات كلها هو الله تعالى بقوله عز وجل : «وعلم آدم الأسماء كلها» (٣) •
وقال به من الأصوليين ناس كثيرون ، منهم ابن الحاجب في كتابه
«منتهى الوصول الى علم الأصول» •

وتناول اللغويون هذه النظرية ، فمال إليها فريق منهم ، وكان أبو علي
الفارسي يقول : هي من عند الله محتجا بقوله تعالى : «وعلم آدم الأسماء
كلها» (٤) •

وكان ابن فارس يذهب الى هذا أيضا ويقول : «ان لغة العرب توقيف
ودليل ذلك قوله جل ثناؤه : «وعلم آدم الأسماء كلها» (٥) • وكان ابن جنى
في أحد رأيه يميل الى هذا أيضا • (٦)



أما الرأي الثانى فهو القائل بأن الواضع هو البشر ، وأختلف أصحاب
هذا الرأي ، فمنهم من ذهب الى أنه آدم وغيره ، وهم المعتزلة ، ويسمى مذهبهم
مذهب الاصطلاح ، ومنهم من ذهب الى أن الواضع جماعة من الحكماء

(٣) منتهى الوصول الى علم الاصول لابن الحاجب ص ٢٠ • روح المعاني
ج ١ ص ١٨٨ •

(٤) الخصائص لابن جنى ج ١ ص ٣٩ •

(٥) الصحاح لابن فارس ص ٥ •

(٦) الخصائص ج ١ ص ٤٥ •

استعانوا على وضع اللغة بالإشارة إلى المسميات وتكرارها كما يفعل المربون في تلقين الأطفال « كأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعدا ، فيحتاجوا إلى الإبانة عن الأشياء المعلومات ، فيضعوا لكل واحد سمة ولفظا إذا ذكر عرف به ما مسماه ، ليمتاز من غيره ، وليغنى بذكره عن احضاره إلى مرآة العين ، فيكون ذلك أقرب وأخف وأسهل من تكلف احضاره لبلوغ الغرض في ابانته حاله ، بل قد يحتاج في كثير من الأحوال إلى ذكر ما لا يمكن احضاره ، ولا ادناؤه ، كالفاني وحال اجتماع الضدين على المحل الواحد كيف يكون ذلك لو جاز ، وغير هذا مما هو جار في الاستحالة والبعد مجراه ، فكأنهم جاءوا إلى واحد من بنى آدم فأومئوا إليه وقالوا : انسان انسان انسان ، فأى وقت سمع هذا اللفظ علم أن المراد به هذا الضرب من المخلوق » (٧) .

أما الرأي الثالث فهو القائل بأن اللغة ليس لها واضع ، وانما هي ظاهرة اجتماعية ، أوجدتها المجتمعات الإنسانية يوم احتك الإنسان بأخيه الإنسان ، وشعر بالحاجة إلى التعبير عما في نفسه ، وإلى التفاهم مع أخيه الإنسان ، وقد نشأت أول أمرها من محاولة الإنسان حكاية الأصوات الطبيعية ، وخضعت هذه الظاهرة للتطور شأن كل ظاهرة اجتماعية ، وهو أقرب الآراء من المعقول (٨) .

ولا يعني هذا الرأي أن اللغة كلها محاكاة للطبيعة ، ولكنه يعني أنها نشأت أول أمرها بمحاكاتها ، ثم سارت في طريق الرقي ، حتى تباعد ما بين مدلولاتها الحسية الأولى ومدلولاتها المعنوية التي آلت إليها ، ولكل كلمة من الكلمات تاريخ طويل معقد ، نشأت فيه أول الأمر حسية ساذجة ، ثم أخذت

(٧) الخصائص ج ١ ص ٤٢ .

(٨) منهج البحث في الأدب واللغة لانطوان مايبه ، لانسون ص ٦٢ «ترجمة الدكتور مندور» نشأة اللغة عند الإنسان والطفل للدكتور علي عبدالواحد وافى ص ٣١ فما بعدها .

تتطور وتتعد بالتدرج ، تحف بها أجواء مختلفة من مزاج شخصي خاص
وآخر اجتماعي عام ، ومن عادات اجتماعية وعادات فكرية ، حتى وصلت الى
ما وصلت اليه ، ولا تزال سائرة في طريق التقدم والتطور •

وقد لمح القدماء هذا الرأي لمحا ، وكان ابن جنى يتحدث عن هذا الرأي
تحدثه عن رأى قديم ، فهو اذن أقدم عهدا من عهد ابن جنى ، فقد قال :
«ذهب بعضهم الى أن أصل اللغات كلها انما هو من الأصوات المسموعات
كدوى الريح وحين الرعد ، وخرير الماء وشحيج الحمار ونعيق الغراب
وصهيل الفرس ونزيب الطيبي ونحو ذلك ، ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما
بعد» (٩) • ومال ابن جنى الى هذا الرأي ايضا وان لم تقو حجته عنده
كما كان يقول •

وكان الخليل يميل الى هذا الرأي ، وقد وردت عنه اشارات تؤيد ميله
اليه ، سنعرض لها حين نعرض لدلالة اللفظ على المعنى ، وأستطيع أن أقول
مطمئنا انه هو صاحب هذا الرأي بين علماء العربية ، لأنى لم أقف لغيره ممن
سبقه على كلام فيه ، ولست أزعم أن للخليل فى هذا نظرية تامة التكوين ،
ولكنى أزعم أنها كانت ماثلة فى ذهنه فكرة لم يتم لها النضج بعد •

كان الخليل فيما نرى متمثلا لهذه الفكرة حقا ، مستندين فى ذلك الى
ما سنورده من أمثلة ، والى اعتداده بالاستعمال وأثره فى كثير من الأبنية
والصيغ والتعابير العربية ، فان الذى يذهب الى أن اللغة توقيف أو أنها موحاة
الى آدم ، الى غير ذلك من الآراء ، لا يؤمن بالاستعمال ، ولا يعتقد بالتطور
العامل فى القضايا الطبيعية والاجتماعية •

(٩) الخصائص لابن جنى ج ١ ص ٤٥ •

(٣)

دلالة اللفظ على المعنى

واستتبع الخلاف في نشأة اللغة خلافا في دلالة اللفظ على المعنى ، فهل هذه الدلالة طبيعية أو غير طبيعية ؟ فمن قال بوجود واضح معين ذهب الى أنه ليس بين اللفظ والمعنى مناسبة طبيعية ، لأن المناسبة بينهما انما تحققت بوضع الواضع هذا اللفظ لهذا المعنى • ومن هؤلاء ابن الحاجب فقد صرح : «بأنه ليس بين اللفظ ومدلوله مناسبة طبيعية» (١) •

ومن قال ان اللغة ظاهرة اجتماعية نشأت أول أمرها بمحاكاة الانسان لأصوات الطبيعة ، ذهب الى أن المناسبة بين اللفظ والمعنى طبيعية ، لأن اللفظ انما هو تعبير طبيعي لما سمعه الانسان من أصوات الآدميين والحيوانات والأشياء •

وإذا تأملنا أقوال الخليل عرفنا أنه كان ممن يذهب الى وجود العلاقة الطبيعية بين اللفظ ومدلوله • قال الخليل : «صرّ الجندب صريرا ، وصرصر الأخطب صرصرة ، كأنهم توهّموا في صوت الجندب مدّا ، وتوهّموا في صوت الأخطب ترجيعا» (٢) ، أو قال : «كأنهم توهّموا في صوت الجندب استطالة ومدّا ، وتوهّموا في صوت البازي تقطيعا ، فقالوا صرصر» (٣) • وقال ايضا : «يقولون صلّ اللجام ، تمدّ اللام وتقلها ، وقد خففتها من الصلصلة ، وهما جميعا صوت اللجام ، فالتثقيل مدّ والتضعيف ترجيع» (٤) •

- (١) منتهى الوصول الى علم الاصول لابن الحاجب ص ١٩ •
- (٢) التهذيب للازهري ج ١ ص ٢٢ «مخطوطة رقمها (٩ لغة) في دار الكتب»
- (٣) الخصائص ، ج ١ ص ٥٤٤ •
- (٤) التهذيب للازهري ج ١ ص ٢٢ •

فقد أدرك الخليل أن الاختلاف بين اللفظين الدال أحدهما على صوت الجندب والدال ثانيهما على صوت البازي يرجع الى الاختلاف بين طبيعة الصوتين ، وليس هذا الصوت الممتد في (صر) الا استشعارا بما في صوت الجندب من امتداد ، ولذلك حين لاحظوا التقطيع في صوت البازي جاءوا باللفظ الدال عليه وفيه تقطيع ، وهذا التقطيع ممثل في هذا اللفظ المرجع المكون من مقطعين وهما صرّ صرّ .

وتتمثل هذه الدلالة الطبيعية :

(١) باجتماع جملة من الأصوات قصد بها الى محاكاة الطبيعة كالتفهيم والغمغمة والزفير والشهيق والشخير من أصوات الاسنان ، والصهيل والشحيج والزئير والهدير والطين والزققة والمواء والعواء والرغاء من أصوات الحيوان ، والحرير والهزيم والصرير وغيرها من أصوات الأشياء .

ومن هذا دلالة مازاد على البناء على مازاد على المعنى ، وقد أشار الخليل اليه حين عرض للفرق بين ما تؤديه النونان الثقيلة والحفيفة ، وهاتان النونان عنده تدلان على التوكيد ، الا أن الفرق بينهما في الشدة التي نراها في التوكيد بالثقيلة ، وقد عرضت لها الشدة تبعاً لتضعيف النون .

قال الخليل : «انهما للتوكيد كما التي تكون فصلا ، فاذا جئت بالحفيفة فأت مؤكداً ، واذا جئت بالثقيلة فأت أشد توكيداً» (٥) .

(٢) وباجتماع حركات على صورة معينة ، وللحركات عند الخليل أثر كبير في حياة اللفظ ، فأصل البناء عنده هو الصوت الساكن ، وهو ساكن

(٥) الكتاب ج ١ ص ١٤٩ .

لا يمكن النطق به ، ولا يدل على معنى من المعانى ، واذا أريد النطق
والدلالة على المعنى استعين بهذه الحركات •

ومهما يكن من أمر فطائفة المصادر التى تأتى على فعّالان مما توالى فيه
الحركات اذا أنعمت النظر فيها وجدت فى معانيها حركة واضطرابا
وتقلبا ، فلم يقولوا : غَلَيان ودَوْران وجَوْلان وطَوْفان الا حيث يكون
التقلب والتحرك والاضطراب •

وقد نسب ابن جنى هذا الى سيبويه ، فقال : «قال سيبويه فى المصادر
التي جاءت على الفعّالان انها تأتى للاضطراب والحركة ، نحو النَّقْران
والغَلَيان والغَثَيان ، فقابلوا بتوالى حركات المشال توالى حركات
الأفعال» (٦) •

والحق أن الخليل هو المصدر الذى صدر عنه سيبويه فى تقرير هذا
ونحوه ، وسيبويه نفسه يؤيدنا فى هذا ، فانه بعد أن ذكر فى كتابه ما جاء
على فعّالان ، وما جاء على فعيل قال : «وهكذا مأخذ الخليل» (٧) •

والحق أيضا أن الخليل هو رئيس المدارس التى عنيت بمثل هذه
الدراسات اللغوية الفقهية ، كمدرسة أبى على الفارسى وتلميذه ابن جنى ، ومدرسة
الحاتمى وتلميذه السكاكى ، وهو الذى مهّد لها السبيل لدراسة اللغة على
أساس هذا المبدأ اللغوى الطبيعى ، ولا نغنى أنه تكلم فى كل ما عرض له
هؤلاء ، ولكننا نغنى أنه شق الطريق لهم فتمهدوا السير فيه من بعده ، فقد
حذا سيبويه حذوه ، ووصل الى أشياء جديدة أثبتتها فى كتابه فى الأبواب
التي عقدها للمصادر ، ولكنها لاتعدى أن تكون فروعاً وجزئيات تتصل
بالمبدأ العام الذى قرره الخليل •

(٦) الخصائص لابن جنى ج ١ ص ٥٤٤ •

(٧) الكتاب ج ٢ ص ٢١٨ •

وجاء ابن جنى فعقد في الخصائص بابا في امساس الألفاظ لأشباه المعاني،
ذكر فيه أن الذي نبت الأذهان اليه هو الخليل بن أحمد ، وذكر فيه قولاً
للخليل وقولاً لسيبويه ، ثم قال : « ووجدت أنا من هذا الحديث أشياء كثيرة
على سمت ما حذياه ومنهاج ما مثلاه » (٨) •

وهو باب طويل ذكر فيه ما وصل اليه من مسائل تدخل في هذا الأصل
العام ، ومن هذه المسائل ما لم أعثر للخليل ولا سيبويه على رأى فيه ، من نحو
ما التفت اليه من فرق بين «خضم» و «قضم» من أن «الخضم لأكل الرطب
كالبطيخ والقثاء ، وما كان نحوهما من المأكول الرطب ، والقضم للصلب
اليابس نحو قضمت الدابة شعيرها ، ونحو ذلك» وعلل ذلك بقوله : «فاختاروا
الخاء لرخاوتها للرطب ، والقاف لصلابتها لليابس حذوا لمسموع الأصوات
على محسوس الأحداث» (٩) •

وليس الخضم والقضم وأمثالهما الا ألفاظا قصد بها الى محاكاة الصوت
الذي يحدث من قطع الأجسام ، وما دامت المناسبة بين اللفظ والمعنى طبيعية ،
كما يذهب الخليل اليه ، فان المتكلمين بهذه الأصوات وأمثالها كانوا يلاحظون
ما يسمعون من أصوات حين يقطعون الرخو والصلب ، وكانوا يقصدون الى
محاكاة ما يسمعون ، وكانوا لهذا يستعملون الأصوات القوية بمالها من خفاء
وظهور للتعبير عما يسمعون ، فجاءت الخاء وهي صوت خفي رخو للخفي من
الأصوات الطبيعية المسموعة من قطع الأجسام الرطبة ، وجاءت القاف وهي
صوت شديد صلب للشديد من الأصوات المسموعة من قطع الأجسام الصلبة •

(٨) الخصائص ج ١ ص ٥٤٤ •

(٩) الخصائص ج ١ ص ٥٤٩ ، ٥٥٠ •

(٤)

الاشتقاق

ويتصل بالنظرية القائلة بوجود المناسبة بين اللفظ والمعنى هذه الظاهرة اللغوية التي سماها فقهاء اللغة بالاشتقاق •

والاشتقاق عندهم ثلاثة أنواع : صغير وكبير وأكبر •

أما الاشتقاق الصغير فيتحقق بأخذ بناء من بناء آخر مع المحافظة على أصل المادة وترتيبها ، وعلى المعنى المستفاد منها ، كاشتقاق ضرب ويضرب وضارب ومضروب من مادة (ض ر ب) ، وكلها يشترك في تضمنه الضاد والراء والباء مرتبة كما هي في المصدر ، وفي المعنى الذي تدل عليه هذه الحروف مجتمعة •

وأما الاشتقاق الكبير فهو أخذ بناء من بناء مع المحافظة على المعنى ، ولا يشترط فيه الترتيب الذي هو في المادة التي افترض أنها الأصل ، كاشتقاق رضب وبرض وربض وضبر وبضر من مادة (ض ر ب) •

وأما الاشتقاق الأكبر فهو أن تشترك الأبنية في حرفين ، وتختلف في الحرف الثالث ، كفلق وفلع ، وكقطع وقطف ، وكقصم وقصف ، وكلها تفيد معنى القطع • وهو مبني على فكرة أن المعنى العام في الكلمات يتوقف على صوتين فقط ، أما الصوت الثالث المكمل للوحدة اللفظية فوظيفته تقتصر على تخصيص المعنى وتحديد • فالمعنى العام في نحو قصّ وقصم هو الكسر ، والحرف الثالث هو الذي يحدد هذا المعنى ويخصصه ، فالصا الثاني في (قصّ) خصصته بالعنق ، والميم في (قصم) خصصته بالظهر • والمعنى العام في

نحو أخرم وأخرب هو الشق والحرف الثالث يخصّصه ويحدّده ، فالميم
فى (أخرم) خصصته بالأنف ، والباء فى (أخرب) خصصته بالأذن . (١)

وإذا أرخ الاشتقاق فينبغى أن يؤرخ بالخليل وأعماله اللغوية ، فهو
زعيم هذه المدارس التى عرضت للاشتقاق ، بل لم يكن عمل العلماء بعده فى
الغالب الا شرحا لمجمل أقواله ، وتوضيحا لما انبهم منها ، وتكميلا لما فاته منها .
فلاشتقاق الصغير قد وفى الخليل وتلاميذه وطبقته حقه من البحث
والدرس فلم يزد المتأخرون فيه شيئا ، والاشتقاق الكبير من عمل الخليل أيضا ،
وان كان عمله فيه محدودا ، لأنه لم يرم منه الى أن يدرسه ، وانما رمى الى
الاستفادة منه فى حصر اللغة العربية فى تقاليد كلماتها وتصاريفها ، ولم يثبت
من هذه التقاليد الا ما ثبت له استعمال العرب اياه . فاذا كان أبو الفتح ابن
جنى أول من لقبه بهذا الاسم ، كما صرح فى الخصائص ، فان الخليل أول
من التفت اليه ، وشرح طريقته ، وبنى تأليف كتاب العين عليه ، لأن كتاب
العين مؤلف من طوائف ، كل طائفة منها تحتوى على تركيب من التراكيب ،
ووجوه المحتملة المستخرجة منه . ثم جاء ابن جنى ، فحاول اثبات الاطراد
فى اشتراك الصنع والتقاليد فى المعنى المستفاد من المادة التى افترض أنها
الأصل . وكان الخليل قد سبق الى القول بأن الكلمات الثنائية تتصرف على
وجهين ، والثلاثية على ستة أوجه ، والرابعة على أربعة وعشرين وجها ،
والخماسية على مائة وعشرين وجها ، هذا بالاضافة الى أن كثيرا من الكلمات
الثنائية والثلاثية التى أثبتها الخليل فى كتاب العين كانت تشترك تقاليدها فى
معنى واحد فى كثير من المواضع ، كعطّ وطعّ فالعططة تتابع الأصوات

(١) راجع كتاب فقه اللغة للثعالبي ص ١٥٦ فى التفريق بين قص وقصم
وبين أخرم وأخرب وغيرهما .

واختلافها في الحرب ، والطعنة حكاية صوت اللاطع أو الناطع أو المتمطّق
إذا لصق لسانه بالغار الأعلى (٢) .

وكعج وجع ، فمن عج عجعج ، يقال عجعجت بالناقعة عطفتها الى
الشيء ومن جع جعجع . يقال جعجعت الابل حركتها للاناخة (٣) .

وجاء في مادة (قرع) القرع : قطع من السحاب ، الواحدة قرعة . وجاء
في مادة (زق) : الزعاق ماء مرّ غليظ ، ويقال أرض مزعوقة : أصابها
مطر وابل شديد . (٤) ولا يخفى ما بينهما من مناسبة ، الى كثير من الأمثلة
التي نستبعد أن يكون الخليل قد أثبتها ثم لم يلتفت الى ما بين التقاليد من
تقارب في المعنى .

والخليل لم يحاول أن يبعد في التكلف ليؤكد أن هذه التقاليد تشترك
في معنى واحد ، كما فعل ابن جنى متذرعاً باللجوء الى لطف الصنعة والتأويل
في تطبيق هذا المبدأ على الوجوه المختلفة ، فقد قال ابن جنى بعد أن عرض
لمادة (ق و ل) وتصاريفها الستة : «على أنك ان أنعمت النظر ولاطفته وتركت
الضجر وتحاشيته لم تكدم تقدم قرب بعض من بعض ، واذا تأملت ذلك وجدته
بإذن الله» (٥) .

وقال أيضاً عند عرضه للاشتقاق الكبير وعقد التقاليد الستة على
كثير من الأصول : «وان تباعد شيء من ذلك ردّ بلطف الصنعة والتأويل اليه ،
كما يفعل الاشتقاقيون ذلك في التركيب الواحد» (٦) .

لم يحاول الخليل أن يبعد في التكلف لأنه ليس بصدّد توضيح هذه

(٢) الجزء المطبوع من كتاب العين ص ٢٣ طبع بغداد .

(٣) الجزء المطبوع من كتاب العين ص ١٦ طبع بغداد .

(٤) الجزء المطبوع من كتاب العين ص ٥٨ ، ٥٩ طبع بغداد .

(٥) الخصائص لابن جنى ج ١ ص ١١ ، ١٢ .

(٦) الخصائص لابن جنى ج ١ ص ٥٢٦ .

الفكرة وانما هو بصد عمل آخر •

ثم ان للبيئة الفلسفية أثرها في سلوك ابن جنى هذا المسلك الصناعي المتكلف ، لأن الكلمات بتقلبها في الاستعمال قد تباعدت عن أصلها ، وأخذت تحيط نفسها بأجواء جديدة دقت معها العلاقة بينها وبين الأصل الذي انحدرت منه ، فلم يستطع التعرف على الصلة التي تربط المشتق بالمشتق منه الا بعد اعام النظر وارهاف الحس ، وبعد أن تقتضى هذه المحاولة ممن ينهض بها جهودا مضية ، وبعد أن يتعرض لما تعرض له ابن جنى من تعسف وتكلف •

يضاف الى هذا أن اللغة لاتخضع لهذه العمليات الرياضية الدقيقة ، فالوجوه وان كانت بالنظر العقلي صحيحة مضبوطة ، لم تستعمل كلها ، بل أهمل الكثير منها ، كما صرح الخليل ، ولم تسر الكلمات في تاريخها الطويل وتطورها في طريق واحدة ، ولم تتوفر لها ظروف استعمالية متشابهة ، حتى تستطيع الاحتفاظ بمدلولاتها في تاريخها الطويل •

ولعل الخليل قد فطن لهذا حين اعتبر كل وجه من هذه التقلبات الستة في الكلمات الثلاثية أصلا مستقلا ليس متفرعا من أصل مفترض ، حين قال : ان مثل جذب وجبذ ليس فيه قلب ، وانما كل واحد منها على حدة (٧) •

وأما الاشتقاق الأكبر فقد ذكر السكاكي أن الحاتمي هو الذي سمي به النوع القائم على فكرة أن المعنى العام في الكلمات يتوقف على صوتين فقط ، أما الصوت الثالث فهو الذي يحدده ويخصه ، فقد قال السكاكي : «وهنا نوع ثالث من الاشتقاق كان يسميه شيخنا الحاتمي رحمه الله الاشتقاق الأكبر •••• الى أن قال : وانه نوع لم أر احدا من سحرة هذا الفن ، وقليل ما هم حام حوله على وجهه الا هو» (٨) •

(٧) الكتاب ج ٢ ص ٢٨٠ •

(٨) مفتاح العلوم للسكاكي ص ٧ «المطبعة الادبية» •

والحق أن ابن جنى كان قد عرض له حين عقد فى الخصائص
باباً سماه : «تصاقب الألفاظ لتصاقب المعانى» ، وذكر فيه هذا ، ومثل له بنحو
قرء وقرت وجبل وجبن وجبر (٩) ، وذكر فيه غير هذا مما يبنى على الفكرة
التي تبناها ، وهى فكرة أن المناسبة بين اللفظ والمعنى طبيعية ، والتي عبر
عنها بقوله : تصاقب الألفاظ لتصاقب المعانى ، وامسأس الألفاظ أشباه المعانى ،
وقرر فيه اقتراب الأصلين ثلاثياً أحدهما ، ورباعياً صاحبه ، أو رباعياً
أحدهما ، وخماسياً صاحبه ، ومثل له بنحو دَمِث ودِمَثْر ، والضبطى
والضبطرى ، الا أنه لم يضع له الاسم الذى وضعه الحاتمى كما زعم
السكاكى •

ومحاولة ابن جنى والحاتمى والسكاكى وان كانت جديدة فى
الدراسة اللغوية وصادقة فى مواضع كثيرة - لم تبعد عن كونها تكلفاً فى
الاستخراج واغراقاً فى التمثل والتكلف ، ومع ذلك فإنها تستند الى أصل
المبدأ الذى رأينا أن الخليل قرره ، وهو وجود المناسبة الطبيعية بين اللفظ
ومدلوله •

(٩) الخصائص ج ١ ص ٥٣٧ •

الفصل الرابع

الاصوات اللغوية

كانت الحروف الهجائية تسير على النظام الأبجدي الذي عرف عند السريان ، وكان ترتيب الحروف فيه على النحو الآتي : أبجد ، هوز ، حطي ، كلمن ، سعفص ، قرشت ، ثخذ ، ضظغ • ويغلب على الظن أن جمع الحروف في كلمات على هذا النحو كان يهدف الى غاية تعليمية كما كان العلماء يفعلون في جمع أحرف الزيادة في كلمة «سألتمونها» ، والأحرف الشديدة في «أجدت طبقك» ، والحروف القمرية في قولهم : «ابغ حجك وخف عقيم» ، الى غير ذلك •

وتغير هذا النظام في عهد الحجاج على يد نصر بن عاصم ، ورتبت الحروف ترتيبا جديدا اقتضته محاولة اعجامها ، ورتبت على أساس تشابه الأشكال والصور فبدئت بالثلاثيات ، ثم بالثنائيات ثم بالمفردات التي لا أشباه لها ، وتركت الهمزة حيث كانت في النظام القديم ، أعني في بداية الحروف ، لكي تبعد عن الألف اللينة فلا تلتبس بها • وأعني بالألف اللينة التي لاتأتي الا ساكنة ، والتي يتوصل الى النطق بها بواسطة حرف يلحق بها قبلها ، وهي التي يعبر عنها في طائفة الحروف بـ (لا) وليس المقصود من (لا) حرفا مكونا من لام وألف ، وانما المقصود منها هو الألف اللينة ، وجيء باللام للتوصل بها الى النطق بالألف^(١) ، وأصبح ترتيب الحروف على النحو الآتي : أ ب ت ث ج ح خ د ذ الخ • وظل الناس يسرون على هذا الى عهد الخليل •

(١) سر صناعة الاعراب لابن جنى - باب أسماء الحروف • «مخطوطة في مكتبة الاستاذ ابراهيم مصطفى» •

فلما أراد الخليل أن يضع معجما يتضمن كلام العرب رتبته بحسب الحروف وبدأ عمله بتدقيقها ، والنظر فيها ، فهداه هذا الى ترتيب جديد لم يشأ فيه أن يجعل الهمزة أو الحروف كما كان شأنها في الترتيب الأبجدي القديم وفي ترتيب نصر بن عاصم ، لأنها في نظره معتلة لا يصح الاعتماد عليها ، ولأنها مهتوة مضغوطة اذا رفته عنها لانت فتحولت الى ياء أو واو أو ألف (٢) . ولافت وجهة نظره في الهمزة قبولا عند بعض أئمة النحو ، فعلا أبو العباس ، فأسقطها من الحروف وعدّها ثمانية وعشرين حرفا لاسعة وعشرين (٣) .

فلما فاتته الاعتماد على الهمزة لم يتبدىء بالياء لأنها ليست أول الحروف ، فكيف يبدأ اذن ؟ وأي الحروف عنده يصح الابتداء به ؟

فكر الخليل في أن يرتبها ترتيبا جديدا لا يقوم على النظام الأبجدي ، ولا يبنى على أساس التشابه في الصورة ، لأن ترتيبها الأبجدي مضطرب لم يبن في نظره على أساس معقول ، وترتيبها بحسب الصورة دعت اليه حاجة عارضة هي محاولة نقطها ، وكلا الترتيبين مبني على التحكم ، فأراد أن يرتبها ترتيبا يدعو اليه النظر العلمي الطبيعي الذي أخذ عليه تفكيره ، وطبع عقلته بطابع خاص فاهتدى الى طريقة جديدة ، وأصبحت الحروف بها مرتبة على أساس من الواقع الطبيعي ، وبنى هذا الترتيب على ما لهذه الحروف من مواقف وارتكازات في داخل الفم ، من الحلق الى الشفتين ، لأنه أدرك أن هذه الحروف تختلف طبائعها بحسب مالها من رنات وأصوات ، فاستطاع أن يحدد مدارج هذه الأصوات في فراغ الفم وساعده على هذا ما كان له من معرفة بالنغم وأصولها .

وقد التفت ابن جنى الى الشبه بين الأصوات اللغوية وبين الأصوات التي

(٢) الجزء المطبوع من كتاب العين ص ٤ .

(٣) سر صناعة الاعراب - باب اسماء الحروف .

تسمع من الآلات الموسيقية كالناي والعود ، ومثل الصوت الانساني بصوت الناي ، وشبهه وهو يخرج مستطيلا متصلا لاتعترضه عقبات ، ولا تقف دونه مقاطع الأصوات التي نسميها مخارج الحروف ، بصوت الناي الذي يخرج غفلا لا يعوقه وضع أصابع الزامر على ثقوبه ، وشبه اصطدام الصوت بالمخارج بتقطيع صوت الناي بواسطة سدّ الثقوب بالأصابع ، ولكنه أورد هذا التشبيه على أنه تمثيل لم يقصد به الى تبيين علاقة بين صوت الانسان وصوت الناي ، ولكنه قصد به الى الاصابة والتقريب كما يقول (٤) .

والحق أن العلاقة بينهما متينة الى حد أن تنوع الأصوات بحسب مالها من مقاطع ومخارج موسيقى لها وقع على الآذان كأى وقع موسيقى .
وقد أدت هذه المحاولة - أعنى محاولة ترتيب الحروف بحسب مخارجها - بالخليل الى أن يبحث فى الحروف من نواح ثلاث ، مخارج الحرف ، وصفة الحرف ، وعلاقة الحرف بالحرف .

(٤) سر صناعة الاعراب - أول الكتاب .

(١)

مخارج الحروف

رأى الخليل أن هذه المقاطع تبدىء بالحلق وتنتهى عند الشفتين ، وأن بين الحلق والشفتين مقاطع كثيرة تقف عندها طائفة كبيرة من الحروف ، ويسمع منها أصوات متنوعة ، فترتيبها الجديد اذن ينبى على أساس هذه المقاطع ، واذا كانت المقاطع ، واذا كانت المقاطع أساس الترتيب الجديد فبأى المقاطع يبدأ وبأىها ينتهى ؟

لم يشأ أن يبدأ بحروف الشفتين ، لأن الابتداء بها فى نظره مخالف للوضع الطبيعى ، «فصير أولها بالابتداء أدخل حرف منها فى الحلق»^(١) .
وحين بدأ بحروف الحلق وجد أن مخرج الهمزة هو أقصى الحلق قبل مخرج العين ، ولكنه لم يعدها من حروف الحلق لاعتلالها ، ولأنها مهتوتة ليس لها كيان ثابت وانما هى متغيرة متحولة الى ألف أو واو أو ياء .

وحروف الحلق عنده تبدىء بالعين وتنتهى بالحاء ، وما بينهما ثلاث مدارج هى مدرجة الحاء التى تلى العين وتكون بلزقها ، ومدرجة الهاء التى تلى الحاء وتكون بلزقها ، ومدرجة الغين ، وترتيبها عنده هكذا : العين - الحاء - الهاء - الغين - الحاء .

ثم جاء سيبويه فرأى أن حروف الحلق سبعة وقسمها ثلاث طوائف : الطائفة الأولى هى الهمزة والألف والهاء ، وأقصى هذه الثلاثة عنده هو الهمزة ، والهمزة عنده نبرة فى الصدر تخرج باجتهاد . والطائفة الثانية هى

(١) الجزء المطبوع من كتاب العين ص ٤ .

العين والحاء ومخرجهما عنده من أوسط الحلق • والطائفة الثالثة هي الغين والحاء ومخرجهما أدنى الحلق •

والجديد في ترتيب سيبويه شيئان : أولهما اضافة الهمزة والألف الى طائفة حروف الحلق ، وثانيهما اعتبار الهاء قبل العين • وكان الخليل يعدها بعد الحاء •

ولم يغب عن الخليل مخرج الهمزة فهي عنده من أقصى الحلق (٢) ، ولكنها لما كانت عنده حرفا غير ثابت اذا رقه عنه انقلب ألفا أو واوا أو ياء أسقطها من طائفة حروف الحلق ، ولم يجعل لها مدرجة مع الحروف الصراح • أما المحدثون فلهم تصنيف آخر خالفوا فيه الخليل وسبويه تؤيدهم التجارب الحديثة • فالهمزة والهاء عندهم من مخرج واحد هو فتحة المزمار ، مخالفين في ذلك الخليل في اعتبار مخرج الهاء أبعد في الحلق من العين والحاء ، ومخالفين سيبويه أيضا في نفي الألف عن أن يكون مزماريا وان وافقوه في اعتبار الهاء مزمارية •

أما الهمزة فمخرجها عندهم فتحة المزمار ولذلك يسمونها غالباً
Glottal Stop تنطبق فتحة المزمار عند النطق بها انطباقا تاما ، ثم تنفرج
هذه الفتحة فجأة فينطلق الهواء المحبوس ويحدث انفجارا (٣) •

وأما الهاء فمخرجها عندهم فتحة المزمار أيضا ولكنها تخرج حينما تكون الفتحة واسعة ، ويكون الفم في وضعه الطبيعي ، ويسمع لها حين خروجها خفيف هو الذي لاحظته الخليل ، وعبر عنه بالهتة أو الههتة ، وسموها من أجل ذلك حنجرية احتكاكية Glottal Frictive (٤) •

(٢) سر صناعة الاعراب - باب أسماء الحروف •

(٣) The Phonetics of Arabic P. 30

(٤) المصدر السابق ص ٢٩ •

ويلى ذلك عندهم العين والحاء ، وهما من مخرج واحد مخالفين فى هذا الخليل فى اعتباره موضع الحاء أرفع من موضع العين ، ومنفقين مع سيويه فى اعتبارهما طائفة واحدة من مخرج واحد ، وهو وسط الحلق •

ويلى ذلك عندهم مخرج القاف كما نرى ذلك فى تصنيف البروفسور كيردنى للحروف فى كتابه The Phonetics of Arabic ، ومخرجها عنده باتصال أدنى الحلق بأقصى اللسان • وهو بهذا يوافق الخليل فى اعتبار القاف لهويّة ، ويخالفه فى اعتبار مخرجها قبل الغين والحاء •

ويلى ذلك عندهم مخرج الغين والحاء والكاف ، وهذه الثلاثة عندهم من مخرج واحد ، وهو اللهاة ، وذلك باتصال مؤخره اللسان بسقف الحلق المرن • (٥)

ويلى حروف الحلق عند الخليل حرفان لهويّان ، هما القاف والكاف ، والكاف عنده أرفع ، أى أنها أبعد عن الحلق من القاف • ولم يخالفه سيويه • وقد وافق المحدثون الخليل كما أشرنا إليه فى اعتبارهما لهويّين ، وفى اعتبار الكاف أرفع من القاف • (٦)

ويلى الحرفين اللهويّين عند الخليل : الجيم ثم الشين ثم الضاد ، وهذه الحروف الثلاثة فى حيز واحد ، ومخرجهن عنده من الشجر وهو مفرج الفم ، ولم يعين مخرج كل منهن بالضبط • أما سيويه فقد أضاف الى هذه الطائفة صوتا جديدا هو صوت الياء ، وكان أدق فى تعيين مخارج هذه الأصوات فقد ذكر أن مخرج الجيم والشين والياء من وسط اللسان بينه وبين الحنك الأعلى ، وأن مخرج الضاد من بين أول حافة اللسان وما يليه من الأضراس •

(٥) المصدر السابق ص ٢٥ •

(٦) المصدر السابق ص ٢٦ ، الاصوات اللغوية ، الدكتور ابراهيم انيس ص ٧٤ •

وخالفهما المحدثون في اعتبارهما الضاد في هذه الطائفة ، وعندهم أن مخرج الضاد بين أسلة اللسان أو مايلها ، وبين حافة الأسنان • ولكن هذه الضاد التي حدّد المحدثون مخرجها كما وصفنا هي الضاد التي يسمونها الآن في بعض الأقطار العربية ، كمصر والشام ولبنان ، ونطق هذه الضاد يختلف عن نطق الضاد العربية الأصلية التي وصفها الخليل وسيبويه (٧) ، والضاد الأصلية كما يقول كيردندر ، «هي ذلك الحرف الذي كان العرب يعتبرون النطق به من الصعوبة بمكان بحيث ينكرون على الأجانب المقدرة على النطق به ، ومن أجل ذلك سموا أنفسهم الناطقين بالضاد» (٨) • وما علينا الا أن نسلم بما نص عليه الخليل وسيبويه •

والمحدثون يخالفون الخليل وسيبويه في هذه الطائفة من وجه آخر ، فهم يعدون الياء والجيم من مخرج ، والشين من مخرج آخر ، يعدون مخرج الياء والجيم من بين مقدم اللسان وسقف الحنك الصلب ، ولذلك يسمونهما Palatals • أما الشين فمخرجها عندهم بين أسلة اللسان أو مايلها ، وبين حافة الأسنان ، وكانوا يسمونها : Alveolar (٩) •

ويلى مخرج الحروف الشجرية عند الخليل مخرج الصاد والسين والزاي • وهذه الحروف الثلاثة عنده في حيز واحد ، ومخرجها أسلة اللسان ، وهي طرفه الحاد ، ولذلك كان يسميها أسلية ، ولم يبين الخليل هنا الا جانباً واحداً من جانبي المخرج ، لم يبيّن الا أسلة اللسان ، أمّا أين يكون موضع الأسلة من الحنك الأعلى وغيره فلم يبيّنه • أما سيبويه فقد حدّد مخرجهن بأنه بين طرف اللسان وفوق الثنايا •

(٧) الاصوات اللغوية للدكتور ابراهيم انيس ص ٥١ ، ٥٢ ،

The Phonetics of Arabic P. 20

(٨) هامش صفحة ٢٠ من كتاب : The Phonetics of Arabic

(٩) المصدر نفسه ، ص ١٥

وقد خالفهما المحدثون فباعدوا بين مخرج الصاد ومخرج السين والزاي ، وجعلوا مخرج الصاد بين أسلة اللسان أو ما يليها ، وهو ما يسمى عندهم " Blade " وبين حافة الأسنان مع ارتفاع مؤخرة اللسان في اتجاه الحنك الأعلى المرن • ومخرج السين والزاي بين أسلة اللسان والأسنان العليا •

ويلى الحروف الأسلية عند الخليل : الطاء والذال والتاء ، وهذه الحروف الثلاثة عنده في حيز واحد ، وهو نطح الغار الأعلى (١٠) ، ولذلك كان يسميها نطعية ، وحدد سيبويه مخرجها بأنه بين طرف اللسان وأصول الثنابا •

وخالفهما المحدثون فجعلوا الطاء في طائفة والذال والتاء في طائفة أخرى ، جعلوا الطاء في طائفة الصاد بين طرف اللسان وحافة الأسنان مع ارتفاع مؤخرة اللسان نحو سقف الحنك المرن ، وجعلوا التاء والذال في طائفة السين والزاي بين طرف اللسان والأسنان العليا (١١) •

ويلى الحروف النطعية عند الخليل : الطاء والذال والتاء ، وهذه الحروف عنده في حيز واحد ، ومبدؤها من اللثة فهي لثوية • وجاء سيبويه فحدد مخرجها فذكر أنه بين طرف اللسان وأطراف الثنابا ، وهو قريب جدا مما ذكره المحدثون ، ولكن المحدثين خالفوهما ، فجعلوا الطاء في طائفة الطاء والصاد ، والتاء والذال في طائفة التاء والذال ، أى أنهم فرقوا بين الطاء وأختيها بارتفاع مؤخرة اللسان نحو سقف الحنك المرن في الطاء دون التاء والذال (١٢) •

(١٠) النطح بالكسر وكعنب ما ظهر من الغار الاعلى فيه آثار كالتحزير وجمعه نطوع والحروف النطعية : طدت • «القاموس المحيط - مادة نطح» •

(١١) P, 15 The Phonetics of Arabic

(١٢) المصدر السابق •

ويلى الحروف التوتية عند الخليل : الراء واللام والنون ، وهذه الحروف الثلاثة عنده فى حيز واحد ، وكان يسميها ذلقية ، ويسميها الفيروزابادى ذلقية (١٣) • وحدد سيبويه مخرج كل منها ، وفصل الكلام فيها ولم يجعلها - كما يظهر من كلامه - كلها من مخرج واحد فجعل مخرج اللام من حافة اللسان من أدها الى منتهى طرف اللسان ماينها وبين مايلها من الحنك الأعلى وما فوق الضاحك والناى والرابعة والثنية (١٤) • وجعل مخرج النون من طرف اللسان بينه وبين ما فوق الثنايا ، ومن مخرج النون مخرج اللام غير أنه أدخل فى ظهر اللسان قليلا لا نحرافه •

وسيبويه هنا يتفق مع الخليل فى أن طرف اللسان (ذلقه) يعمل فى كل من هذه الثلاثة الا أنه يزيد عليه بتحديد موضع كل منها وبملاحظة حركات اللسان فى أثناء اخراج كل منها •

أما المحدثون فيتفقون مع الخليل وسيبويه فى أن طرف اللسان يعمل فى هذه الحروف الثلاثة ، الا أنهم يخالفونها فى التفاصيل ، فالراء والنون عندهم من فصيلة ما يسمونه Alveolars ، وهى أصوات مخرجها بواسطة طرف اللسان أو الجزء الذى يلى طرف اللسان مباشرة مع حافة الأسنان ، واللام من فصيلة أخرى سموها : Dentals ، ومخرج هذه الفصيلة بطرف اللسان مع الأسنان العليا ، ويخالفونها أيضا فى أن الهواء الذى يصاحب اخراج النون يسلك التجويف الأنفى بعد انخفاض الطرف الأقصى من الحنك المرن ، وفى أن اللام نوعان مرقة ومفخمة ، ويتفقون معهما فى موضع اللام المرقة • أما المفخمة فلم يشر اليها الخليل ولا

(١٣) ذلق كل شىء وذلقته ويحرك - حده • وذولق اللسان والسنان طرفهما • القاموس - مادة ذلق •

(١٤) الكتاب ج ٢ ص ٤٠٥ •

سيويه ، بالرغم من وجودها لهجة من اللهجات ، وبالرغم من أن القراء قد عرفوها ، وقد عدتها المحذونون في فصيلة الطاء • أما الراء فعند المحذنين أنواع ثلاثة مكررة ونصف مكررة واحتكاكية (١٥) ، وقد نص الباحثون منهم في الأصوات العربية على أن الراء العربية هي الراء المكررة التي ذكرها الخليل وهي الراء التي يلفظها الاسكتلنديون (١٦) •

ويلى الحروف الذلقة عند الخليل : الفاء والباء والميم • وهذه الثلاثة عند الخليل في حيز واحد ، ومخرجها من الشفتين ، وكان يسميها شفوية • وليسيويه في الحروف الشفوية تفصيل آخر ، ، فانه يخرج الفاء منها ، ويضيف الواو اليها • وعمل سيويه هنا أصوب من عمل الخليل ، وان كان لايبعد أن تكون الواو عند الخليل كما هي عند سيويه مع الأحرف الشفوية ، بدليل قوله حين عرض لفاء والباء والميم: «ليس غيرها من الحروف الصراح يخرج من الشفتين» (١٧) ، مما يشعر أن الخليل كان يلاحظ أن الواو من الحروف الشفوية الا أنها من حروف العلة •

وللواو والياء حالتان تكونان في احدهما ليتين ، وتكونان في الثانية جامدتين فاذا كانتا جامدتين فلهما مدارج بين أخواتهما من الحروف الصراح ، وهذا هو ما التفت اليه سيويه فجعل الياء من الحروف التي كان الخليل يسميها شجرية ، وهي الجيم والشين والضاد وجعل الواو من الحروف التي كان الخليل يسميها شفوية وهي الفاء والباء والميم •

ولا تكون الياء والواو جامدتين عند الخليل الا اذا تحركنا وتحرك ما قبلهما بحركة لاتناسب طبيعتهما ، كأن يتحرك بالفتح مثلا ، فاذا تحركت

P. 144 The Phonetics of English, Dr. Ida C. Ward. (١٥)

P. 21 The Phonetics of Arabic, Gairdner. (١٦)

(١٧) الجزء المطبوع من كتاب العين ص ٤ •

الياء والواو أو حرك ماقبلهما بحركة لاتناسبهما قويتا عند الخليل^(١٨) • وكان
لهما مخرج معين بين مخارج الصحاح من الحروف ، ولا يبعد أن تكون الياء
القوية عنده كما هي عند سيويه مع الجيم والشين والضاد ، كما لا يبعد أن
تكون الواو عنده كما هي عند سيويه أيضا مع الأحرف الشفوية •

وقد أقر المحدثون سيويه على اخراج الفاء من الحروف الشفوية
الخالصة ، وعلى ادخال الواو في زمرتها ، فالفاء عندهم كما هي عند سيويه
شفوية سنية Labio - dental ، تشترك الأسنان العليا والشفة السفلى
في اخراجها ، والواو عندهم شفوية محضة Labial لاعمل لغير الشفتين
فيها •

ويلى ذلك كله عند الخليل الهمزة ، وقد سبق الكلام عليها ، والألف
والواو والياء ، وهي الحروف التي يسميها الأجانب Vowels ، وهي تعد
في نظر المحدثين عنصرا رئيسا في اللغات كلها ، ولكن المتقدمين من العرب
لم يعنوا بها عناية كافية وكانت اشارتهم اليها عابرة ، فلم يقل فيها الخليل الا
أنها لامدارج لها بين أحياز أخواتها من سائر الحروف ، فحيزها هو الجوف
كله ، ولذلك كان يسميها جوبا ، وكان يسميها هوائية أيضا لأنها في هواء
الفم •

وفي اطلاق القدماء هذه الأحرف تسمح ، فلم يعنوا بالتفريق بينها لينة ،
وبينها جامدة ، ولعل ذلك يرجع الى أن الخط العربي من صور الأصوات الساكنة
Consonants ومن أجل هذا خلا الخط العربي من صور أصوات اللين ، حتى جاء الخليل
فوضع لأصوات اللين القصيرة ، وهي الحركات ، رموزا تميز بها ، وليست

(١٨) التهذيب للازهري ج ١ ص ٢٤ (مخطوطة بدار الكتب رقمها ٩ لفة) •

الحركات الا أصواتا لينة لا تختلف عن الألف والواو والياء الا من حيث الكم ، فالفتحة بعض الألف ، والضمة بعض الواو ، والكسرة بعض الياء ، وقد التفت الخليل الى هذا حين قال : «الفتحة من الألف والكسرة من الياء والضمة من الواو» (١٩) .

وقد أقره المحدثون على هذا ، وأبعدوا في الدقة ، حتى جعلوا نسبة الألف والواو والياء الى الفتحة والضمة والكسرة نسبة ٢ الى ١ (٢٠) .

وعمل الخليل هنا أدق من عمل سيويه الذي جعل الألف مع الهزمة والهاء ، ولكنه مع ذلك أهمل حركات أعضاء النطق المختلفة التي تميز الألف من الواو من الياء . وعمله يتفق مع ماتوصل اليه المحدثون من أن مجرى الألف والواو والياء هو الفم كله . ولكنهم يختلفون معه في ذكر التفصيلات اللازمة لتحديد مركز كل منها في الفم ، وقرروا أن هذه الحروف تعتمد في تمييز بعضها من بعض على حركات اللسان والشفقتين ، وتتبعهم حركات اللسان صعودا الى الحنك الأعلى وهبوطا عنه ، وجدوا أن أصوات اللين المختلفة في جميع اللغات ثمانية أنواع ، وينسب هذا العمل الى البروفسور دانيال جونز فقد استطاع أن يجرى تجارب دقيقة ، وأن يسجلها على اسطوانات في شركة : His Master's Voice رقمها (B.804) (٢١) .

ويعيننا هنا أن نعرض للأصوات اللينة الثلاثة التي سماها علماء العرب أصوات المد وهي الألف والواو والياء .

أما الألف فمخرجها الجوف كله ، ولكن يتدخل اللسان والشفقتين ، ففي اخراجه ينخفض اللسان الى أسفل مع انسحاب طرفه قليلا عن الأسنان

(١٩) الكتاب ج ٢ ص ٣١٥ .

(٢٠) كيردندر ص ٣٥ .

(٢١) كيردندر ص ٣٧ .

السفلى ، وتتسع مع ذلك فتحة الشفتين ، وهو الصوت الذى يرمز اليه كيردندر
بالرمز (a :) والذى نجده فى الكلمة الانكليزية • Father (٢٢)

وأما الواو اللينة فمخرجها الجوف كله مع تدخل اللسان والشفتين ،
ففى اخراجها يرتفع مؤخر اللسان ، وتستدير الشفتان ، كما تستديران مع
الواو الساكنة التى يسميها الخليل قوية ، ويرمز لها كيردندر بالرمز (u :)
وهى التى نجدها فى كلمتى blue • too الانكليزيتين • (٢٣)

وأما الياء اللينة فمخرجها الجوف كله مع تدخل اللسان والشفتين أيضاً ،
ففى اخراجها يرتفع مقدم اللسان الى سقف الحنك الصلب ، يرتفع حتى
تضيق الفتحة وتفرج الشفتان انفرجا طبيعيا دون استدارة أو بروز (٢٤) ،
وهى التى يرمز لها كيردندر بـ (i :) كما نجدها فى كلمة Seen
الانكليزية • (٢٥)

وبعد ملاحظة هذا نجد أن تقدير الخليل اذ اعتبر مخرجها الجوف كله
قريب من اعتبار المحدثين اياه ولولم يعرض الخليل للتفاصيل الدقيقة التى
تحدد مركز كل منها فى الجوف تحديدا يميز بعضها من بعض ، وعلى
هذا فعدّ الألف من مخرج الهمزة والهاء كما فعل سيويوه تسمّح كبير •

فحروف الهجاء عند الخليل تسعة وعشرون حرفا ، خمسة وعشرون
منها صحاح ، وأربعة منها معتلة ، والحروف الصحاح عنده تبدأ بالعين ،
وتنتهى بالميم ، والحروف المعتلة عنده هى الألف والواو والياء والهمزة ،

(٢٢) كيردندر ص ٤١ •

(٢٣) كيردندر ص ٤٣ •

(٢٤) P. 81 Phonetics of English. IDA. C. WARD

الاصوات اللغوية للدكتور ابراهيم أنيس ص ٣٦ ، ٣٧ •

(٢٥) كيردندر ص ٣٨ •

وليس الهمزة بمنزلة أخواتها في الاعتلال ، لأن لها مخرجا متميزا هو أقصى الحلق عند الخليل وسيويه أو فتحة المزمار عند المحمدين (٢٦) .
ولكنها لما كانت مائة تنقلب اذا رقه عنها ألفا أو واوا أو ياء جعلها في طائفة المعتلات .

وعدد مخارج الصحاح عنده لاتزيد عن تسعة ، وكل مخرج منها يحتوى على مقاطع متقاربة منفصل بعضها عن بعض ، ولذلك وجد الفرق عنده بين أصوات الحروف التي تشترك في حيز واحد ، وكان يعبر عن هذه الفوارق بين المقاطع بقوله «بعضها أرفع من بعض» . (٢٧)

كيف استطاع الخليل أن يحدد مخارج الحروف ويضبط مقاطعها ؟

لقد استعان الخليل على تذوق الحروف وتبيين مقاطعها وتحديد مخارجها بتسكينها ، لأنه رأى أن مخرج الحرف انما يتمثل ويتبين اذا كان ساكنا (٢٨) . ولما لم يستطع الابتداء بالساكن بدأ بالهمزة المفتوحة لأن الفتحة أسهل الحركات وأخفها ، فكان يفتح فاه بالهمزة المفتوحة ، ويقف على الساكن فيقول مثلا : أبٌ أتٌ أعٌ الى آخر الحروف ، فاهتدى بذلك الى تحديد المخارج ، ورتب الحروف بجسبها كما يأتي :

العين الحاء الهاء الغين الخاء - القاف الكاف - الجيم الشين الضاد -
الصاد السين الزاي - الطاء التاء الدال - الظاء الذال التاء - الراء اللام النون -
الفاء الباء الميم - الالف الواو الياء الهمزة (٢٩) .

(٢٦) كيردنر ص ١٥ .

(٢٧) الجزء المطبوع من كتاب العين ص ٥ .

(٢٨) سر صناعة الاعراب - باب الحروف ٠٠ ، احياء النحو ص ٨٣ .

(٢٩) الجزء المطبوع من كتاب العين ص ٥ ، لسان العرب ج ١ ص ٧ ،
شرح الرضى على الشافية ص ٣٤٩ .

وجاء سيبويه فتابعه في منهجه وتذوقه الا أنه خالفه فيما يتصل بترتيب
الحروف ومخارجها فقد جاء ترتيبها في الكتاب كما يأتي :

الهمزة الهاء الألف - العين الحاء - الغين الحاء - الكاف - القاف -
الضاد - الجيم والشين والياء - اللام - النون - الراء - الطاء الدال التاء -
الزاي السين الصاد - الطاء الذال التاء - الفاء - الباء الميم الواو . (٣٠)

فحروف الهجاء عند سيبويه تبدىء بالهمزة وتنتهى بالواو ، وعدد
المخارج عنده ستة عشر مخرجا باضافة مخرج النون الخفيفة من الخياشيم ،
ولا حاجة بنا الى سرد تفصيلاتها فقد استوفى شرحها في الكتاب .

وقد عدّ سيبويه الهمزة والألف والهاء من مخرج واحد وهو أقصى
الحلق عنده ، وفتحة الزمار عند المحدثين ، وقدم بعض الحروف في أحيائها
وأخر بعضها فقد قدم الهاء على العين والكاف على القاف ، والضاد على الجيم ،
واللام على الراء والدال على التاء ، والزاي على السين ، وقدم الحروف
الطعية وهي الطاء والدال والتاء على الحروف الأسلية وهي الصاد والسين
والزاي .

وتابع ابن جنى سيبويه في كتابه «سر صناعة الاعراب» ، ورتب الحروف
على الصورة التي أثبتها سيبويه في كتابه . ويبدو أن عمل سيبويه في ترتيب
الحروف وعدد المخارج هو الذي اصطاح عليه العلماء العرب من بعده ،
وخالفه الفراء في عدّ مخرج الباء والواو واحدا ، والفاء والميم بين الشفتين .
قال الرضى - بعد عرضه لرأى الخليل والفراء وسيبويه - : «وأحسن
الأقوال ما ذكره سيبويه وعليه العلماء من بعده» (٣١) .

ومشؤ الخلاف بين الخليل وسيبويه - فيما نرى - هو اصطناع كل

(٣٠) الكتاب ج٢ ص ٤٠٤

(٣١) شرح الرضى على الشافية ص ٣٤٩ .

منهما مقياسا لتذوق الحروف يختلف عن مقياس صاحبه ، واذا لاحظنا مقياس كل منهما وجدنا ترتيب الحروف بحسبه سليما •
أما الخليل فقد اصطنع الهمزة المفتوحة ، لأنه جاء عن الليث أن الخليل « كان اذا أراد أن يذوق الحرف فتح فاه بألف ثم أظهر الحرف نحو أب أح أع » (٣٢) •

وأما سيويه فقد اصطنع الهمزة المكسورة ، ولم يصرح سيويه بهذا ولكنني أستنتج ذلك مما ذكره ابن جنى • قال ابن جنى : « وسيلك اذا أردت اعتبار صدى الحرف أنه تأتي به ساكنا لامتحركا ، لأن الحركة تقلق الحرف عن موضعه ومستقره ، وتجذبه الى جهة الحرف التي هي بعضه ، ثم تدخل عليه همزة الوصل مكسورة من قبله » (٣٣) •

ورجح عندي أن يكون كسر الهمزة معتبرا عند سيويه أيضا هذا الاتفاق بين ترتيب الحروف عند سيويه وترتيبها عند ابن جنى ، ومن هنا جاء الاختلاف بين الخليل وسيويه في ترتيب الحروف • وأنت اذا جربت أن تتذوق الحروف باصطناع الهمزة مفتوحة مرة ومكسورة أخرى ، وجدت وجهة النظر عند كل منهما سليمة •

هذا هو مقياس الخليل في تذوق الحروف مع ما فيه من سذاجة ، وهذا هو ما استطاع الوصول اليه كما سمحت له به ظروفه العلمية ، وكان هذا بالنسبة الى الدارسين في عهده حدثا عظيما ، وقد وفق توفيقا عظيما في كثير من النتائج التي توصل اليها • ومقياسه هذا لا يعدو أن يكون قائما على التذوق الشخصي والملاحظة بواسطة الأذن ، وكانت هذه الطريقة هي الوحيدة التي

(٣٨) لسان العرب - حرف العين • الجزء المطبوع من كتاب العين ص (١) •
(٣٣) سر صناعة الاعراب - باب الحروف • نسخة أستاذنا (ابراهيم مصطفى) •

يمكن أن تهض بهذه الدراسة قبل تقدم العلم ، وعمادها الأذن والتذوق
اشخصي •

أما المحدثون فقد استفادوا من التقدم العلمي وساروا على طريقة حديثه
قوامها التسجيل الآلي •

وطريقة التسجيل الآلي لم تكن لتكون الا بعد تقدم العلم واكتشاف
آلات وأجهزة دقيقة ، لتحديد مخارج الأصوات ، وتسجيل حركات النطق ،
وتسجيل تموجات الهواء التي تحدث بواسطة النطق •

وبلغ التسجيل الآلي من الدقة بحيث استطاع تقدير كم الصوت
Quantity وتقدير درجته Quality • (٣٤) •

ولاشك أن طريقة المحدثين القائمة على تسجيل الأصوات بأجهزة دقيقة
أدق في تحديد المخارج الصوتية وتقدير درجة الأصوات وكميتها ، فان
الأذن وان كانت قادرة على أن تهض بذلك ، وقد نهضت به في تلك العهود
الدراسية الطويلة التي ابتدأت بعمل الخليل - أداة ناقصة تهمل عددا كبيرا
من الفروق الصوتية الدقيقة • ولم يكن هذا التسجيل الآلي متوفرا في عهد
الخليل ، ومع ذلك فقد استطاع بالملاحظة والتذوق أن يصل الى نتائج أقر
الدرس الحديث بما استعان به من وسائل ، وبما ساعده من علوم ، كعلم
التشريح ، وعلم وظائف الأعضاء - كثيرا منها كما أثبتنا وسنثبت من موازنات
بين عمل الخليل وعمل المحدثين •

(٣٤) منهج البحث في الادب واللغة ص ٦٢ فما بعدها لانطوان ماييه
ولانسون (ترجمة الدكتور مندور) •

(٢)

صفات الحروف

قلنا ان الخليل أراد أن يدرس اللغة على أساس من فقه اللغة ، وأراد أن يدرس الحروف لأن دراستها ضرورية لفهم بنائها العام ، وها هو ذا قد رتب الحروف كما مر ترتيبا طبيعيا يقره النظر العلمي الطبيعي ، وليس ترتيب الحروف على الصورة السابقة غايته وهدفه ، فهو اذ رتبها انما أراد أن يقف على خصائصها ومزاياها وأن يفهم البناء العام للكلمة العربية في ضوء هذه الخصائص ، ومادامت الكلمات مؤلفة من هذه الحروف كان لزاما على الباحث أن يدرسها ، ويفهم خصائصها ، ويقف على مزاياها حين يتألف بعضها مع بعض ، ويفقه هذه الظواهر اللغوية العامة التي نجمت عن تأليف الحروف على صورة معينة ، فلم يرد الخليل اذن الى أن يقف عند تذوقه الحروف وتبين مخارجها حسب ، بل أخذ يفحصها مجددا ليتذوقها تذوقا آخر كما سيأتي بيانه •

لاحظ الخليل أن هذه الحروف لم تكن من طبيعة واحدة ، ولا ذات طابع واحد ، ففي بعضها يظل النفس جاريا لا يعوقه عائق ، ولا يجد المتكلم صعوبة في جريانه ، وفي بعضها يتعثر النفس ويقف عند مدرجة معينة من مدارج الفم فلا يتأتى للمتكلم أن يتابع نفسه •

وجد أن الحروف التي يجرى معها النفس عشرة هي الهاء والحاء والخاء والكاف والشين والسين والتاء والصاد والتاء والفاء ، وسماها الحروف المهموسة • والمهموس عنده حرف لان مخرجه دون المجهور ، وجرى مع النفس ، فكان دون المجهور في رفع الصوت « (١) •

(١) لسان العرب - حرف الهاء •

وسمى الحروف الأخرى التي ليس لها صفة المهموس مجهورة • وتابعه
سببويه في ذلك ، وعرف المجهور بأنه حرف أشبع الاعتماد في موضعه ومنع
النفس أن يجرى معه حتى ينقضى الاعتماد عليه ويجرى الصوت • وعرف
المهموس بأنه حرف أضعف الاعتماد في موضعه حتى جرى النفس معه •

وأنت ترى أن الخليل بنى التفرقة بين المجهود والمهموس على ما أحس
به في أثناء تذوقه الحروف من وقوف النفس وجريانه وارتفاع الصوت
وانخفاضه •

أما المحدثون فلهم مقياس آخر في التفريق بين المجهور Voiced
والمهموس Unvoiced ، فقد بنوه على ما يحدث الحرف في أثناء
إخراجه من اهتزاز في وترى الصوت ، وعدم احداثه ذلك ، فالصوت
المجهور عندهم هو الذي يهتز معه الوتران الصوتيان ، والصوت المهموس
هو الذي لا يهتز معه الوتران الصوتيان ، ولا يسمح لهما رنين حين النطق به •
ولاختيار الصوت الذي يحدث ذلك الاهتزاز والصوت الذي لا يحدثه ،
سدد اذنك في أثناء التصويت بالحرف المجهور ، فستحس برنة الصوت في
رأسك ، أو وضع اصبعك على ما برز من الحنجرة «تفاحة آدم - كما يسمونه»
فستشعر باهتزازات الوترين الصوتيين Vocal Cords

ولم يختلف المحدثون باحداثهم هذا المقياس مع الخليل وسببويه الا
اختلافا جزئيا ، فهم على وجه التقريب قد أفرقوا الخليل على تقسيمه الحروف
الى مجهورة ومهموسة ، ولكنه خالفه باضافة الطاء والقاف الى طائفة
المهموسات ، مع أنه عدّها في المجهورات ، وأضافوا الألف والواو والياء الى
طائفة المجهورات ، مع أنه لم يعرض لها لأنه عزلها عن الحروف الساكنة
التي لها مدارج في داخل الفم من أقصى الحلق الى الشفتين وجعل مدرجتها
الفم كله ، فلم يحاول تطبيق مقياسه عليها •

أما سيبويه فقد عد الألف مع الهمزة والهاء ، فحين ذاق الحروف في ضوء هذا المقياس كانت الألف واحدة منها ، فأدخلها في طائفة الحروف المجهورة ، وعدّ الياء مع الحروف الشجرية ، فحين ذاق الحروف أدخلها في طائفة المجهورات ، وعدّ الواو مع الحروف الشفوية ، فحين ذاق الحروف أدخلها في طائفة المجهورات أيضا •

فالمجهورات عند الخليل ستة عشر حرفا ، والمهموسات عشرة حروف ، فيكون المجموع ستة وعشرين حرفا يضاف إليها الألف والواو والياء التي لم يبد الخليل رأيه فيها ، فيكون المجموع تسعة وعشرين حرفا ، هي كل حروف الهجاء •

والمجهورات عند سيبويه تسعة عشر حرفا بإضافة الألف والواو والياء ، والمهموسات عشرة •

أما عند المحدثين فالمجهورات ثلاثة عشر حرفا ساكنا هي الباء والجيم والداد والذال والراء والزاي والضاد والطاء والعين والغين واللام والميم والنون ، يضاف إليها من أصوات اللين الألف والواو والياء ، فهذه ستة عشر حرفا •

والمهموسات عندهم اثنا عشر حرفا ، هي التاء والتاء والحاء والخاء والسين والشين والصاد والطاء والفاء والقاف والهاء • (١)

ومجموع المجهورات والمهموسات ثمانية وعشرون حرفا • بقي الحرف التاسع والعشرون ، وهو الهمزة ، لم يدخله المحدثون في إحدى الطائفتين ، لأنها ليس لها مدرجة بين أخواتها من الحروف السواكن ، لأن مخرجها فتحة المزمار نفسها ، ومن هنا نرى أن عمل سيبويه في هذا قد أصاب من التوفيق أكثر مما أصاب عمل الخليل •

(٢) الاصوات اللغوية للدكتور ابراهيم انيس ص ٢١ ، ٢٢ •

ولاحظ الخليل وهو يفحص هذه الحروف أن بعضها اذا وقف عليه يحتاج الى أن يضغط عليه ويحقره ، وهى حروف القلقة ، وعددها عند الخليل خمسة ، وهى القاف والجيم والطاء والذال والباء وسماها محقورة ، «لأنها تحقر فى الوقف وتضغط عن مواضعها» • (٣)

ويلحق سيبويه بهذه الأحرف المحقورة ثلاثة أحرف أخرى هى الهمزة والكاف والتاء ويسمىها جميعا شديدة ، وتابع ابن جنى سيبويه فى هذا ، وجمع الحروف الشديدة بقوله «أجدت طيقتك» • (٤)

أما المحدثون فيسمون هذه الحروف انفجارية Plosives ، وقد يسمونها Stops ، والحروف الانفجارية عندهم تخرج بعد توقف الهواء فى بعض المواضع باتصال العضوين ، ثم اندفاع الهواء بانفجار خفيف بعد انفصال العضوين • (٥)

والحروف الانفجارية عندهم هى : الهمزة والباء والتاء والذال والطاء والضاد والكاف والقاف والجيم القاهرية التى هى كالکاف على حدّ تعبير سيبويه • (٦)

ويقابل الحروف الشديدة عند علماء العرب فى الصفة الحروف الرخوة ، ولم أعثر للخليل على كلام فيها إلا ما ذكره سيبويه مما أكاد أعتقد أنه للخليل ، لأن وضع المصطلحات الخاصة من عمله ، ومما هو أشبه بعقله • والحروف الرخوة عند سيبويه أو عند الخليل هى الهاء والحاء والغين والخاء والشين والصاد والضاد والزاي والسين والطاء والتاء والذال والفاء •

(٣) لسان العرب - حرف الجيم •

(٤) سر صناعة الاعراب لابن جنى - باب الحروف •

(٥) P. 129 The Phonetics of English, Dr. IDA

(٦) كيردندر ص ١٥ ، الاصوات اللغوية للدكتور انيس ص ٢٥ •

وملاك الحروف الرخوة عندهما امكان اجراء الصوت اذا شاء
اللافظ . (٧) أما المحدثون فيسمونها احتكاكية Frictives
وقد يسمونها Continuants . وملاك الاحتكاكية عند المحدثين كملاك
الرخوة عند الخليل وسيبويه . فعند المحدثين أن الهواء في النطق بها يستطيع
المرور من الفتحة الضيقة ، ويحدث في أثناء مروره حفيفاً ، فهو لم يكن
محصوراً ، وإنما يستطيع أن يستمر خلال تلك الفتحة (٨) .

والحروف الاحتكاكية كما هو في الجدول الذي وضعه Gairdner
هي الواو والفاء والثاء والذال والسين والزاي والطاء والصاد والظاء القاهرية
(أو الزاي المطبقة) والشين والجيم السوربية والحاء والغين والحاء والعين والهاء .
وبموازنة عمل الخليل وسيبويه في هذه الصفات بعمل المحدثين يتضح
لنا صدق ملاحظتهما ، ودقة تدقيقهما ، بحيث طابق عملهما عمل المحدثين
باستثناء الواو التي أضافها المحدثون الى هذه الطائفة وأسقطها منها .

أما الضاد التي ذكرها كيردندر في طائفة الحروف الشديدة فليست هي
الضاد العربية الأصلية التي ذكرها سيبويه في طائفة الحروف الرخوة ، لأن
الضاد الأصلية تختلف في نطقها عن هذه التي ذكرها كيردندر مع الطاء ،
فإنها تنطق عند العرب القدماء جانبية ، بين أول حافة اللسان وما يليه من
الأضراس ، كما نص عليه سيبويه (٩) ، وعلى هذا فلا يؤخذ على الخليل
وسيبويه أنهما أدخلها في طائفة الحروف الرخوة بينما أدرجها المحدثون
في طائفة الحروف الشديدة .

(٧) الكتاب ج ٢ ص ٤٠٦ .

(٨) P. 58 The English Phonetics, Walter Ripman

(٩) الكتاب ج ٢ ص ٤٠٥ .

أما العين التي عدها المحدثون رخوة فقد نص سيويه على أنها بين
الرخوة والشديدة •

ولاحظ الخليل أن الفم والشفقتين تنطبقان عند التصويت بالميم فسامها
مطبقة ، قال الليث : « كان الخليل يسمي الميم مطبقة لأنها تطبق الفم اذا لفظ
بها » (١٠) •

ولاحظ الخليل ان بعض الحروف أكثر انطلاقاً وسهولة على اللسان من
بعض ، وأن أخف الحروف جميعاً ستة أحرف ، ثلاثة منها مخرجها ذلق
اللسان من طرف غار الفم وهي الراء واللام والنون ، وثلاثة مخرجها
الشفقتان وهي الفاء والباء والميم • وكان يرى أن هذه الأحرف الستة مما
يسهل النطق به ، وهي جميعاً تشترك في الخفة والسهولة لمرونة عضل
اللسان والشفقتين ، ولذلك سماها جميعاً حروف الذلاقة لأنهن قد ذلق اللسان
بهن • قال الخليل : « ان الحروف الذلق والشفوية ستة وهي الراء واللام
والنون والفاء والباء والميم ، وانما سميت هذه الحروف ذلقاً لأن الذلاقة في
المنطق انما هي لطرف أسلة اللسان والشفقتين وهما مدرجتا هذه الأحرف
الستة ، منها ثلاثة ذلقية وهي الراء واللام والنون ، تخرج من ذلق اللسان
من طرف غار الفم ، وثلاثة شفوية الفاء والباء والميم ، مخرجها من الشفتين
خاصة • لاتعمل الشفتان في شيء من الحروف الصراح الا في هذه الأحرف
الثلاثة فقط ، ولا ينطلق طرف اللسان الا بالراء واللام والنون » (١١) •

فالأحرف الذلق عنده هي الأحرف التي مخرجها ذلق اللسان ، وهو
طرفه المستدق ولكنه كان يغلب الذلاقة على هذه الأحرف وعلى أحرف
الشفقتين فيسميها جميعاً ذلقاً • وقد علل ذلك كما رأينا « بأن الذلاقة في المنطق

(١٠) الجزء المطبوع من كتاب العين ص ٩ • لسان العرب - حرف الميم •

(١١) الجزء المطبوع من كتاب العين ص ٩ •

انما هي لظرف أسلة اللسان والشفقتين ، وهما مدرجتا هذه الأحرف الستة» •
وكان ابن جنى يسمي هذه الأحرف حروف الذلاقة أيضا ، للاعتبار
الذى أخذ به الخليل • قال ابن جنى : «ومنها حروف الذلاقة وهي ستة ،
الراء واللام والتون والفاء والباء والميم ، لأنه يعتمد عليها بذلق اللسان وهو
صدره وطرفه» (١٢) •

أما ما عدا هذه الأحرف الستة فكان الخليل يسميها صتما أو مصمته ،
وكان يقول : «ومهما جاء من بناء اسم رباعى منبسط معرى من الحروف الذلق
والشفوية فانه لا يعرى من أحد حرفى الطلاقة أو كليهما ، ومن السين والبدال
أو احدهما ، ولا يضره ماخالطه من سائر الحروف الصتم» (١٣) •

وعلل الخليل وصفه هذه الحروف بأنها صتم أو مصمته بقوله : «انما
سميت مصمته ، لأنها أصممت ، فلم تدخل الأبنية كلها ، واذا عريت من حروف
الذلاقة قلت في البناء • فلست واجدا في جميع كلام العرب خماسيا بناؤه
بالحروف المصمته خاصة ، ولا كلاما رباعيا كذلك» (١٤) •

وجاءت هذه التسمية على لسان ابن جنى فقال : «ومنها الحروف المصمته
وهي باقى الحروف» وعللها بالتعليل الذى جاء على لسان الخليل فقد قال :
«لأنها صممت عنها أن تبنى بها كلمة رباعية أو خماسية معراة من حروف
الذلاقة» • (١٥)

وقال الرضى : «المصمته ضد حروف الذلاقة ، والشئ المصممت هو

(١٢) سر صناعة الاعراب - باب انقسام الحروف •

(١٣) التهذيب للازهري ج ١ ص ٢١ ، مخطوطة رقمها (٩ لغة) • لسان
العرب - حرف الباء •

(١٤) التهذيب ج ١ ص ٢٤ •

(١٥) سر صناعة الاعراب - باب انقسام الحروف •

الذي لاجوف له ، فيكون ثقيلًا ، سميت بذلك لثقلها على اللسان بخلاف حروف الذلاقة» (١٦) ♦

ولاحظ الخليل أن بعض الحروف أخفى صوتًا من بعض ، فسمى الحفية مهتوتة ♦ والحروف الحفية عنده هي الهمزة والهاء والتاء ، فحين عرض للهمزة قال : «أما الهمزة فمخرجها من أقصى التحلق مهتوتة مضغوطة» (١٧) ، وحين عرض للهاء قال : «ثم الهاء ولولا هتة في الهاء لأشبهت الحاء تقرب مخرجها منها» (١٨) ♦ وجاء وصف التاء بالخفاء حين عرض للدال ، وأنها حرف لان عن صلابه لطاء وكزازتها وارتفع عن خفوت التاء» (١٩) ♦

والذي يظهر من كلام سيبويه أنه كان يطلق هذا الوصف على الألف والواو والياء ، فقد قال حين عرض لها : «وهذه الثلاثة أخفى الحروف لاتساع مخرجها» (٢٠) ♦

وابن جنى وابن الحاجب يطلقانه على التاء ، فقد جاء في سر صناعة الاعراب أن «من الحروف المهتوت وذلك لما فيها من الضعف والخفاء» (٢١) ♦ وجاء في الشافية : «والمهتوت التاء لخفائها» (٢٢) ♦

وبعد أن أخرج الخليل الهمزة والألف والواو والياء من طائفة الحروف ذوات المخارج بقي لديه خمسة وعشرون حرفًا ، خمسة منها في التحلق وهي العين والحاء والهاء والغين والخاء ، وستة منها ذلق وهي الراء واللام والنون

- (١٦) شرح الرضى على الشافية ص ٣٥٥
(١٧) الجزء المطبوع من كتاب العين ص ٥
(١٨) الجزء المطبوع من كتاب العين ص ٥ ، لسان العرب ج ١ ص ٧
(١٩) التهذيب ج ١ ص ٢١ «مخطوطة رقمها (٩ لفة) بدار الكتب»
(٢٠) الكتاب ج ٢ ص ٤٠٦
(٢١) سر صناعة الاعراب - باب انقسام الحروف
(٢٢) شرح الرضى على الشافية ص ٣٥٢

والفاء والباء والميم ، والباقي أربعة عشر حرفا مدارجها على اللسان من أصله عند الحلق الى طرفه • وهذه الحروف اللسانية عنده طائفتان : طائفة مستعلية وهي الطاء والضاد والظاء والقاف ، وسماها المستعلية ، وطائفة منخفضة وهي التسعة الباقية • ولعل وصفه الطائفة الأولى بالاستعلاء ، والطائفة الثانية بالانخفاض أن يكون لما احس به في أثناء تذوقه اياها من ارتفاع اللسان في بعضها نحو الحنك الأعلى او انخفاضه في بعضها عنه •

ولسيويه تسمية أخرى • فما سماه الخليل مستعليا سماه سيويه مطبقا ، مع اخراج القاف من هذه الطائفة ، وما سماه الخليل منخفضا سماه سيويه منفتحا • وتعليله للاطباق والافتتاح هو ما يعلل به الاستعلاء والانخفاض عند الخليل ، فبعد أن ذكر سيويه المطبقة أدرج كل ما عداها في المنفتحة ، وعلل وصفها بالافتتاح بقوله : «لأنك لاتطبق لشيء منهنّ لسانك ترفعه الى الحنك الأعلى» (٢٣) •

ولاحظ الخليل أن بعض الحروف ضعيف لا يقاوم طوارئ الاستعمال ، فلا يكاد يحتفظ بنيانه ، فهو ينتقل من حال الى حال عند التصرف (٢٤) ، وبعضها هو هو مهما تقلب في الاستعمال ، وكان يصف الأولى بالاعتدال ، والثانية بالصحة ، وكان يقول : «العربية تسعة وعشرون حرفا منها خمسة وعشرون صحاح لها أحياز ومدارج ، وأربعة أحرف هوائية وهي الواو والياء والألف اللينة» (٢٥) •

والحروف المعتلة عنده هي الهمزة والألف والواو والياء ، والحروف الصحاح هي باقي الحروف ، تبدأ بالعين وتنتهي بالميم ، ووصفت الأحرف

(٢٣) الكتاب ج ٢ ص ٤٠٦ •

(٢٤) لسان العرب - حرف الواو والياء من المعتل •

(٢٥) الجزء المطبوع من كتاب العين ص ٨ •

(٢٦) الجزء المطبوع من كتاب العين ص ٤ •

الأربعة بالاعتدال ، لانتقالها عند التصرف من حال الى حال • أما الهمزة
فمخرجها عنده «من أقصى الحلق مهتوتة مضغوطة فاذا رقه عنها لانت فصارت
الياء والواو والألف» (٢٦) ، وكان يسميها جوفاء أيضا لأنها اذا اعتلت خرجت
من الجوف فلا تقع في مدرجة من المدارج وليس لها حيز تنسب اليه غير
الجوف • (٢٧)

وأما الثلاثة الباقية فهي جوف أيضا ، ولا تستقر على حال معينة ،
فالالف قد تنقلب واوا أو ياء ، والواو قد تنقلب ألفا أو ياء ، والياء قد تنقلب
واوا أو ألفا •

وانجر الوصف بالاعتلال والصحة الى الكلمات التي تتضمن الحروف
المعتلة والحروف الصحيحة ، فما فيه أحد حروف العلة فهو المعتل ، وما ليس
فيه واحد منها فهو الصحيح • وقد عقد الخليل في كتاب العين بابا في الثلاثي
الصحيح ، وعرفه بأن يكون ثلاثة أحرف ليس فيها أحد حروف العلة الأربعة
وهي الهمزة والألف والواو والياء (٢٨) •

فالخليل على هذا أول من قسم الكلمات الى صحيح ومعتل ، وأول من
عرّف الصحيح بأنه ما خلا من أحد حروف العلة ، والمعتل بأنه ما كان فيه
واحد منها ، وقد انفرد - فيما أظن - باعتبار الهمزة أحد حروف العلة ،
فغيره يخرج الهمزة منها ، ويقصر الاعتلال على الثلاثة الباقية • قال ابن جنى :
«وللحروف قسمة الى الصحة والاعتلال فجميع الحروف صحيح الا الألف
والياء والواو اللواتي هن حروف المدّ والاستطالة ، وقد ذكرناهنّ قبل الا

(٢٧) لسان العرب ج ١ ص ٧ • الرضى على الشافية ص ٣٤٨ • الجزء

المطبوع من كتاب العين ص ٥ •

(٢٨) الجزء المطبوع من كتاب العين ص ١٠ •

أن الألف أشد الحروف امتدادا وأوسع مخرجا وهو الحرف الهاوى» (٢٩) .
ولسيويه لبعض الحروف تسميات أخرى كالمكرر ، وهو الراء ، وهذه
التسمية مطابقة لتسمية المحدثين الراء فهم يسمونها : **Trilled** او **Rolled**
واللينة وهى الواو والياء ، وكان الخليل يعنى بها الألف ، والهاوى وهو
الألف ، وكان الخليل يطلقه على الحروف المعتلة جميعا ، والمطبقة وهى الصاد
والضاد والطاء والظاء ، وكان الخليل يسميها مستغلية ، ويطلق وصف
الاطباق على الميم وحدها ، والمنفتحة وكان الخليل يسميها منخفضة ، والمنحرف
وهو اللام ، وهو قريب مما وصف المحدثون به اللام فقد سموها **Lateral**
جانبية ، وقد أشار الخليل الى هذا الوصف بقوله : «ولا ينطق اللسان الا
بالراء واللام والنون ، وأما سائر الحروف فانها ارتفعت فجرت فوق اللسان
من لدن باطن الثنايا من عند مخرج التاء الى مخرج الشين بين الغار الاعلى وبين
ظهر اللسان ، ليس للسان فيهن عمل أكثر من تحريك الطبقتين ، ولم ينحرفن
انحراف الراء واللام والنون» (٣٠) ، وال خليل بهذا لا يقصر الانحراف على
اللام وحدها بل يدخل فيه الراء والنون أيضا .

وإذا تصفحت الكتب العربية التى عرضت للأصوات وصفاتها وأسمائها
وجدت أن أصحابها لم يأتوا بجديد ، ولم يزيدوا على ما وضعه الخليل الا
قليلا مما جاء عن سيويه وعن غيره من علماء التجويد ، وما فعلوه يكاد ينحصر
فى تعديل بعض تلك الأسماء والصفات ، واخراج بعض الحروف من الأحياز
التى أدخلها الخليل فيها ، وادخال بعضها فى الأحياز التى أخرجها الخليل
منها .

(٢٩) سر صناعة الاعراب - باب انقسام الحروف .
الجزء المطبوع من كتاب العين ص ٤ .

(٣)

ائتلاف الحروف

وقد أفاد الخليل من استخراج هذه الصفات ووضع تلك الأسماء أشياء أخرى مهمة تتصل بالبناء العام للكلمة العربية حين تتألف الحروف بعضها مع بعض ، وزاد هذه الدراسة أهمية معرفته بالنغم وأصول الموسيقى ، وقد هدته هذه المعرفة الى أن اللغة أصوات موسيقية ، وأن الموسيقى مظهر من مظاهر المزاج عند كل أمة ، ولا بد أن تختلف اللغات بحسب ما للأمم المختلفة من أمزجة خاصة ، ولاحظ أن ما قد يتلاءم مع أمة لا يتلاءم مع أمة أخرى ، وكان له من دقة الملاحظة أن ادرك أن الأذن العربية قد تستسيغ أصواتا معينة لا يستسيغها غيرها ، وأن اللسان العربي ينطلق بتركيب خاص لا ينطلق به لسان غيره ، وأن العرب قد يابون تأليفا خاصا لا ياباه غيرهم ، كما سيأتي بيانه من ابائهم اجتماع واوين في أول الكلمة ، وابائهم الابتداء بالساكن ، واسترواحهم مدّ آخر الكلمة حين يوقف عليها ، وابائهم اجتماع حرفين ساكنين في كلمة واحدة أو في كلمتين ، وابائهم تكرار الحروف على صورة معينة ، كالتكرار في (مهما) التي يرى الخليل أن أصلها (ماما) ، وقد كره العرب أن يلفظوها على هذه الصورة ، و كالتكرار في قول الشاعر :

فلا والله لا يلفي لما بي ولا للما بهم أبدا دواء

وفي قول الآخر : وصاليات ككما يؤثفين

فقد زاد الأول لاما على لام ، وزاد الثاني كافا على كاف ، وقبحه ابن

فارس حتى استبعد صدوره عن العرب (١) .

(١) الصاحبى لابن فارس ص ٢٧ .

وأدرك الخليل أن اللسان العربي قد ينطلق بأصوات خاصة لا ينطلق بها غيره ، كصوت الضاد الذي هو صوت عربي خالص امتازت به العربية حتى أضيفت إليه وسميت لغة الضاد ، وكصوت الظاء الذي يرى الخليل أنه حرف عربي خصّ به لسان العرب لا يشركه فيه أحد من سائر الأمم (٢) ، وكغيرها من الأصوات التي عرض لها فقهاء اللغة ، كابن جنى وابن فارس وغيرهما •

قال ابن جنى : «ان الظاء لا توجد في كلام النبط واذا وقعت قلبوها طاء ، ولهذا قالوا : برطله وانما هو ابن الظل ، وقالوا : ناطور وانما هو ناطور ، فاعول ، من نظر ينظر» (٣) •

وقال ابن فارس : «ومما اختصت به لغة العرب الحاء والطاء ، وزعم ناس أن الضاد مقصورة على العرب دون سائر الامم» •

وروى عن أبي عبيدة أن العرب انفردت بالألف واللام اللتين للتعريف ، كقولنا الرجل والفرس فليسا في شيء من لغات الأمم غير العرب ، وأن الهمزة لا تكون في عرض الكلام الا في العربية • (٤) وهو وهم •

وقد أعار الخليل الحروف الهجائية عناية خاصة ، وامتدت ملاحظته اياها الى أن يتذوقها وينعم النظر في ملاساتها ومزاياها ، ويلائم بين كل حرف وأخيه ، فأدرك اسراراً لطيفة ، وتوصل الى معرفة المزاج العربي في تأليف الحروف بعضها مع بعض فوجد :

(١) أن العين لا تأتلف مع الحاء في كلمة واحدة ، ومرجع الصعوبة في اثتلافهما كما نص عليه هو تقارب مخرجيهما وتلاصقهما ، «فلولا بحة

(٢) لسان العرب - حرف الظاء •

(٣) سر صناعة الاعراب - حرف الظاء •

(٤) الصحابي لابن فارس ص ٧١ •

فى الحاء لاشتبهت بالعين لقرب مخرج الحاء من العين ، اللهم الا اذا
كانت العين فى كلمة والحاء فى كلمة اخرى ، ثم اشتق من الكلمتين أو
تحت منهما كلمة واحدة كما نحت «تعبس» من عبدالقيس و (تعشم)
من عبد شمس ، ومثل لهذا بقول العرب : حيعل يحيعل حيعلة كما جاء فى
قول الشاعر :

فبات خيال طيفك لى عنيقا الى أن حيعل الداعى الفلاحا
وكما قال الآخر :

الأرب طيف منك بات معانقى الى أن دعا داعى الصباح فحيعلا
وحيعل منحوتة من كلمتين هما حى و على . (٥)

وظل يتبع العين والحاء فوجد أنهما لا تأتلقان وحدهما ولا مع غيرهما
من سائر الحروف ، ولذلك لانجد فى كتاب العين فصلا خاصا بالعين مع الحاء
لا بهما وحدهما ، ولا بهما مؤتلفين مع حرف من حروف الهجاء ، وأدرك من
ذلك أن الذوق العربى لا يستسيغ اجتماعهما .

(٢) وأنه لا تأتلف الحاء والهاء فى كلمة واحدة ، لتقارب مخرجيهما
وتلاصقهما أيضا «فلولاهته فى الهاء لاشتبهت بالحاء لقرب مخرج الهاء
من مخرج الحاء» ، الا اذا كانت الحاء فى كلمة والهاء فى كلمة اخرى ،
ولكل من الكلمتين معنى على حدة ، ثم تألفتا بطريق النحت على النحو
الذى اجتمعت فيه العين والحاء .

قال الخليل : «وبعد الحاء الهاء . ولم يأتلفا فى كلمة واحدة أصلية .
وقبح ذلك على السنة العرب ، لقرب مخرجيهما ، لأن الحاء فى الحلق بلزق

(٥) الجزء المطبوع من كتاب العين ص ١٠ ، لسان العرب - المقدمة .

العين ، وكذلك الحاء والهاء ، ولكنهما يجتمعان في كلمتين لكل واحدة معنى على حدة ، كقول لبيد :

وتمادى في الذى قلت له ولقد يسمع قولى حيَّهَل

وانما جمعها في كلمتين ، حى كلمة ومعناها هلم ، وهل حثيى فجعلهما كلمة واحدة» (٦) .

(٣) ونستتج مما ذكره في كتاب العين في الفصل الخاص باجتماع العين والهاء في باب «الثلاثى الصحيح» ، وتمثيله له بالعرهاة «وهو اللئيم من الرجال الذى لا يخالط الناس ولا يطرب للسمع ولا يحب اللهو وجمعه عزهون» . (٧) ومن تمثيله له بهطع ، وذكره المهطع ، وهو المقبل ببصره على الشئ لا يرفعه عنه ، (٨) . ومما كان يقول من أنه «سمعنا كلمة شنعاء وهى الهعخع فأنكرنا تأليفها» (٩) .

نستتج من ذلك كله أن الخليل كان يفصل الكلام في ائتلاف العين مع الهاء ، فان كانت العين قبل الهاء كان ذلك جائزا عنده ، سواء أكانتا متصلتين كما فى قوله تعالى كالعهن المنفوش ، أم كانتا منفصلتين كالعرهاة . وان كانت العين بعد الهاء ، فان كانتا منفصلتين جاز اجتماعهما فى كلمة ، كقوله تعالى : مهطعين مقنعى رءوسهم . وان كانتا متصلتين امتنع اجتماعهما ، ولذلك كان الخليل يقول : «ان الثقات من علماء العربية يعرفون الخعخع ، لأنه أقرب الى التأليف» (١٠) .

(٦) لسان العرب - حرف الحاء . «الحثيى السريع» ق (حث) ج ١ ص ١٦٤ .

(٧) الجزء المطبوع من كتاب العين ص ٣٨ .

(٨) المصدر السابق .

(٩) الجمهرة لابن دريد ص ٩ ، ونقلها السيوطى فى المزهرة ج ١ ص ١١٦ .

(١٠) الجمهرة لابن دريد ص ٩ . ونقلها السيوطى فى المزهرة ج ١ ص ١١٦ .

(٤) أما العين والغين فيبدو أنهما لا يجتمعان أبدا في لغة العرب سواء أكانت العين متقدمة أم متأخرة ، وسواء أكانت منفصلة عنها أم متصلة بها ، ولم يرد لاجتماعهما في كلمة مثال في كتاب العين ولا في سر صناعة الاعراب في الفصل الذي عقده ابن جنى في آخر الكتاب للبحث في مثل هذه الأمور ، ولا في الصحابي في الفصل الذي عقده ابن فارس للبحث في امتزاج الحروف وتألفها ♦

(٥) وأما العين والخاء فيجتمعان على أن تكون الخاء قبل العين ، اذ لم تسمع كلمة اجتمعتا فيها الا كانت الخاء فيها مقدمة على العين ، نحو : نخع وبخع ، ونحو قوله تعالى : لعلك باخع نفسك على آتاهم ♦

من هذا يفهم أن حروف الحلق أقل الحروف تألفا في الكلام ، وذلك لصلاية عضل الحلق اذا قيست بمرونة عضل اللسان والبفتين ، فليست عضل الحلق من المرونة بحيث تسمح باجتماع حروفه في كلمة ، ولا سيما فيما تقارب فيه المخرجان تقاربا شديدا ، بحيث لولا الخصائص التي كان الخليل يحس بها في أثناء تذوقه الحروف لاشتبهت هذه الحروف بعضها ببعض ، كما يفهم من قوله : «ولولا بحة في الحاء لاشتبهت بالعين» ، وقوله : «ولولا هتة في الهاء لاشتبهت بالحاء» ، فالبحة التي في الحاء هي التي ميزتها من العين ، والهتة التي في الهاء هي التي ميزتها من الحاء ♦

ولهذا لا مجال لما رد به بعضهم على الخليل من أن قرب المخرج لا يقتضي التنافر بين الحروف ، كما هي الحال في ألفاظ عربية فصيحة مؤلفة من حروف متقاربة المخرج ، كالشجر والقم ، فالجيم والشين من حيز واحد ، والفاء والميم من حيز واحد أيضا ، ولا خلاف في فصاحة هذه الكلمات في لغة العرب ♦ (١١)

(١١) المزهر للسيوطي ج ١ ص ١١٦ ♦

أقول : لامجال للرد عليه بهذا لأن المسافة بين العين والحاء ، وبين الحاء والهاء ، - كما يرى الخليل - أقرب بكثير مما هو بين الجيم والشين أو بين الفاء والميم ، كما هو واضح لمن يتذوق الحروف • هذا بالإضافة الى أن عضل اللسان والشفتين أكثر مرونة من عضل الحلق ، فما ييسر لهما التصويت به لا ييسر لعضل الحلق التصويت به أحيانا •

واصرار الخليل على التعليل يقرب المخرج في عدم تألف العين والحاء والهاء يدل على أن التأليف المقبول عنده ما كان مبنيا على تباعد الحروف • وقد وجدت هذه الفكرة قبولا عند ابن سنان الخفاجي ، فجعل تباعد الحروف شرطا للفصاحة (١٢) •

(٦) والقاف والكاف عند الخليل لا يجتمعان الا في كلمة معرّبة • وكان يقول : «تأليفهما معقوم في بناء العربية ، لقرب مخرجيهما» (١٣) •

وأكبر الظن أن عقم تأليف القاف والكاف عند الخليل ليس مرجعه الى قرب المخرجين حسب ، بل يرجع الى صلابة العضل في أصل اللسان مما يبلى الحلق الذي هو مخرج القاف والكاف أيضا •

وأيد ابن جنى الخليل ، فذكر أنه ليس من كلام العرب نحو قبح وحق وكبح وجك وقلّ وكق (١٤) • والقاف والكاف عند الخليل لا يجتمعان أبدا سواء أكانت القاف متقدمة أم متأخرة •

(٧) والقاف والجيم لا يجتمعان ، سواء أكانت القاف قبل الجيم أم بعدها ، ولم ترد الا في كلمات دخيلة ليست من العربية ، وانما هي مولدة •

(١٢) المزهر للسيوطي ج ١ ص ١١٦ •

(١٣) لسان العرب - حرف القاف • -

(١٤) سر صناعة الاعراب لابن جنى - باب تمازج الحروف •

وكان الخليل يقول : «القاف والجيم كيف قلبتا لم يحسن تأليفهما الا بفصل لازم» . (١٥)

وأخذ فقهاء اللغة هذا عن الخليل وزادوا فيما ذكره أشياء وصلوا اليها باستقراءاتهم . وقد عرض ابن فارس ، وهو من علماء القرن الرابع ، لهذا وأمثاله في كتابه الصحابي ، فذكر أن المهمل على ضريين : ضرب لا يجوز اثتلاف حروفه في كلام العرب البتة ، وذلك كجيم تؤلف مع كاف أو كاف تقدم على جيم ، وكعين مع غين أو حاء مع هاء أو غين ، فهذا وما أشبهه لا تأتلف » (١٦) . وقد أثبتنا لابن جني مثل هذا قبل قليل .

(٨) والضاد والكاف لا يجتمعان وهما متصلتان سواء أكانت الضاد متقدمة أم متأخرة ، ولا يحسن اجتماعهما عند الخليل الا بفصل لازم بحرف أو بحرفين أو أكثر ، نحو الضنك والضحك . (١٧)

ولم ترد الضاد والكاف متصلتين الا في المضعف كالضكضة والكضضة وكلاهما - كما في القاموس - مشى في سرعة .

ومما يؤيد صدق رأى الخليل في عدم اجتماعهما متصلتين أنه لم يورد الفيروزابادي تحت مادة (ضكة) الا أمثلة كلها من المضعف ، ما عدا مثالا واحدا وهو قوله : «ضكه الأمر ضاق عليه» ، ولم يورد تحت مادة (كض) الا الكضضة .

وأمثلة المضعف مما نبه الخليل على جواز تأليف الضاد والكاف فيها ، وهما متصلتان ، فقد قال : «وهو - يعني اتصال الضاد والكاف - جائز في تأليف المضعف نحو الضكضة» (١٨) .

(١٥) لسان العرب - حرف القاف .

(١٦) الصحابي لابن فارس ص ٤٨ .

(١٧) التهذيب للازهري ج ١ ص ٢٢ «مخطوطة رقمها (٩ لغة) بدار الكتب» .

(١٨) المصدر السابق .

(٩) ولاحظ الخليل أن في الصاد قبل القاف ثقلا في النطق ، وسمع بعض العرب ينطق بالصاد قبل القاف مرققة يشبه صوتها صوت السين ، وسمع بعضهم ينطق بها مفخمة ، فادرك أن بعض العرب أشد تصويتا من بعض ، وأجاز لذلك أن ترقق الصاد وتقلب سينا ، فقال : « كلّ صاد قبل القاف ان شئت جعلتها سينا لاتبال متصلة كانت أو منفصلة ، بعد أن تكون في كلمة الا أن الصاد في بعض الأحيان أحسن والسين في مواطن أخرى أجود » . (١٩)

وعقد سيبويه باب ما انقلب فيه السين صاداً في بعض اللغات تقلبها القاف اذا كانت بعدها في كلمة واحدة ، وذلك نحو صبقت وصبقت ، وصقت وصبقت هما سقت وسبقت ، ولكن السين فيهما انقلبت صاداً • وقد علل سيبويه هذا بأن القاف من أقصى اللسان فأبدلوا من موضع السين أشبه الحروف بالقاف ليكون العمل من وجه واحد ، لأنهما جميعا يتصعدان الى الحنك •

(١٠) ولاحظ الخليل أن الألف والواو والياء اللينيات لا بد أن يحرك ما قبلهن بحركة تناسبهن ، فالألف قبلها فتحة ، والواو قبلها ضمة ، والياء قبلها كسرة ، لأن طبيعتهن تقوم على تحريك ما قبلهن بحركة تناسبهن ، لأنهن لسن أكثر من حركة ممدودة ، فالواو لا تكون مداً الا اذا ضم ما قبلها ، والألف لا تكون مداً الا اذا فتح ما قبلها ، والياء قائمة طبيعتها على كسر ما قبلها • (٢٠)

وهذا الأصل الذي جاء عن الخليل من أنه « ليس في الدنيا حرف تلحقه ياء الاضافة الا كان متحرراً مكسوراً » يؤيد ما قصدنا اليه من أن الخليل قد فطن لهذه الظاهرة الصوتية ، وليست ياء الاضافة التي جاءت في كلامه الا نوعاً من الياء اللينة أو هي هي بطبيعتها وصفاتها •

(١٩) الجزء المطبوع من كتاب العين ص ٥٦ •

(٢٠) التهذيب ج ١ ص ٢٤ • « نسخة مخطوطة بدار الكتب رقمها (٩ لغة) » •

وقد ورد هذا الأصل في الباب الذي عقده سيويه لعلامة اضمار المنصوب المتكلم والمجرور المتكلم ، وهذا قد يشعر بأن المقصود من هذه الياء هو ياء المتكلم التي نجدها في قولنا : كتابي ، وعلمني ، وحدها ، ولكني أرى أن ياء الاضافة تشمل هذه الياء التي تقع مضافا اليها ، التي تقع مفعولا به ، والياء التي يسميها النحاة ياء النسبة ، في قولك : هذا مصريّ وذلك عراقي ، لأن النسبة هي الاضافة وكان سيويه يقول : الاضافة الى كذا وهو يعنى النسبة الى كذا ، ولم يكن الخليل ولا النحاة في عهده قد خصصوا هذا اللفظ بهذه العلاقة التي تتحقق بين المضاف والمضاف اليه في نحو قولك هذا كتابي •

وأرى أن هذه الياء التي تستدعي انكسار ما قبلها أعم من هذه الياءات جميعا ، ومن الياء التي يسمونها ياء المخاطبة ، نحو اضربني وتضربين ، لأن ياء المخاطبة تستدعي انكسار ما قبلها أيضا اذا كانت مداً ، أى اذا لم تقو بتحريك ما قبلها بحركة لاتناسب طبيعتها ، كما في قولك : اسعَى ياهذه وغيرها •

فالياء اذن سواء أكانت للاضافة أم للنسبة أم للمخاطبة تستدعي انكسار ما قبلها ، لأنها لينة ساكنة ، أما ياء المتكلم فأمرها واضح ، وأما ياء النسبة فهي ياء ثقيلة مكونة من ياءين أو لاهما ساكنة ، فاذا اتصلت هذه الياء بكلمة وجب أن يكون ما قبلها متحركا ، والياء التي ساكنان ، وهو مالا يألفه العرب في كلامهم ، ولا تنطلق به السنتهم ، وأن يكون مكسورا لأن طبيعة الياء اللينة تستدعي انكسار ما قبلها ، ليتحقق لها المد الذي يقوم عليه كيانها ، كما تستدعي الواو اللينة ضمّ ما قبلها ، والألف اللينة فتح ما قبلها • وأما ياء المخاطبة فتكون جامدة قوية حينا ولينة حينا آخر ، ولا تكون جامدة الا اذا اتصلت بفعل آخره ألف نحو اسعَى وتسعين ، وان لم يسبقها ألف كانت حالها حال الياء اللينة التي التفت الخليل الى أنها تستدعي أن يكون ما قبلها مكسورا ، وذلك نحو اضربني واقعدى وأنت تضربين وكم يكون الأصل الذي

استخرجه جامعا لمسائله لو قال ليس فى الدنيا حرف تلحقه الياء اللينة الا كان متحركا مكسورا •

ويؤيد ملاحظه الخليل من أن الحروف اللينة تستدعى تحريك ما قبلها بحركة تناسبها ما رآه عند من يميلون الألف نحو الياء ، فهم يميلون اذا كان الحرف الذى قبل الحرف المفتوح للمناسبة مكسورا نحو نبال وتلال ، وحملهم على الامالة سبق الكسرة فأمالوا الفتحة التى بعدها نحو الكسرة ، وتبع ذلك امالة الألف نحو الياء لتعذر التصويت بالألف اللينة وقبلها الكسرة أو حركة مماله نحو الكسرة اذ لا بد لها من فتحة قبلها •

(١١) ولاحظ الخليل أن الياء والواو اذا التقتا فى موضع وكانت الأولى ساكنة فان الواو تدغم فى الياء ، سواء أتقدمت الواو على الياء أم تأخرت عنها ، وذلك نحو (الطى) ، فانه من طويت ، فالواو هنا قبل الياء ، وقد حولت الواو فيها الى ياء وأدغمت الياء الأولى المنقلبة عن الواو فى الياء الأصلية • ونحو (الحى) فانها من الحيوان ، والياء هنا قبل الواو ، ولكن الواو حولت الى ياء ، وأدغمت الياء الأولى الأصلية فى الياء الثانية المنقلبة عن الواو (٢١) •

(١٢) ولاحظ الخليل أن الهمزة أشد الحروف الشديدة ، لأنها تخرج من أقصى الحلق ، وهو الذى عناء سيويه بقوله : «انها نبرة فى الصدر تخرج باجتهاد» (٢٢) • وقد نفت الخليل الى هذا حين رأى كثيرا من العرب يستقلون الهمزة الواحدة فلا يحققونها ، فهم يحذفونها ، وينقلون حركتها الى ما قبلها اذا كان ساكنا فيقولون : مَنْ بُوْكَ فى «من أبوك» ، ويبدلون مكانها حرفا من جنس حركتها اذا كانت ساكنة وكان ما قبلها متحركا ، فيقولون فى رأس وبأس : راس وباس ، وفى بؤس ومؤمن : بوس ومومن ، وفى ذئب ورئم : ذيب ورئم • واذا كانت الهمزة مضمومة وقبلها

(٢١) التهذيب ج١ ص ٢٤ • مخطوطة بدار الكتب •

(٢٢) الكتاب ج٢ ص ١٦٧ •

ضمة أو كسرة فانك تصيرها بين بين ، وذلك قولك : « هذا درهم اختك ومن عند امك » كما كان الخليل يقول • (٢٣)

ورأى أن أكثر العرب يحذفون الهمزة في مثل شك ولاث ، فيقولون شك " ولاث " (٢٤) ، « لئلا يهمز ما ليس أصله الهمز لأن الهمز مستقل عندهم » • (٢٥)

فاذا كان العرب يتخففون من الهمزة الواحدة فما ظنك بهم اذا اجتمعت همزتان ؟ لاشك أنهم كانوا يستقلون النطق بهما حتى عند أشد العرب تصويتا بالهمز وهم بنو نعيم • والعرب جميعا يلتقون في تخفيف الهمزة الثانية ، اذ ليس من كلامهم أن تلتقى همزتان فتحققا •

واذا اجتمعت الهمزتان فاما أن تكونا في مقطع واحد من الكلمة واما أن تكون احدهما في آخر مقطع والثانية في أول مقطع يليه ، واما أن تكون الأولى مفصولة عن الثانية بحرف ساكن •

فان اجتمعتا في مقطع واحد نحو آدم وأخر سهلت الثانية ، أو حذفت ومدت حركة الأولى ، فقبل آدم وآخر • (٢٦)

وان كانت احدهما في آخر مقطع ، والثانية في أول مقطع يليه ، أبدلت فيقال في أئمة : أئمة ، وفي آئب : آيب •

وان كانتا مفصولتين بحرف ساكن ، نحو أراى مضارع رأى حذفت الثانية ، وألقيت حركتها على ما قبلها اذا كانت كثيرة الدوران في الكلام ، كهذا المثال الذى ذكرناه ، فقيل : أرى ، ثم سرى هذا الحذف في نرى ويرى

(٢٣) الكتاب ج ٢ ص ١٦٧ •

(٢٤) الكتاب ج ٢ ص ٣٧٨ •

(٢٥) شرح الرضى على الشافية ص ١٠ •

(٢٦) التطور النحوى للغة العربية لبركستراسر ص ٢٥ •

وان لم يؤد اظهار الهمزة فيها الى اجتماع همزتين ، قياسا على أرى وجريا وراء التخفيف لكثرة الاستعمال •

وبلغ من استئقال العرب الهمز أن كانوا يخففون احدى الهمزتين اذا اجتمعا في كلمتين نحو جاء اشراطها ، واختلف العلماء في التي يخففونها • فأبو عمرو بن العلاء يخفف الأولى ، والخليل يخفف الثانية قياسا على تخفيف الثانية اذا اجتمعا في كلمة واحدة • وقد سئل الخليل عن ذلك فقال : «انما اخترت تخفيف الثانية لاجتماع الناس على بدل الثانية في قالهم آخر وآدم ، لأن الأصل في آدم أدم وفي آخر آخر» (٢٧) ، وعلى هذا انبنى مذهب الخليل في القلب •

والقلب ظاهرة لغوية منشؤها ميل العرب الى التخفيف مما يثقل على ألسنتهم ، وأكثر ما تكون هذه الظاهرة في المهموزات ، بل هو عند الخليل لا يكون الا في المهموزات لأن الهمزة أشد الأصوات الشديدة جميعا ، ومخرجها فتحة المزمار ، والتصويت بها يقتضى اغلاق فتحة المزمار اغلاقا تاما ، والعرب يهربون من الهمزة فيسهلها قوم ، ويبدلها قوم ، ويحذفها آخرون • والقلب عند الخليل يكون قياسا في كل كلمة يؤدي ترك القلب فيها الى اجتماع همزتين (٢٨) :

١ - كاسم الفاعل من الأجوف المهموز اللام ، نحو جاء وشاء وساء من جاء وشاء وساء ، لأن القياس في الأجوف الصحيح الآخر أن يقلب حرف العلة همزة اذا صيغ منه اسم فاعل ، كقائل وبائع من قال وباع ، فاذا كانت لامه همزة اجتمع فيه همزتان ، فقلبت اللام الى موضع العين والعين الى موضع اللام ، فيكون فيه همزة واحدة هي لام الكلمة ، وكان الخليل يقول « ان

(٢٧) الكتاب ج ٢ ص ١٦٧ ، لسان العرب - حرف الهمزة •

(٢٨) شرح الرضى على الشافية ص ١٠ •

قولك جاء وشاء اللام فيهما مقلوبة • وقال : ألزموا ذلك هذا واطرد فيه اذ كانوا يقبلون كراهية الهمزة الواحدة ، وذلك نحو قولهم (العجاج) : «

لا ث بها الاشاء والعبرى

وقال «الطريف بن تميم العبرى» :

فتعرفونى اننى انا ذاكمُ شاك سلاحى فى الحوادث معلم» (٢٩)

٢ - وجمع ما كان بوزن فعيلة وهو مهموز اللام ، نحو خطيئة • والخليل يرى أنه لو ترك القلب فيها لأذى تركه الى اجتماع همزتين ، لأن القياس فى جمع فعيلة أن قلب ياؤها فى الجمع همزة ، فتقول فى صغيرة وكبيرة وعقيلة وجديلة : صغائر وكبائر وعقائل وجدائل ، وهو أكثر من أن يحصى ، وقد قال سيبويه : «ان ياء فعائل أبدا مهموزة لاتكون الا كذلك» (٣٠) ، فاذا كانت فعيلة مهموزة اللام كما فى نحو خطيئة قلت فى جمعها : خطائى فلزم اجتماع همزتين فقلبا بنقل الهمزة الى موضع الياء والياء الى موضع الهمزة ، ثم قلبت الهمزة المنقولة ياء مفتوحة ، لوقوعها بعد ألف ، وقلبت الثانية ألفا ، فصارت خطايا •

قال الخليل : «أصلها خطايىء بالهمزة بعد الياء التى كانت فى الواحد ، فجعلت الياء فى موضع الهمزة ، والهمزة فى موضع الياء ، ثم قلبت الهمزة التى كانت لام الكلمة ياء مفتوحة ، فوزنه فوالع» (٣١) •

٣ - وما كان بوزن فعلاء مهموز اللام نحو أشياء • • أشياء عند الخليل بوزن لفعاء ، بنقل الهمزة الأولى الى موضع الفاء ، وأصلها قبل القلب

(٢٩) الكتاب ج ٢ ص ٣٧٨ •

(٣٠) المصدر السابق •

(٣١) شرح الرضى على الشافية ص ٢٧١ •

شيءاً ، (٣٢) ، و شيئاً مما اجتمع فيه همزتان ، وليس بينهما حاجز حصين ،
على حد تعبير الرضى ، فاضطروا تحاشيا للثقل الناشئ من اجتماعهما الى قلب
الهمزة الى موضع الفاء ، فكانت أشياء •

أما ما ذكره ابن فارس من قلب في الكلمة ، ومثّل له بقولهم : جذب
وجذب وبكل ولبك ووصفه بأنه كثير (٣٣) ، وما ذكره الرضى من قولهم
اضمحل وامضحل ، واكفهرّ واكرهفّ (٣٤) ، فليس بقلب عند الخليل ،
لأنه كان يرى أن كل واحدة من هذه الكلمات وغيرها أصل مستقل ، فقد
جاء للخليل في نقول سيبويه عنه أن «جذبت وجذبت ونحوه ليس فيه قلب ،
وكل واحدة منهما على حدة» (٣٥) •

(١٣) ولاحظ الخليل أن بعض الحروف أشد من بعض وأقوى منه
جرسا ، واذا اجتمع في كلمة حرفان ، أحدهما قوى الجرس والآخر
ضعيفه ، وتجاوزا قدموا الأقوى منهما كما فعلوا في (وتد) و (ورل) ، ولم
تستعمل عندهم كلمة فيها الدال مقدّمة على التاء أو اللام مقدّمة على الراء • وقد
أيّد ابن دريد هذا بقوله : «ليس في كلامهم لرّ» • (٣٦)

وكذلك اذا لم يتجاوز الحرفان ، بل فصل بينهما أحد الحروف ، لم
يخل القوى من تأثير في الضعيف كما مرّ علينا من رأى الخليل وسيبويه في
قلب السين صادًا اذا وقعت السين قبل القاف في نحو قولهم : سبقت وصبقت ،
والسويق والصويق ، وفي قلب الصاد زايا في بعض اللغات اذا كانت الصاد
ساكنة ، كما في قولهم فلان يزدق في كلامه يريدون : فلان يصدق في كلامه •

(٣٢) الكتاب ج ٢ ص ٣٧٩ • شرح الرضى على الشافية ص ١٢ •

(٣٣) الصحابي لابن فارس ص ١٧٢ •

(٣٤) شرح الرضى على الشافية ص ٩ •

(٣٥) الكتاب ج ٢ ص ٢٨٠ •

(٣٦) الجمهرة لابن دريد ج ١ ص ١٢ «طبع حيدر آباد» •

وللحرف القوي تأثير في الضعيف حتى اذا قدم عليه فما يزال يؤثر فيه حتى يزحزحه عن مخرجه الأصلي ويجوله الى حرف أقرب ما يكون من مخرجه ، ليكون عمل اللسان في الحرفين واحدا ، كما كان ذلك في تاء الافتعال اذا وقعت بعد الطاء والظاء والزاي والصاد والضاد وغيرها ، وكما قلب نون انفعال واوا نحو اوّجل في انوجل * (٣٧)

وإذا اجتمع حرفان قوى وضعيف في كلمتين وتجاورا فتأثير القوي في الضعيف باق على قوته ، كما لو كانا في كلمة واحدة ، ومن هنا قلبت اللام راء في قوله تعالى : « كلا بل رآن على قلوبهم » وقلبت اللام الى جنس الحرف الذي يليها اذا كان هذا الحرف أحد الحروف التي سماها أهل التجويد الحروف الشمسية وهي التاء والثاء والذال والذال والراء والزاي والسين والشين والصاد والضاد والطاء والظاء والنون *

والحق أن تأثر الحروف بعضها ببعض ظاهرة معروفة في اللغات غير العربية أيضا ، فالأصوات الساكنة تؤثر في أصوات اللين قصرا ومدّا وتفخيما وترقيقا ، والأصوات الساكنة تؤثر في أخواتها الساكنة كما رأينا من تأثير القاف في الصاد والسين فيما مرّ من الأمثلة ، وكما يؤثر حرف **P** في الانكليزية في حرف **V** اذا وقعت قبلها ، كما كان في كلمة **Fivepens** فانها تلفظ **Fifepens** ، وكما تؤثر (n) في (d) في كلمة **Kindness** اذا كانت (d) مسبوقة بـ (n) ومملوءة بها فتحولها الى (n) فتكون **Kainness** (٣٨) * الى غير ذلك من الأمثلة *

غير أننا لانستطيع متابعة القدماء في وصف بعض الحروف بالقوة وبعضها الآخر بالضعف ، ولا نستطيع أن ندرك عوامل القوة والضعف كما تراءى لهم ،

(٣٧) الكتاب ج ٢ ص ٤١٥ *

(٣٨) *The Phonetics of English*, Dr. IDA C. WARD, P. 190

وكما فعل ابن جنى فى الخصائص ، فقد قال : «متى تقارب الحرفان لم يجمع بينهما الا بتقديم الأقوى منهما ، نحو أرل ، ووتد ، ووطد • يدل على أن الرء أقوى من اللام أن القطع عليها أقوى من القطع على اللام» (٣٩) اللهم الا اذا كان معنى القوة هنا قوة الوضوح فى السمع كما يفهم من قول الخليل من أن العين أنصع الحروف جرسا وألذا سماعا ، والقاف أصح الحروف جرسا ، وأن السين حرف لين هش ، والدال حرف لان عن صلابة الطاء وارتفع عن خفوت التاء •

كل ما هنالك أن الأساس الذى تبنى عليه هذه الظاهرة هو الاقتصاد فى الجهد العضلى وقد لاحظته الخليل وسيبويه ، وكانا يشيران اليه بين آن وآخر بقولهما : «ليكون عمل اللسان من وجه واحد» ، وهو الذى أفرهما المحدثون عليه ، فقد عقد والتر ريمان Walter Ripman فصلا فى تأثير الأصوات المتجاورة بعضها فى بعض : Influence of adjacent sounds وذكر عدة وجوه للتأثير ، ومنها ما أشار اليه الخليل بقوله « ليكون عمل اللسان من وجه واحد» ، من الاقتصاد فى الجهد العضلى فقد قال ما نصه :

When two kindred sounds come together, those movements that are common to both are made only once. (٤٠)

ولم نعتز لل خليل على تصريح يصف به بعض الحروف بالقوة وبعضها الآخر بالضعف كما يعنيه ابن جنى ، وانما هو من عمل المتأخرين عنه ، وكل ما عثرنا عليه فى تعليل هذه الظاهرة هو ما أشرنا اليه من تحقيق الاقتصاد فى الجهد العضلى وتحقيق الانسجام الموسيقى فى أصوات الكلام •

(٣٩) الخصائص لابن جنى ج ١ ص ٥٣ •

(٤٠) P. 141, The English Phonetics, Walter Ripman

ومن هنا نرى أن الخليل كان موفقا كل التوفيق في ادراك الغرض اللغوى الذى استندت اليه هذه الظاهرة ، أعنى تحويل بعض الحروف الى جنس الحروف التى تجاورها مما يسميه علماء الأصوات المحذون : Assimilation * وقد عرض سيبويه لهذا فى مواضع متفرقة من كتابه ، وعقد له الفصول الخاصة فى آخر كتابه ، فى باب الادغام (٤١) .

وملاك هذه الظاهرة هو أنه اذا اجتمع صوتان أحدهما مهموس والآخر مجهور ، أثر أحدهما فى الآخر بحيث يصبحان مجهورين ، أو مهموسين ، تحقيقا للانسجام الصوتى والاقتصاد فى الجهد العضلى .

وهذا التماثل الذى تتمخض عنه هذه العملية الصوتية يكون جزئيا

Partial assimilation ويكون كليا Complete assimilation

أما الجزئى فيبدو فى مثل تأثر تاء (افتعل) بفائها ، أو العكس ، كتحويل التاء بعد الضاد والصاد الى طاء فى نحو اضطرب من اضرب ، واصطلم من اصطلم ومطلب من مطلب ، وتحويل التاء الى دال بعد الزاى نحو ازداد من ازتاد ، وتحويل الصاد الى زاي قبل الدال اذا كانت الصاد ساكنة ، كقولهم : التزدير فى التصدير ، والفزد فى الفصد ، وتحويل السين الى صاد ، وبالعكس قبل القاف ، كقولهم فى سقت وسبقت : صقت وصبقت ، وكقولهم فى السويق : الصويق . (٤٢)

وأما الكلى فأشهر حالاته حالة لام التعريف قبل أحد الحروف الشمسية فانها تصير تاء قبل التاء ، وسينا قبل السين ، وطاء قبل الطاء ، وضادا قبل الضاد ، وهكذا . (٤٣)

(٤١) الكتاب ج ٢ من ص ٤١١ - الى آخر الكتاب .

(٤٢) الكتاب ج ٢ ص ٤٢٦ ، كيردنى ص ٥٥ .

ومنه ادغام الطاء والذال والتاء والظاء والتاء والذال «يدغمن كلهنّ في الصاد والزاي والسين لقرب المخرجين لأنهنّ من الثنايا وطرف اللسان نجو قسّمت من قد سمعت ، ويسمّعون من يتسمعون ، وابعسّلمة من ابعث سلمة» (٤٤) •

ولاحظ الخليل أن كثيرا ما يألف العربي تحويل حرف معين الى جنس حرف آخر فيحرص عليه ، بالرغم من زوال العامل الذي أدّى الى قلبه وتحويله اذا كانا متجاورين أو يتوهم أنهما من مخرج واحد ، فيتعاقبان على لسانه في كلمة واحدة ، كما فعل في قلب اللام نونا في أصيلان ، وانما أصله أصيلا (٤٥) • وكما حوّلت تاء عصيت الى كاف فقالوا : عصيكا ، وكما يقال انهم فعلوا في تحويل الألف الى هاء في (مهما) التي يرى الخليل أن أصلها كان (ماما) ، وهو تحول خاص اصطلاح المحدثون على تسميته بالتحول التاريخي ، وما عنعه تميم ، وكشكشة أسد ، وطمطمانية حمير ، وغيرها من اللهجات العربية القديمة - في أكبر الظن - الأَمْظَاهِر للتطور التاريخي للأصوات ، وكان الخليل قد لمح هذه الظاهرة في ألفاظ وتعبيرات كثيرة عرضنا لبعضها وسنعرض لبعضها الآخر •

والتطور التاريخي للأصوات قانون لغوي عام ليس في العربية وحدها بل في سائر اللغات الأخرى أيضا ، ففي الانكليزية أمثلة كثيرة خضعت لهذا القانون العام كما عرض له دارسو الأصوات الانكليزية ، فالأصل الذي كانت عليه كلمة Nature مثلا هو Natiur ولكنها الآن تلفظ Natsher

(٤٣) الكتاب ج ٢ ص ٤١٦ •

(٤٤) الكتاب ج ٢ ص ٤١٩ •

(٤٥) الكتاب ج ٢ ص ٤١٥ •

وهكذا غيرها من الكلمات التي تنتهي بالمقطع (Ture) الذي أصبح الآن
يلفظ (Tsher) . (٤٦)

ومن ذلك ما سار عليه العرب في قلب النون لاما في الا ، انما أصلها ان لا
وما فعلوه في عاعيت وحاحيت ودهديت ، فان أصلها ، كما يقول الخليل : عيعيت
وحيحيت ودهدهت • ويستدل الخليل على أن عاعيت وحاحيت وأمثالهما لم
تكن بوزن فاعلت ، وانما هي بوزن فعلت «بأنك تقول الهاهة والحاحاة
والحيحاء كالزلزلة والززال (٤٧) ، ولو كانت (فاعلت) لكان مصدرها فعلا
أو مفاعلة ، كقاتل قتالا ومقاتلة •

وقلب أحد الحرفين المضعفين لغة كانت موجودة ولكنها قليلة مال اليها
بعض العرب ، لأنهم كانوا يستقلون التضعيف ، ونصّ عليها سيويه ، ومثّل
لها بقولهم : تسريت وتظنيت وتقصيت (من القصة) . (٤٨)

وظاهرة الابدال من الظواهر اللغوية التي لاحظها الخليل وكان له فيها
أقوال وآراء • والابدال عنده يتحقق في حالتين :

(١) أن يستند الابدال فيها الى عنصر القرابة والمثابهة ، أو عنصر الاتصال
والجوار ، وهي الحالة التي اصطلح المحدثون على تسميتها :
Juxtapositional assimilation.

(٢) أن يستند الابدال فيها الى عامل التطور التاريخي ، كأن يتطور الصوت
تطورا يترشح فيه عن مركزه ، فينتقل الى مخرج مجاور قبله أو بعده ،
وهي الحالة التي اصطلح المحدثون على تسميتها :
Historical assimilation.

P. 185 The Phonetics of English, Dr. IDA C. WARD (٤٦)

• الكتاب ج ٢ ص ٣٤٧ (٤٧)

• الكتاب ج ٢ ص ٤٠١ (٤٨)

أما الحالة الأولى فيندرج تحتها نوعا الادغام اللذان عرضنا لهما ، وهما
الادغام الجزئى والادغام الكلى •

وأما الحالة الثانية فتشمل هذه المسائل التي عرضنا لها منذ قليل ، وكان
الخليل قد تنبه لها ، ومنها رأى الخليل فى (مهما) وهى كلمة مركبة من مقطعين
من جنس واحد ، استهجن العرب نطقها على هذه الصورة ، كما كان الخليل
يقول ، فاضطروا الى الابدال ، وهى عنده مركبة من (ما) الشرطية و (ما) التي
تلحق (أين) فى قوله تعالى : «أينما تكونوا يدرككم الموت» ، و (أيّا) ما تدعوا
فله الأسماء الحسنى •

وقد سأله سيبويه عنها فقال : هى (ما) أدخلت معها (ما) لغوا ••••• ولكنهم
استقبحوا أن يكرروا لفظا واحدا ، فيقولوا (ماما) فأبدلوا الهاء من الألف التي
فى الأولى» (٤٩) •

ومنها رأيه فى ابدال الهمزة من الألف اللينة التي يوقف عليها ، فقد
روى أن بعضهم يقول : رأيت رجلاً ، وهذه جبالاً ، وهو
يضر بها ، وعلل هذه الظاهرة بانتقال الألف الى موضع الهمزة «حيث علم أنه
سيصير الى موضع الهمزة فأراد أن يجعلها همزة واحدة» • وهذا التعليل الذى
علل به الخليل ابدال الهمزة من الألف قريب جدا من مأخذ المحدثين فى تفسير
هذه الظاهرة •

وتشمل الحالة الثانية أيضا ما يسميه المحدثون **Dissimilation**
اى «مخالفة» ، وهو ما يتوفر فيه التماثل الذى يستدعى الادغام ، ولكن ظروفها
خاصا حالت دون أن يستمر التماثل كما مر من قول بعض العرب : تسريت
من تسررت ، وتظنيت من تظننت ، وتقصيت من تقصصت • وكما اذا اجتمع

(٤٩) الكتاب ج ١ ص ٤٣٣ •

واوان في أول الكلمة على صورة لم يألّفها العرب في كلامهم ، أو ثقلت على ألسنتهم ، فقد سئل الخليل يوما : «لِمَ قالوا في تصغير واصل أو يصل ولم يقولوا وويصل ؟ فقال : كرهوا أن يشبه كلامهم بنبح الكلاب» •

الواقع أن مذهب الخليل في كل كلمة ابتدئت بواوين هو قلب الأولى منهما همزة أو تاء ، وسواء أقلت همزة أم تاء فان الغرض هو التخلص من الواوين ، لأنه وجد العرب يستقلون اجتماعهما في أول الكلمة ، فاذا أرادوا أن يصغروا (واصلا) قلبوا الألف واوا ، على مقتضى أسلوبهم في الكلام حين يصغرون (فاعلا) ، فلا بد أن يقولوا : (وويصل) ، ولكنهم استثقلوا هذا ولم يألّفوه ولم يستسيغوا موسيقاه ، فأبدلوا الواو الأولى همزة ، فقالوا : أو يصل • وربما قلبوا الواو الأولى تاء كما زعم الخليل أن تولج : فوعل وأصلها وولج فأبدلوا التاء مكان الواو • (٥٠)

قال سيبويه : «سألت الخليل عن (فُعل) من وأيت فقال : وؤى كما ترى ، فسألته فيمن خفضت الهمزة فقال : أوى كما ترى فأبدلوا من الواو همزة • فقال : لا بد من الهمزة ، لأنه لا يلتقى واوان في أول الحرف» • (٥١)

فهو يثبت الواو على لغة من يهمز ، ويقول وؤى ، لأنه لم يجتمع واوان في أوله ، بل واو وهمزة ، ويبدل على لغة من يسهل الهمزة ، فيقول أوى ، ولم يقل ووى ، لأنه بهذا يجمع بين واوين وهو ملاحظ أن العرب لم يألّفوه • ووجود واوين في أول الكلمة كاف في الإبدال سواء أكانت الواوان متحركتين كما في (وويصل) أم كانت ثانيتين ساكنة كما في (وولج ، ووى) •

أمّا تعليله الذي أجاب به سائله عن تصغير واصل فلم يقصد به إلى تعليل هذه الظاهرة ، بل لا يصح أن يكون تعليلا لها ، وكل ما قصد إليه هو لفت الذهن إلى طبيعة العرب اللغوية وحسّهم الموسيقي •

(٥٠) عيون الاخبار لابن قتيبة ج ٢ ص ١٦٠

(٥١) الكتاب ج ٢ ص ٣٥٦ •

هذا ما استطعت الوصول اليه من نتائج توصل اليها الخليل ، ومن أقوال وآراء أملاها على تلاميذه في دراسة ما يسمى بعلم الأصوات ، وهي دراسة جديدة كل الجدة بالنسبة الى ما كان يدور في معاهد البصرة من ثقافات عربية اسلامية • ومهما يقل في مصدر هذه الدراسة فان الخليل بن أحمد أول من عرض لها بين علماء العربية ، وأول من نبّه الأذهان الى ضرورة مثل هذه الدراسة لفهم اللغة وفقه بنائها العام ، وأول من لفت الأنظار الى الصوت وأهميته ، والى دراسة مخارج الحروف وتكوين الأصوات وتمازج بعضها مع بعض ، وما يأتلف منها وما لا يأتلف •

ومهما يكن الدافع الى العناية بهذه الدراسة فانها كانت ذات أهمية بالغة في تفسير كثير من الظواهر اللغوية ، كالادغام والابدال والامالة والقلب والتضعيف وغيرها •

ويغلب على الظن أن اليونان هم أول من عنى بدراسة الأصوات ، ويعود الفضل في قيام هذه الدراسة بين اليونانيين الى أمثال أفلاطون وأرسطو وغيرهما من الفلاسفة ، وكان الدافع الى هذه الدراسة هو حرصهم على سلامة نحوهم وعنايتهم بقواعده •

ويذهب الدكتور فؤاد حسنين الى أن الدارسين اليونان في الأصوات كانوا يعنون قبل كل شيء ، بالظواهر الصوتية من ناحية السماع ، ولم يعنوا بمخارج الأصوات وأعضاء النطق (٥٢) •

ثم اذا بالشعب الهندي - وقد اضطرت له رغبته في اجادة ترتيل الكتاب المقدس المعروف بفيدا Veda - يهتم بما خلفه اليونان ، ويضيفون اليه

(٥٢) محاضرات الدكتور فؤاد حسنين على طلبنة اللهجات العربية

١٩٤٩ - ١٩٥٠

دراسة تناولت مخارج الحروف ، فاستكملوا ما فات اليونان استكمالاً ، وبذلك

خلفوا لنا ماسماه المحدثون علم الأصوات الوصفى **Discription Phonetics**

ثم اذا بهذه الدراسة أو بأصولها تتسرب بواسطة الخليل الى معاهد
البصرة ، تناولها الخليل على أنها دراسة نحوية خالصة ، وقد سبق أن استظهرنا
أن الخليل انتقل بهذه الدراسة النحوية من كونها أداة للعمل القرآنى عند
من سبق الخليل من نحويين ، الى كونها دراسة مستقلة عن العمل القرآنى ،
وان كانت فى الوقت ذاته أداة صالحة له استفاد منها المهتمون به ♦

وسبق اليونان والهنود الى هذه الدراسة لايغنى أن الخليل نقل بحوثهم
فيها الى العربية نقلاً ، فهو اذا أخذ الفكرة الرئيسية منهم فقد أخذ يطبقها على
لغة جديدة تختلف عن لغة اليونان ولغة الهنود فى عدد الحروف وفى أصولها
وفى مدارجها فى الفهم ، وتنبه الخليل اليها لايغنى أنها كانت معروفة كل
المعرفة فى المعاهد العلمية البصرية ، فليس كل دارس فى هذه المعاهد
(خليلاً) ♦

يؤيدنى فى ظنى هذا أن الدارسين غير الخليل لم يعرف لهم رأى ، ولم
يرو سيويه فى كتابه لثيوخه الآخريين ما نطمئن الى أنهم كانوا على صلة
بهذه الدراسة ، وأن هذه الجهود التى بذلها الخليل ظلت بعد وفاته فى طي
الكنمان تقريباً ، اللهم الا ما ظهر لدارسى القراءات من كتب فى التجويد ليس
فيها تجديد ، ولم تبين على غير المنهج الذى سار عليه الخليل ، ثم احتواها
الحمول ، ولم يتبها لها العالم العربى الا أخيراً عن طريق الدراسات الحديثة
التي نهضت فى القرن التاسع عشر ، حين عنى المحدثون باللغات اليونانية
والهندية السنسكريتية ، ولا يزال اقبال الدارسين العرب عليها محدوداً ضيق
النطاق ، بحيث لم يظهر فيها فى العربية الا كتاب أو كتابان ، والا محاضرات
مقصورة على طلبة الكليات التى تعنى بمثل هذه الدراسة ♦

أقبل الخليل على هذه الدراسة الجديدة يدرسها دراسة ذوقية خالصة ، تستند الى الملاحظة والحس اللغوي بوصفه عربى الملكة والسليقة ، وقد عرفنا كيف بدأ بتدقيقها ، ووقفنا على كثير من النتائج التى توصل اليها مما نقله اليها تلاميذه •

وإذا استطاع الخليل أن يستفيد من مجتمعه ، فيصغى الى حديث المتحدثين من العرب وغيرهم ، ويميز بين الأصوات التى يألفها العرب ، والأصوات التى لا يألفونها ، وأن يحصر الأصوات العربية حصرا مبنا على فهم الطبيعة العربية ، فيعرف العربى الخالص الذى اختص به العرب ولا يشركهم فيه غيرهم ، والأصوات التى يشترك فيها العرب وغير العرب ، اذا استطاع الخليل ذلك فقد جاء بفتح عظيم ، وحق للعالم العربى أن يكبر هذه العقلية النادرة الفذة •

ولم يستطع الدارسون من بعده أن يواصلوا السير فى الطريق التى رسمها لهم أو يستأنفوا السير من حيث وقف ، وكان الاستمرار فى هذه الدراسة أسهل وأقرب تناولا ، وخاصة بعد اتساع حركة الترجمة ، ووقوف العلماء على ما حولهم من ثقافات الأمم الأخرى ، ومن بينهم نحو اليونان ونحو الهند •

كان حسبهم أن يقول الخليل شيئا ، فيتناولوه على أنه قضية مسلم بها ، ولذلك لم نجد عند علماء العربية من بعده زيادات ذات بال ، اللهم الا مسائل جزئية تدرج فى الأصول العامة التى عرض لها الخليل ، ونبه اليها الأذهان ، كالذى نقرؤه فى كتب ناس عرفوا بأنهم عنوا بهذه الدراسة وأسهموا فى تنظيمها وتهذيب أصولها وتتبع مسائلها كاصحاب التجويد ، وبعض اللغويين والعلماء ، كابن دريد فى الجمهرة ، والأزهري فى التهذيب ، وابن جنى فى

سر صناعة الاعراب وفي بعض أبواب الحصاص ، وابن فارس في الصحابي
وغيرهم •

ونبه الخليل فقهاء اللغة الى ضرورة هذه الدراسة في فهم اللغة وفهم
بنائها العام ، فاحتذى العلماء خطواته حين شرع بوضع معجم عام يضمه كلام
العرب ، فوضع ابن دريد كتاب الجمهرة ، وصدده بمقدمة يبحث فيها عن
الحروف ومخارجها وصفاتها وتمازجها بحثا مقتبسا من كلام الخليل ، فاذا ما
شرع في معجمه بناه على المنهج الذي بنى الخليل عليه كتاب العين • ووضع
الأزهرى كتاب التهذيب وفعل ما فعله الخليل ، وسرد في مقدمته أقوال الخليل
وآراءه في الأصوات ومخارجها وخصائصها وتألفها ، وأقام ترتيب كتابه على
ما أقام عليه الخليل كتاب العين • ووضع ابن جنى «سر صناعة الاعراب» وهو
كتاب في دراسة الحروف وذكر أجناسها وصفاتها وما يتألف منها وما لا يتألف ،
ولم يسر فيه على ما سار عليه الخليل في ترتيب حروف الهجاء ، فقد بدأ بالهمزة
وانتهى بالياء ، وكتابه هذا هو أول كتاب عنى في جميع أبوابه بهذه الدراسة
التي وضع الخليل أصولها • وغير هؤلاء كثير ممن نقل أقوال الخليل وغيره ،
واكتفى بتدوين هذه الأقوال ، كابن منظور في مقدمة كتابه (لسان العرب) ،
وفي أوائل أبوابه ، وكابن الحاجب والرضي في متن الشافية وشرحها ،
وكالسكاكي في مفتاحه ، وغيرهم •

وكما كان الدافع الأول الذي دفع الهنود الى تناول هذه الدراسة دافعا
دينيا كانت العناية بالقرآن الكريم وقراءته واقراءه دافعا لطائفة القراء الذين
أدركوا ضرورة الانتفاع بهذه الدراسة في ضبط القراءة وضبط أصولها ،
فأخذوا هذه البحوث الخاصة بالأصوات وما بنى عليها من بحوث في
التضعيف والادغام والمخالفة والامالة والابدال ، وأضافوا اليها أحكاما ،
ووضعوا لها مصطلحات جديدة ، وكان لديهم مما أخذوه ومما استخرجوه علم

جديد سموه علم التجويد • وإذا بحثت في أصول هذا العلم ومسائله عرفت أنها أصول ومسائل لا تخرج عن كونها في الأصوات ومخارجها وصفاتها وأحوالها المختلفة •

يقول بر كستراسر : « كان علم الأصوات في بدايته جزءا من النحو ثم استعاره أهل الأداء والمقرئون ، وزادوا فيها تفصيلات كثيرة مأخوذة من القرآن الكريم » •

وبر كستراسر على حق في هذا ، فإن أقدم كتاب لدينا في النحو هو كتاب سيويه ، وكانت الدراسة الصوتية مثبتة في ثنياه ، والأبواب الخاصة بمحوت فيها على أنها من النحو ، فلما شعر القراء بضرورة الاستفادة منها أخذوها عن النحاة ، وتوسعوا فيها ، وزادوا فيها أشياء جديدة اقتبسوها من القرآن والروايات التي كانوا يتناقلونها خلفا عن سلف ، حتى أصبح علم التجويد علما مستقلا لا علاقة له بالنحو الخاص الاصطلاحى الذى كاد اخيرا يفصل انفصالا تاما أيضا عما صحبه من فروع الدراسات العربية الأخرى كعلم الصرف وعلم الأصوات •

(٤)

خطوة نحو التطبيق

لم يكن الخليل يهدف من دراسة الأصوات وتحديد مخارجها ، واستخراج صفاتها وترتيبها ترتيبا جديدا الى غرض نظرى أو الى نوع من المعرفة المجردة ، وانما كان يهدف الى تحقيق غرض عملى هو دراسة اللغة ، واستخراج قوانينها العامة ، وجمع مفرداتها فى معجم يسهل على الدارسين تناوله ، والوقوف على جزئياته ومسائله ، ليتسنى له بذلك التسهيل على الدارسين من جهة ، وحفظ اللغة الأصيلة من خطر الدخيل من جهة أخرى .

أخذ الخليل بعد انتهائه من دراسة حروف الهجاء على تلك الصورة التى ابتأها يصنف اللغة فى كتاب ولكن لا كما فعل أبو عمرو ، ولا كما فعل أبو زيد والاصمعى وأبو عبيدة ♦

وقبل أن يصنف الكلمات على حسب الحروف لينشئ كتاب العين عمد

الى :

١ - جمع اللغة عن طريق الرواية والسمع من فصحاء العرب الوافدين ، والأخذ عن شيوخه كأبى الخطاب وأبى عمرو بن العلاء ، والتجول فى بوادى الحجاز ونجد وتهامة ، وهو فى طريقه الى بيت الله الحرام فى حجاته الكثيرة ♦

٢ - احصاء اللغة احصاء رياضيا يشمل ما استعمل وما أهمل ، وان كان لم يذكر فى كتاب العين الا ما كان مستعملا ♦

٣ - تصنيف الكلمات بحسب أصولها ، وقد وجد أنها ثنائية وثلاثية ورباعية وخماسية ، وأخذ يستخرج الوجوه المحتملة من كل طائفة من هذه

الطوائف ، فإذا به يجد نفسه أمام عدد هائل من الكلمات •
 يروى السيوطى عن حمزة بن الحسن الأصفهاني أن الخليل
 «ذكر في كتاب العين أن عدد أبنية كلام العرب المستعمل والمهمل على
 مراتبها الأربع من الثائى والثلاثى والرابعى والخامسى من غير تكرار
 اثنا عشر ألف ألف وثلاث مائة ألف وأربع مائة واثنا عشر
 ١٢٤١٢٠٥٠٣٠١٢» (١) •

٤ - النظر فى كل طائفة على حدة ، نظر فى الثائيات فوجد أن كل ثائية
 تتصرف على وجهين يتأنيان من صورتها الأصلية ومقلوبها ، نحو قد و
 دق ، ومن ونم ، وهل وله ، ولم ومل الخ ••

ونظر فى الثلاثيات فوجدها تتصرف على ستة أوجه سماها سدوسة ،
 كما جاء فى رواية الليث نحو : ضرب ، رضب ، ربض ، ضبر ، بضر ، برض •
 ونظر فى الرباعيات فوجدها تتصرف على أربعة وعشرين وجها •
 ونظر فى الخماسيات فوجدها تتصرف على مائة وعشرين وجها (٢) •

واستطاع بتصريف الكلمات على تلك الصورة الرياضية أن يحصر ما
 يمكن أن تكون عليه الكلمة من وجوه بحسب ترتيب حروفها ، وهو يعلم
 أن كثيرا من هذه الصور لم يستعملها العرب فاقصر على ما استعملوه وحصره
 وبنى عمله الجديد عليه ، وليس هو الا تخطيطا لمعجم يتضمن مفردات العربية ،
 وهو ما أشار به على تلميذه الليث فى أثناء أقامته فى خراسان أن يقوم به ،
 ولا يعنينا الآن أن نعرض لصحة نسبة الكتاب الى الخليل وعدم صحتها ، ولكن
 الذى يعنينا الآن هو هذا التخطيط الذى رسمه الخليل وأبانه لتلميذه ، لأن

(١) المزهر للسيوطى ج ١ ص ٤٥ «مطبعة السعادة» •

(٢) الجزء المطبوع من كتاب العين ص ٩ •

الذى لاشك فيه كما لم يشك القدماء فيه أن تخطيط الكتاب من عمل الخليل
لا من عمل الليث ولا غيره لأنه عمل بعقل الخليل أشبه وأصق *

قال الليث : « كنت أصير الى الخليل بن أحمد فقال لى يوما : لو أن
انسانا قصد وألف حروف أ ب ت ث على ما أمثله لاستوعب فى ذلك جميع
كلام العرب ، وتهياً له أصل لا يخرج منه شىء البتة * فقلت له : وكيف يكون
ذلك ؟ قال : يؤلفه على الثنائى والثلاثى والرباعى والخماسى ، فانه ليس فى
كلام العرب أكثر منه * قال الليث : فجعلت أستفهم ويصف لى ولا أفف على
ما يصف فأختلف اليه فى هذا المعنى أيما ، ثم اعتلّ وحججت فما زلت مشفقاً
عليه وخشيت أن يموت بعلته فيبطل ما كان يشرحه لى ، فرجعت من الحج
وصرت اليه فاذا هو قد ألف الحروف كلها على ما همى فى هذا الكتاب ، وكان
يملى علىّ ما يحفظ ، وما شك فيه يقول لى : سل عنه فاذا صح فأئبته الى أن
عملت الكتاب » (٣) *

وبقى الخليل يفكر فى رسم هذه الفكرة ، وبعد استقضاء وتدبر رأى أن
أصول الكلمات العربية تسعة وعشرون حرفاً ، هى حروف الهجاء ، وأن
الكلمة العربية لاتخرج أبداً عن كونها مؤلفة من بعض هذه الحروف * وبدأ
عمله بتدقيق الحروف فهدها تذوقه كما مرّ تفصيل الكلام فيه الى ترتيب
الحروف ترتيباً جديداً كان أول الحروف فيه هو العين ، وكان هذا الترتيب
الجديد مبنياً على ما لهذه الحروف من مدارج فى جوف الفم من الحلق الى
الشفقتين ، ولذلك كان أول باب فى المعجم هو الباب الذى تنطوى تحته الكلمات
التي تحتوى على حرف العين سواء أكانت العين مبتدأ بها أم غير مبتدأ بها *
وأول مادة بدأ بها هذا الباب هى العين مع القاف ، ثم القاف مع العين

(٣) معجم الادباء ج ١٧ ص ٥١ .

ثم العين مع الأرفع فالأرفع من الحروف الى أن انتهى الى العين مع الميم وهى
آخر الحروف الصحاح عنده ♦

وكان ربما أضاف الى الأحرف الأصول أحرفا من الزوائد ، فلا يرى
أنها تخرج عن أصل المادة المبحوث فيها ، فهو يذكر مثلا مادة (هطع) فيذكر
فيها (مهطع) و (مهطعين) و(هطوعا) ♦ وفى مادة (عزه) : العزهاة والعزهون
لأن الميم والياء والواو والهاء والتون زوائد ولا عبرة بالزائد عنده ♦

وقد يذكر العين مع أحد الحروف ولا يعرض لهما منعكسين ، لأن
عكسهما مهمل لم يثبت له استعمال فى العربية ♦

فإذا ما انتهى من الكلام فى العين مع احدى أخواتها فى فصل طويل
للشائيات دخل فى فصل جديد ، وهو : «الثلاثى الصحيح العين» ♦ وأول هذا
الباب هو «باب العين والهاء والقاف معهما» ، ولم يذكر من ذلك الا ما استعمل
من وجوه هذه المادة ، ولم يستعمل منها كما ذكر الا وجهان فقط هما : هقع
وعهق ♦

وهذا الباب كما رأينا يعتمد على العين وحرفين آخرين معها على أن يكون
كل من الثلاثة أصلا لا زائدا ، ولم يورد تحته كلمة الا وهى حاوية لهذه
الأصول الأساسية ، وليس معنى هذا أنه اقتصر على الأصول الثلاثة حسب
بل كان يشتق منها صيغا تحوى على زوائد يقنضها الاشتقاق ، وما دامت هذه
الحروف زوائد فلا عبرة بها ، ولا تخرج الكلمة عن الأصل الذى اندرجت
تحتة ♦ وكان يستشهد على صحة كلمة واستعمالها فى لغة العرب بأبيات من
الشعر وبآيات من القرآن الكريم ♦

هذا هو التخطيط الأساسى لكتاب العين ، وضعه وسار علماء اللغة
على مقتضاه زما طويلا ، وكان ممن سار على هذه الطريقة ابن دريد فى
الجمهرة والأزهري فى التهذيب ♦

ثم ابتدعت طريقة أخرى تعتمد على الحرف الأول والثاني وما يثلثهما •
وأقدم لغوى سار على هذه الطريقة هو ابن فارس فى كتابه «مقاييس اللغة» ،
ولا يبعد أن يكون هو مبتدعها كما يستظهر بعض الدارسين المحدثين (٤) ، وسار
عليها أيضا الزمخشري فى كتابه «الأساس» ، والفيومى فى «المصباح المنير» •

ثم ابتدعت طريقة ثالثة وهى الطريقة الأخيرة التى سار عليها معظم
أصحاب المعاجم والموسوعات اللغوية ، ويعتمد ترتيبها على الأصل الأول
والأخير ، وسمى الأول فصلا والثانى بابا • وقد ابتدئت بعمل الجوهري فى
«الصحاح» ، وتبع الجوهري فى هذه الطريقة ابن منظور فى لسان العرب ،
والفيروزابادى فى القاموس المحيط •

وهذه الطريقة الثالثة كالطريقة الثانية مبنية على معرفة الأصول التى
تبنى منها الكلمة ، هذا مع الرجوع الى ترتيب الحروف الذى نسبناه الى نصر
ابن عاصم فى عهد الحجاج بن يوسف • ولم يتأت الظهور لهاتين الطريقتين الا
بعد نضج دراسة الصرف واكتمالها ، ولم تنفصل هذه الدراسة بوصفها علما
خاصا له موضوعه الخاص الا بعد زمن الخليل ، والصرف فى عهده لم يخرج
عن كونه بحثا نحويا ، وكتاب سيبويه وهو كتاب فى النحو يتناول الموضوعات
التي تتعلق بدراسة الحرف ، ودراسة البناء العام للكلمة ، ودراسة التأليف ،
ولم يفصل دراسة عن أخرى من هذه الدراسات •

وقد ساعدت دراسة الصرف علماء اللغة على تأليف كتبهم فى نهج جديد،
لعله أن يكون أسهل من النهج الذى ابتدعه الخليل ، وسار عليه فى كتاب
العين • وطريقة الخليل فى كتاب العين سليمة لإعبار عليها ، بالرغم من أنها
تمثل الطور الأول من الأطوار التى مرّ عليها جمع اللغة فى معجم •

(٤) مقدمة لدرس لغة العرب «عبدالله العلايل» ص ١١٠ «المطبعة العصرية» •

وقد أخذ الأستاذ أحمد أمين على كتاب العين عيوباً ثلاثة ، بعضها يتناول المادة ، وبعضها يتناول الصورة ، أما ما يتناول الصورة فهو أول العيوب وثانيها ، وأما ما يتناول المادة فهو العيب الثالث ♦

قال الأستاذ في ضحى الاسلام : « وكان في كتاب العين جملة عيوب :

١ - صعوبة الأخذ منه لصعوبة ترتيبه ، لأنه رتب حروفه حسب المخارج كما علمت ، ومن الصعب تتبع هذا ، ولأنه خلط بين الثلاثي المضاعف والرباعي المضاعف ، وفيه أيضاً خلط كثير نبّه عليه الزبيدي في مختصر العين ♦

٢ - أنه يذكر الكلمة ومقلوبها ، فيذكر في مادة (ع ب د) مثلاً : (ب ع د) ، (د ب ع) الخ ♦ ♦ فمن الصعب عند البحث عن كلمة معرفة أيّها الأصل وأيّها المقلوب ♦

٣ - أنه وقع فيه تصحيف كثير ، لما علمت من أن الكتابة في ذلك العصر لم تكن تنقط ، وحروف اللغة العربية فضلاً عن ذلك متقاربة في الشكل» (٥) ♦

وقبل أن نعقب على مقالة الأستاذ في أمر هذه العيوب نريد أن نقول : اننا لا نريد أن نعرض لكتاب العين شكاً وريبة ، أو تصحيحاً وتقبلاً لصحة نسبته الى الخليل ، فقد يطول بنا الوقوف عند هذه المسألة فنبعد عن الموضوع الذي بنيت عليه هذه الرسالة ♦

ومهما يقل فيه فانهم لا يختلفون في أن طريقة الكتاب التي بنى عليها هي من عمل الخليل ، كما لا يختلفون في أن الخليل لو مدّ في أجله ، وتعمّد الكتاب بنفسه لما وقع فيه ما وقع من خلط ، فهو في نظر الدارسين أبعد من أن يقع في مثل هذه الغلطات التي استدركها علماء اللغة على كتاب العين ♦

(٥) ضحى الاسلام للاستاذ أحمد أمين ج ٢ ص ٢٦٩ ♦

يقول أبو بكر محمد بن حسن الزبيدي في أول كتابه «استدراك الغلط الواقع في كتاب العين» - كما يروى للسيوطي - : «ونحن نربأ بالخليل عن نسبة الخلل إليه ، أو التعرض للمقاومة له ، بل نقول ان الكتاب لا يصح له ، فتعاطى اتمامه من لا يقوم في ذلك مقامه ، فكان ذلك سبب الخلل الواقع فيه أو ولا يثبت عنه ، وأكثر الظن فيه أن الخليل سبب أصله ، ثم هلك قبل كماله ، الخطأ الموجود فيه» •

وروى عن الصولى أنه قال : «سمعت أبا العباس ثعلبا يقول : انما وقع الغلط في كتاب العين لأن الخليل رسمه ولم يحشه ، ولو أن الخليل هو حشاه ما بقى فيه شيئا لأن الخليل رجل لم ير مثله» • (٦)

فالخلط الذى لاحظه الأقدمون ، واستند اليه الأستاذ في سرد عيوبه لم يكن ليكون - فيما رأوا - لو أن الخليل تعهد الكتاب بنفسه ، ولكنه كما يكاد العلماء يجمعون من صنع تلاميذ الخليل ، ولعلمهم لم يفهموا قصد الخليل في ترتيبه فوقع ما وقع فيه من خلط •

أما من ناحية الطريقة فكونها علمية أمر لا غبار عليه ، وليس كون الكتاب مبنيًا على مخارج الحروف مما يعاب به ، فلو اصطح الدارسون على اعتبار المخارج أساسا لترتيب الحروف لما شعروا بالصعوبة التى ذكرها الأستاذ •

وأما أنه يذكر الكلمة ويذكر مقلوبها فتصعب عند البحث عن كلمة معرفة أيها الأصل وأيها المقلوب ، فهو أمر قد احتاط الخليل له ، واحتفظ لنفسه بالاجابة عنه ، فقد صرح في الكتاب أن مثل جذب وجذ ليس فيه قلب وانما كل واحدة منهما على حدة (٧) • وهذا يتمشى مع جميع ما ذكره ، فليست هذه الوجوه المتفرعة من قلب الكلمة في وجوهها المحتملة الا أصولا قائمة بذاتها •

(٦) المزهر للسيوطي ج ١ ص ٥٠ ، ٥١ «مطبعة السعادة» •

(٧) الكتاب ج ٢ ص ٢٨٠ •

وأما أنه وقع فيه تصحيف فأمر لايمس الطريقة التي نرى أنها علمية
لاغبار عليها •

هذا مع العلم بأن العلماء كانوا قد فرغوا من نقط الكلمات اعرابا منذ
عهد أبي الأسود الدؤلى فى ولاية زياد على المصريين (من ٤٩-٥٣ للهجرة) ،
ومن نقط الحروف اعجابا منذ عهد نصر بن عاصم فى ولاية الحجاج بن
يوسف الثقفى •

ثم خطا الخليل فى ذلك خطوة أخرى فوضع مكان نقط الاعراب رموزا
لهذه الحركات المعروفة ، من ضمة وفتحة وكسرة ، ووضع علامات أخرى
كالهمز والتشديد^(٨) • وقد سبق تفصيل ذلك فى فصل سابق •

فلا وجه اذن لما ذكره الأستاذ من «أن الكتابة فى ذلك العصر لم تكن
تنقط • وحروف اللغة العربية فضلا عن ذلك متقاربة الشكل» •
هذا وقد استفاد أصحاب المعاجم المتأخرون من الخليل فى كتاب
العين أمورا ، منها :

(١) فكرة جمع اللغة فى كتاب ، وعمل الخليل فى هذا الشأن أول عمل من
نوعه •

(٢) وأنهم بنوا فصول معاجمهم على الاصول فاذا أرادوا أن يعرضوا لكلمة
(أقاول) مثلا ، عرضوا لها فى مادة (ق و ل) ، مما باباه اللام ، وفصله
القاف ، ولم يعدوا الهمزة فصلا لأنها زائدة ، ولم يأخذوا الزوائد بنظر
الاعتبار كما كان الخليل يفعل تماما •

(٨) المقنع لابی عمرو الدانى ص ١٢٥ «مطبعة الترقى بدمشق» •

(٣) وأنهم كانوا يستعينون - كما كان الخليل يفعل - على توضيح المعنى
بايرادهم كثيرا من الشواهد من الشعر والأمثال ومن القرآن الكريم •
وقد تبه «بروكلمان» لهذا كما نصّ عليه في كتابه الذي ظهرت
ترجمته حديثا ، وهو «تاريخ الشعوب الاسلامية» • (٩)

(٩) تاريخ الشعوب الاسلامية ج٢ ص ٢٧ «طبع بيروت» •

الفصل الخامس

البناء العام للكلمة العربية

فإذا ما انتهى الخليل من تذوق الحروف ، والوقوف على خصائصها وطبائعها ، وما يتألف منه الكلام وما لا يتألف ، انتقل الى الخطوة التالية وهي البناء العام للكلمة العربية ، ولم تنتهياً له دراسة البناء العام قبل أن ينتهي من دراسة الحرف على النحو المذكور .

وقد مر بنا أن استظهرنا أن الخليل كان ينظر الى اللغة على أنها ظاهرة اجتماعية ، فلا بد أن تخضع لما تخضع له الظواهر الاجتماعية الأخرى ، ولا بد أن يدرسها دراسة علمية طبيعية قائمة على الاستقراء والتجربة .

وقد تتبع الخليل كلام العرب في مظانه ، فكان يخرج الى المربد يسمع من الاعراب الوافدين اليه ، وكان يتنقل في البوادي العربية خلال حجائه ، وكان الكسائي قد سأله ، وقد بهره منه علمه الجرم ، واطلاعه الواسع ، عن المصادر التي استقى منها علمه ، فأجابه الخليل بأنها بوادي نجد والحجاز وتهامة (١) .

ولما اجتمع له هذا المقدار الضخم من المرويات والمسموعات ، أخذ يطيل النظر فيها ، ويتعرف خصائصها ، كما فعل في دراسته للحروف .

وكان الخليل يعلم أن اتصال العرب بالأجانب في الأمصار المفتوحة وفي التعامل التجاري معهم كان قد أدخل على لغتهم كثيراً من الكلمات الأجنبية التي أخذ العرب يستعملونها ، ويخضعونها لطبيعتهم اللغوية وأساليبهم في

(١) نزهة الألباء ص ٨٣ .

التأليف حتى أثر الاستعمال فيها وغير شيئاً من ملامحها ، وكادت تخفى حتى على علماء اللغة الذين اهتموا برواية اللغة عن سلامة لغته وصحة ملكته ، وهذه تبعة ثقيلة نهض بها الخليل فيما نهض به من تبعات ، واستطاع أن يضع موازين يعرف بها العربي من غيره ، مستتبها هذه الموازين من طبيعة اللغة وحس العربي في لغته :

(١) لقد سبق أن بينا أن الخليل استطاع أن يحصر الأصوات العربية ، وأن يميز بين ما هو عربي خالص وما هو مشترك بين العرب وغيرهم ، وأن يقف على ما كان يألفه العرب وما لم يألفوه من تمازج بين الحروف ومن عادات صوتية تعودها العرب ، فاستطاع وهو يصرف النظر في اللغة أن يستبعد منها الكلمات التي تتألف من أصوات لا تنطق بها ألسنتهم ، ولا يألفها حسهم ، كما إذا اجتمع فيها خاء وغين أو خاء وهاء أو قاف وكاف أو قاف وجيم ، الى غير ذلك مما كان الخليل يرى أنه ليس من طبيعة لغتهم ♦

(٢) وكان الخليل قد التفت الى أثر الاستعمال في اللغة وعرف أن العرب كانوا يميلون الى التخفيف من كل ما يثقل على ألسنتهم ، خصوصاً اذا كان كثير الدوران في الكلام ، والتفت الى أن أخف التراكيب عند العرب ما كان مؤلفاً من ثلاثة أصوات ، فاذا زاد على الثلاثة ثقل على ألسنتهم ، ولذلك كانت الكلمات التي تزيد أصولها على ثلاثة أقل من الثلاثيات ، وكانت الخماسيات أثقل التراكيب جميعاً ، ولكن العرب مضطرون أن يستعملوا ما زاد على ثلاثة أصول ، ولم يعدموا الحيلة في ان يخففوا شيئاً من ثقل هذه الأبنية ، فكانوا يضمونها حروفاً تنطق بها ألسنتهم بخفة ويسر ، وهي الحروف التي سماها الخليل حروف الذلاقة ، أعنى الراء واللام والنون والفاء والباء والميم ، «فليس شيء من بناء الخماسي التام يعرّى منها أو من بعضها ، قال الخليل :

فان وردت عليك كلمة رباعية أو خماسية معرفة من الحروف الذلق والشفوية ، فاعلم أنها مولدة وليست من صحيح كلام العرب» (٢) .

أما الأبنية الرباعية فلها حكم آخر ، لأنها وسط بين الثلاثية والخماسية ، فاذا كانت أثقل من الأولى فهي أخف من الثانية ، ولذلك وجد الخليل أن من الأبنية الرباعية ما يخلو من هذه الحروف أو احدها ، ولكنه رأى أنها اذا خلت من أحرف الذلاقة فلا بد أن يعوض عنها بالعين والقاف أو احدهما ، وبالسین والدال أو احدهما ، وكان يقول : «مهما جاء من بناء اسم رباعي منبسط معرى من الحروف الذلق والشفوية فإنه لا يعرى من أحد حرفي الطلاقة أو كليهما ومن السین والدال أو احدهما ، ولا يضر ما خالطه من سائر الحروف الصتم» (٣) .

أما العين والقاف فكان يسميها حرفي الطلاقة ، لأن العين عنده أنضع الحروف جرسا وألدها سماعا ، والقاف عنده أصح الحروف جرسا .
وأما السین والدال فهما حرفان لينان ، فالسین حرف هش قد استخففته العرب في بناء استفعال ، والدال حرف لان عن صلابة الطاء وارتفع عن خفوت التاء .

فالذي خفف مثل كلمة (عسجد) عنده وان خلت من أحد أحرف الذلاقة هو وجود العين والسین والدال فيها .

فلو جاءت أبنية رباعية خالية من أحد أحرف الذلاقة ، وفيها العين وحدها ، أو السین وحدها ، نفى أن تكون عربية ، ولو جاءت روايتها عن ثقة ، ولذلك كان يعدّ مثل (قعش) بناء دخيلا لم يألّف العرب أمثاله . (٤)

- (٢) الجزء المطبوع من كتاب العين ص ٥ . لسان العرب - حرف الباء .
(٣) الجزء المطبوع من كتاب العين ، ص ٦ . لسان العرب - حرف الباء .
(٤) التهذيب للزهرى ج ١ ص ٢١ مخطوطة بدار الكتب رقمها : «٩ لغة» .

وسأله الليث : « كيف تكون الكلمة المولدة المتبدعة غير مشوبة بشيء من هذه الحروف ؟ فقال : نحو الكشعجج والحضعجج والكشعصجج وأشباهن ، فانهنّ مولدات لا تجوز في كلام العرب لأنه ليس فيهن شيء من الحروف الذلق والشفوية ، فلا تقبلنّ منها شيئاً ، وإن أشبه لفظهم وتأليفهم ، فإن دخيل التجار يرميهم بها ، إذ ربما أدخلوا على الناس ما ليس من كلام العرب ارادة اللبس والتعنت » . (٥)

(٣) وكان الخليل قد استطاع باستقراءه الطويل الدائب أن يحصر الأمثلة والأوزان التي بنيت عليها الكلمات العربية ، وأن يطمئن الى أن ما يخالف هذه الأمثلة ليس من الأبنية التي يألّفها العرب ، وإنما هو مولد ، ولذلك جاء في الكتاب : أنه ليس في الكلام فاعيل ولا فاعول ولا فاعلاء ولا فعيل ولا فعلى ولا فعلوان . (٦)

وجاء في الجمهرة عن الخليل أنه « ليس من كلامهم فعيل إلا مصنوعاً » . (٧)

فللخليل لمعرفة الدخيل من الأصيل ثلاثة موازين ، توصل اليها بدراسة الحروف وخصائصها واستقراءها في ثنايا الكلمات ، وتتبع الأمثلة التي بنيت عليها الكلمات العربية :

- (١) أن يجتمع في الكلمة حرفان لم يألّف العرب اجتماعهما .
- (٢) وأن تكون الكلمة رباعية أو خماسية وليس فيها حرف أو أكثر من أحرف الذلاقة .
- (٣) أن تكون الكلمة على مثال خاص لم يبين العرب كلامهم على مثله .

(٥) الجزء المطبوع من كتاب العين ص ٥٠

(٦) الكتاب ، ج ٢ ص ٣١٨ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ .

(٧) الجمهرة ، لابن دريد ج ١ ص ٤٠

(١)

كيف تتألف الكلمات

تتألف الكلمات عند الخليل بضم بعض الأصوات الى بعض وهي انما تتألف من الحروف الصامتة الساكنة ، وهي ساكنة خلو من الدلالة على معنى من المعاني ، بل لا يستطيع النطق بها ، حتى يتوصل الى ذلك بحروف اللين أو بالحركات التي هي أبعاض حروف اللين ، فضرب مثلا تتألف من (ض ر ب) ، ومن الحركات التي تعين على النطق بها ، واذا كانت الضاد والراء والباء سواكن ليس فيها حركات تعذر النطق بها ، وختل من الدلالة على المعنى الذي تدل عليه كلمة (ض ر ب) • فاذا أريد النطق بها جيء بحروف اللين أو بالحركات تفصل بينها ، وتمكن للسان أن ينطق بها ، كضرب و ضرب و ضارب •

قال الخليل : «ان الفتحة والكسرة والضممة زوائد وهنّ يلحقن الحرف ليوصل الى التكلم به ، والبناء هو الساكن الذي لازيادة فيه ، فالفتحة من الألف ، والكسرة من الياء ، والضممة من الواو ، فكل واحدة شيء مما ذكرت لك» • (١)

فالحركات عنده ليست الا أصوات مدّ كالألف والواو والياء ، الا أنها مدّ قصير ، فالفتحة ألف قصيرة ، والضممة واو قصيرة ، والكسرة ياء قصيرة ، وهذا - فيما رأينا - هو الذي أوحى له حين أعرب القرآن أن يرمز للفتحة بألف صغيرة توضع فوق الحرف ، وللضممة بواو صغيرة توضع فوق الحرف ،

(١) الكتاب ج ٢ ص ٣١٥ •

وللكسرة بياء صغيرة توضع تحت الحرف ، بعد أن كانت هذه العلامات تعتمد على النقط الذي اصطنعه أبو الأسود الدؤلى •

وإذ عرف أن الحروف الصامتة الساكنة هي البناء الذى لازيادة فيه انفسح المجال له لدراسة البناء من نواح متعددة ، من حيث عدد الحروف التى يتألف منها البناء ، ومن حيث دلالة هذه الحروف على معانيها المجردة ، ومن حيث ما طرأ عليها من حروف زائدة ومعان زائدة •

فقرر أن الكلمات العربية من حيث عدد أصولها أربعة أنواع : ثنائية وثلاثية ورباعية وخماسية ، «فالثنائى على حرفين ، نحو قد ولم وهل ولو وبل ، ونحوه من الأدوات والحروف • والثلاثى من الأفعال نحو قولك : ضرب ، خرج ، دخل ، مبنى على ثلاثة أحرف ، ومن الأسماء نحو عمر وجمل وشجر ، مبنى على ثلاثة أحرف • والرابعى من الأفعال نحو دحرج وهملج وقرطس ، مبنى على أربعة أحرف ، ومن الأسماء نحو عقرب وعبقر وجندب وشبهه • والخامسى من الأفعال نحو اسحنكك واقشعر واسحنفر واسبكر ، مبنى على خمسة أحرف ، ومن الاسماء نحو سفرجل وهمرجل وشمردل وكنهبل وقرعبل وعقنقل وقبعثر وشبهه^(٢) والألف فى اسحنكك واقشعر واسحنفروا سبكر ليست من أصل البناء ، وإنما دخلت هذه الألفات فى الأفعال وأمثالها من الكلام ، لتكون الألف عمادا وسلما للسان الى الحرف

(٢) هملج : ذلل ، وأمر مهملج مذلل منقاد ، وقرطس : أصاب القرطاس ، وعبقر : موضع كثير الجن •

واسنكك : الليل اظلم ، واقشعر : أخذته قشعريرة أى رعدة ، واسحنفر : مضى مسرعا ، واسبكر : اضطجع وامتمد •

وهمرجل : الجواد السريع ، وشمردل : الفتى السريع من الإبل وغيرها ، وكنهبل شجر عظام ، وقرعبل دويبه عريضة بطيئة • وعقنقل : الوادى العظيم المتسع والكثيب المتراكم ، وقبعثر : العظيم الخلق • «القاموس المحيط» •

الساكن ، لأن حرف اللسان لا ينطق بالساكن من الحروف فيحتاج الى ألف الوصل ، الا أن دحرج وهملج وقرطس لم يحتج بهن الى الألف» . (٣)



وقرر أن الاسماء في العربية لاتقل عن ثلاثة أصول ولا تزيد على خمسة أصول ، وقال : « ليس للعرب بناء في الأسماء ولا في الأفعال أكثر من خمسة أحرف ، فمهما وجدت زيادة على خمسة أحرف في فعل واسم فأعلم انها زائدة على البناء وليست من أصل الكلمة ، مثل قرعلانة ، انما أصل بنائها قرعل ، ومثل عنكبوت انما أصل بنائها عنكب » (٤) .

وقال : « ان الاسم لا يكون أقل من ثلاثة أحرف ، حرف يتبدأ به ، وحرف تحشى به الكلمة ، وحرف يوقف عليه ، فهذه ثلاثة أحرف مثل سعد وعمر ونحوهما من الأسماء ، بدى بالعين وحشيت الكلمة بالميم ووقف على الراء » (٥) .

وهذه الملاحظة - في أغلب الظن - كانت مفتاحا لعقد الابواب في المجرد والمزيد وأقسامهما ، وللكلام في الأصول والزوائد ، ولاستقراء الزوائد التي جمعها قولهم «سألتمونيها» .

والأصول هي التي تشترك في الدلالة على المعنى الأساسي للكلمة ، والزوائد يجاء بها للدلالة على معان زائدة عن المعاني الأساسية ، كالمشاركة المستفادة من الألف في فاعل ، أو يجاء بها للاستعانة بها على النطق بالساكن ، كالألف في اقتصر واقتطع ، وفي ابن واسم وغير ذلك من المواضع التي يضطرون فيها الى الاستعانة بها على النطق بالساكن .

(٣) الجزء المطبوع من كتاب العين ص ٥ .

(٤) الجزء المطبوع من كتاب العين ص ٢ .

(٥) الجزء المطبوع من كتاب العين ص ٣ .

واعترضته أسماء شاذة عن هذا الأصل الذي قرره يدل ظاهرها على أنها تألفت من أصلين اثنين كيد ودم وفم ، فأخذ في تأويلها ليستقيم له عموم الأصل ، فذهب الى أن بعض الحروف يمتل ويضعف ، فلا يثبت في بعض الأحوال لكثرة الاستعمال ، ووجد أن العرب اذا جمعوا هذه الأسماء قالوا : أيدي ودماء وأفواه ، مما يدل على أن هناك حرفا ثالثا سقط منها بالاستعمال ، ووظن الى أن بعض الحروف التي تعتل وتسقط في الاستعمال تظهر في التنية والجمع والتصغير وغيرها ، فاستطاع أن يستخرج مقياسا لمعرفة السواقط .

قال : «وقد تجيء أسماء لفظها على حرفين وتماهما ومعناها على ثلاثة أحرف ، مثل يد ودم وفم ، وانما ذهب الثالث لعله أنها جاءت سواكن وخلفها السكون ، مثل بايد وبادم في آخر الكلمة ، فلما جاء التنوين ساكنا اجتمع ساكنان ، فثبت التنوين لأنه اعراب ، وذهب الحرف الساكن . فاذا أردت معرفتها فاطلبها في الجمع والتصغير ، كقولهم : أيديهم في الجمع ، ويديّة في التصغير ، ويوجد أيضا في الفعل مثل دميت يده» . (٦)

وتفرعت عن هذا الأصل مسألة عقد لها سببويه بابا خاصا هو باب تسمية الحروف والكلم التي تستعمل وليست ظروفًا ولا أسماء غير ظروف ولا أفعالا . (٧)

وهذه المسألة هي التسمية بالحروف سواء أكانت ثنائية أم ثلاثية أم أكثر . والتسمية بالحروف الثنائية قد تخالف بظاهرها الأصل العام الذي قرره الخليل ، من ان الأسماء في العربية لا تقل عن ثلاثة أحرف ، ولكن

(٦) الجزء المطبوع من كتاب العين ص ٣ .

(٧) الكتاب ج ٢ ص ٣١ .

الخليل استطاع أن يدخل هذه الأسماء في الأصل الذي قرره ، وموجز رأيه فيها :

أن الحروف الثنائية اذا سمي بها ضعف الحرف الثاني ، لتصبح الكلمة مكونة من ثلاثة أحرف ، لأن الحرف المضعف عبارة عن حرفين أولهما ساكن ، فاذا سميت انسانا بل أو هل أو قد قلت : هذا بلٌ وهلٌ وقدٌ .

ومذهب الخليل في الثنائي المحتوم بواو أو ياء ، نحو أو ولو وكى هو مذهبه في الثنائي الصحيح الآخر ، فاذا سمي انسان بأو أو لو أو كى ضعفت أو آخرها كما ضعفت أو آخر بل وهل وقد ، فقليل : هذا أوٌ ولوٌ وكىٌ ، بدليل ما رواه الليث عنه ، فقد زعم أن الخليل قال : « ان صيرت الثنائي مثل قد وهل اسما أدخلت عليه التشديد ، فقلت هذه لوٌ مكتوبة ، وهذه قدٌ حسنة ، زدت واوا على واو ، ودالا على دال ، ثم أدغمت وشددت . فالتشديد علامة الادغام والحرف الثالث كقول ابن يزيد الطائي : (٨)

ليت شعرى وأين منى ليت ان ليتا وانٌ لوٌ اعناء» (٩)

وبدليل ما صرح به سيويه في حرف آخر يشبه (لو) ، فذكر أن مذهب الخليل فيه اذا سمي به ، تضعيف آخره فقال : « كان الخليل يقول : هذا ذَوٌ بفتح الذال لأن أصله الفتح» (١٠) . وقال : «وسألته عن رجل اسمه (فو) فقال : العرب قد كفتنا أمر هذا ، لما أفردوه قالوا : فم ، فأبدلوا الميم مكان الواو حتى يصير على مثال تكون الأسماء عليه ، فهذا البدل بمنزلة تثقيل لوٌ ، ليشبه الأسماء ، فاذا سميته بهذا فشبهه بالأسماء كما شبهت العرب ، ولولم يكونوا قالوا فم لقلت فوه ، لأنه من الهاء . قالوا أفواه كما قالوا سوط واسواط» (١١) .

(٨) لعله أبو زييد الطائي كما ذكره الاعلم في هامشه على الكتاب ج ٢ ص ٣٢ .

(٩) الجزء المطبوع من كتاب العين ص ٣ .

(١٠) الكتاب ج ٢ ص ٣٣ .

(١١) الكتاب ج ٢ ص ٣٣ .

ولكن ابن منظور يزعم أن الخليل كان يهمز ما ختم بواو ، قال : « وأما الخليل فانه يهمز هذا النحو اذا سمي به (١٢) ، وهو وهم ، لأن ما ذكره الليث ، وما ذكره سيويوه يدفعان كل زعم من هذا القبيل ، على أن ما زعمه ابن منظور ونسبه الى الخليل قد عرض له سيويوه أيضا ، ولكنه نسبه الى بعض العرب ، فقال : « وكان بعض العرب يهمز كما يهمز النؤور فيقول لوء » (١٣) .

ومهما يكن من أمر فان الأصل السامى فى الغالب يتكون من ثلاثة أصوات (١٤) ، والعربية احدى هذه اللغات السامية ، وقد مرت فى تطورها بمراحل كانت مفرداتها فى المرحلة الأولى مبنية على مقطع واحد بسيط ، مثل يا ، تا ، وفى المرحلة التى تلى هذه أصبحت مفرداتها مبنية على مقطعين ، وقد أراد الانسان فى هذه المرحلة الحاق مقطع بمقطع ، ليحاكى الطبيعة فى أصواتها المختلفة ، وهذه المرحلة وان كانت هى الثانية تعدّ الأولى بالنسبة الى اللغة ، بوصفها آلة قصد بها الدلالة على معنى من المعانى ، ولذلك يقول بر كستراسر : « أقدم الأسماء صيغة هى الأسماء الثنائية » (١٥) .

وفى المرحلة الثالثة كان الانسان يجمع من المقاطع البسيطة ليؤلف دلالة مركبة ، ونشأت بذلك المفردات الثلاثية ، ومن المفردات فى هذا الدور اتخذت العربية كأخواتها الساميات وحدتها ، واستقرت فى الثلاثى (١٦) .

(١٢) لسان العرب ج ٢٠ ص ٣٥٨ .

(١٣) الكتاب ج ٢ ص ٣٣ . النؤور كصبور حصة كالاتمد تدق فتسفيها اللثة (ق-نور) .

(١٤) نشوء اللغة العربية «الكرملى» ص ١٠٧ ، فقه اللغة «وافى» ص ١٢ ، مقدمة لدرس لغة العرب ص ١٢٤ .

(١٥) التطور النحوى للغة العربية لبر كستراسر ص ٦١ .

(١٦) مقدمة لدرس لغة العرب ، للعلايلى ص ١٢٤ ، التطور النحوى ص ٦١ .

ولكن القوانين اللغوية ليست عامة عموم القوانين الطبيعية والرياضية ،
ولذلك وجدنا جانبا من المقدرات شدة عن هذا الأصل اللغوي العام متمثلا في
أدوات وأسماء نحو هو وهم وهى ، وذا وذه ، ومن وما ، ويد ودم وفم ، أى
أنّ هذه الأدوات والأسماء المكونة من حرفين لم يلحقها التطور ، بل احتفظت
بتأليفها وهى فى المرحلة الثانية ، فلم تلحق بأخواتها التى اكتملت بدخولها
فى المرحلة الثالثة واستقرارها على ثلاثة أصول ، ومع ذلك فان العربية اشتقت
من بعضها صيغا جديدة بزيادة أحد حروف العلة ، أو بزيادة همزة أو هاء ،
كأخوات وأبوّة وأفواه وأبو زيد ، مما يعده الخليل أصلا كان ملحقا بها ، ثم
سقط منها فى مطاوى الاستعمال •

وقد قسم الخليل كلام العرب الى أربعة أصناف ، الثنائى والثلاثى
والرباعى والخماسى ، ولكنه قصر الثنائى على الحروف والأدوات •

أما الأسماء المؤلفة من أصلين فقد أوّله بما سبق بيانه لأنه كان يرى
- وقد أيدته البحوث الحديثة - أن أقل ما يتألف منه الاسم ثلاثة أصول •

وأما الأسماء المبهمة المؤلفة من حرفين نحو ذا ومن ، والضمائر المؤلفة
من حرفين نحو هى وهو ، فلم أعلم أن للخليل فيها رأيا ، ولم يحاول إخضاعها
لتأويلاته ، كما فعل فى يد وفم ونحوهما ، وهى عنده - فيما نظن - علامات
أقرب منها أسماء وان عوملت معاملة الأسماء فى الاعراب •

ويقوى هذا الظن قوله الذى سبق ذكره : «فالثنائى على حرفين نحو قد
ولم وهل وبل ونحوه من الادوات والحروف» ، فلعله كان يريد بالأدوات هذه
الأسماء المبهمة والضمائر المبنية على حرفين •

وكأنه باصراره على تأويل هذه التى شذت عن الأصل ، وبقيت على
حرفين كان يرمى الى أن يؤكّد أن الوحدة فى اللغة العربية كلمة مؤلفة من
ثلاثة أصوات صوت يبدأ به ، وصوت يوقف عليه ، وصوت تحشى به الكلمة •

حول الاصول الثلاثة

ثم أخذ ينظر في أبنية الكلمات في أوائلها وأواخرها نظرة فاحصة ،
ليعرف ما ألفه العرب ، وما لم يألفوه ، فاتتهى الى هذه النتائج :

(١) رأى أن العرب يستقلون اجتماع الواوين كما يستقلون اجتماع
الهمزتين ، فلم يجيء في كلامهم واوان في أول الكلمة ، وبنى على هذه
الظاهرة اللغوية مذهبه في ابدال الهمزة مكان الواو ، اذا اضطرهم التأليف الى
اجتماع واوين ، كما مرّ من ابدال الهمزة مكان الواو في مصغر واصل ،
فكان العرب يقولون : أو يصل ، مع أن ظاهر القياس يقتضى أن يقولوا : وويصل
كما يقولون : قويد في قاعد وسويكن في ساكن .

وكما مرّ من ابدال الهمزة مكان الواو اذا صيغ فُعَل من (وأيت) فيمن
خفف الهمزة ، فقد كان الخليل يقول : أوى كما ترى ، وكان يقول : « لا بد
من الهمزة ، لأنه لا يلتقى واوان في أول الحرف » . (١)

وقد يدلون التاء مكان الواو في مثل هذه المواضع ، وان لم يكن ذلك
مطردا ، كما في تولج فانها في رأى الخليل فوعل ، فأبدلوا التاء مكان الواو ،
وانما جعلها فوعلا ، ولم يجعلها «تفعل» ، لأنه - في أغلب الظن - رأى أن
تفعل انما تجيء في أبنية الأفعال لا أبنية الأسماء . (٢)

(٢) ورأى أنه لم يجيء في كلامهم حرف آخره واوان متحر كان ،

(١) الكتاب ج ٢ ص ٣٥٦ .

(٢) المصدر السابق .

وإذا اقتضى التأليف ذلك أبدلوا ، ولذلك كانوا يصوغون ما جاء في آخره
واوان متحركان من الأفعال على فَعَلَت (بفتح فكسر) ، حتى يتيسر لهم قلب
الثانية ياء كما في قويت وحويت ، وهما من القوة والحوّة ، ولم يصوغوه على
فَعَلَت (بفتحتين) ، أو فَعَلَت (بفتحة ضمة) ، لئلا يعدموا الحيلة في قلب
الثانية ، فثبت لهم الواوان •

وقد سأله سيبويه عن عدم اجراء العرب (قويت وحويت) مجرى
غزوت ، فلم يقولوا قووت وحووت ، فأجابه بأنهما من المضاعف ، فيضطر
المتكلم الى أن يرفع لسانه ثم يعيده ، وفي ذلك من الثقل ما يتجنبه العرب
في كلامهم • أما غزوت فليس فيها الا رفعة واحدة ، ولذلك أجازوا
أمثالها • (٣)

أما اذا كانت الواو الأولى ساكنة فلا مانع يمنع من اجتماعهما ، فحلوه اذ
ذاك من المحذور الصوتي الذي عرض له الحليل ، نحو قوّه و حوّه ، لأن
اجتماع الواوين أولاهما ساكنة وثانيتها متحركة يثول الى الادغام • والحرفان
المدغم أولهما في ثانيهما بمنزلة الحرف الواحد في تحريكه اللسان ، فكأن
اللسان فيهما يرتفع رفعة واحدة •

(٣) ورأى أنه لم يجيء في كلامهم كلمة فأؤها واو ، ولامها واو ،
فليس من كلامهم مثل وعوت ، وقد «كرهوا ذلك كما كرهوا أن تكون
العين واوا واللام واوا ثانية» (٤) ، فاذا اقتضى التأليف ذلك لجئوا الى الابدال
في الثانية •

وعلى هذا لانكاد نفرق بين ملامه واو ، ومالامه ياء ، من مثل قولهم :
وعيت ووفيت وونيت ووقيت ووشيت ، الى غير ذلك من المعطلات التي هي

(٣) الكتاب ج ٢ ص ٣٩٠ •

(٤) الكتاب ج ٢ ص ٣٩٠ •

من الليف المفروق ، لأنهن جميعا على فَعَلَ يَفْعَلِ ، ولا تثبت الواو في الماضي كما لا تثبت في المضارع ، أما في الماضي ففتح ما قبلها ، وسيجيء الآن أنه ليس في كلامهم كلمة آخرها واو مفتوح ما قبلها ، وأما في المضارع فلكسر ما قبلها •

(٤) ورأى أنه ليس في كلامهم حرف آخره واو أو ياء مفتوح ما قبلها (٥) ، وإذا اضطربهم التأليف الى مثله جئوا الى الابدال ، فأبدلوا الألف مكان الواو والياء •

وعلى هذا الأصل بنى جميع المقصورات في الكلام العربي ، وألحق بها الأفعال المضارعة المعتلة الآخر بالواو أو بالياء اذا بنيت لما لم يسم فاعله ، نحو قولهم : يُنَوِي ويُرَوِي ويَقْتَضِي ويستَقْصِي ، وأسماء المفعول من غير الثلاثي كالمصطفى والمستقصى •

وكان الحليل وسيبويه يسميان المقصورات منقوصات ، وذلك يرجع الى «أن تبدل الألف مكان الياء والواو ، فلا يدخلها نصب ولا رفع ولا جر» (٦) • ومن هذه المقصورات «أشياء يعلم أنها منقوصة ، لأن نظائرها من غير المعتل انما تقع أو اخرهن بعد حرف مفتوح ، وذلك نحو معطى ومشتري وأشبه ذلك ، لأن معطى مُفْعَلٌ ، وهو مثل مُخْرَجٍ ، فالياء بمنزلة الجيم والراء بمنزلة الطاء ، فنظائر ذلك على أنه منقوص ، وكذلك مشتري ، انما هو مفتعل ، وهو مثل معترك ، فالراء بمنزلة الراء والياء بمنزلة الكاف •

ومثل هذا مغزى وملهى انما هما مَفْعَلٌ ، وانما هما بمنزلة مَخْرَجٍ فانما هي واو وقعت بعد مفتوح ، كما أن الجيم وقعت بعد مفتوح ، وهما لآمان ،

(٥) الكتاب ج ٢ ص ٣٢ ، ٣٣ •

(٦) الكتاب ج ٢ ص ١٦١ •

وأنت تستدل بذا على نقصانه» (٧) •

وقد تفرع عن هذا الأصل العام أصل آخر تردد على السنة النحاة كثيرا ، وهو أنه اذا تحركت الواو والياء وانفتح ما قبلهما قلبتا ألفا ، سواء أكانت الياء والواو متطرفين كما مر أم كاتتا في وسط الكلام ، كما في نحو مختار فأصله عندهم مُخْتَبِرٌ أَوْ مُخْتَبِرٌ •

ومن أجل أنه ليس في كلامهم واو أو ياء مفتوح ما قبلها ، ومن أجل أن الأسماء في العربية لا تقل عن ثلاثة أصول ، كما هو رأى الخليل ، ذهب الخليل الى تضعيف آخر الحروف الثنائية من بنات الواو والياء نحو لو وكى اذا سمى بها ، كما سبقت الاشارة اليه ، فاذا ضعفت الواو والياء أصبحت الحروف من الثلاثيات ، واتسقت مع طبيعة العرب في بناء كلامهم ، وكانت أيضا بمنأى عما لم يألّفه العرب في كلامهم من واو أو ياء قبلهما حرف مفتوح ، لأن تثقيل الواو في (لو-) ينحل الى واوين أو لاهما ساكنة ، وتثقيل الياء في (كى) ينحل الى ياءين أو لاهما ساكنة ، وقد سبق أن العرب لا يستقلون اجتماع واوين في آخر الكلمة اذا كانت الأولى ساكنة كما في مثل قوّة وجوّة وغيرهما •



أرأيت الآن كيف أن الخليل كان على حق في تمهيده الدراسة اللغوية والنحوية بالدراسة الصوتية • ودراسة الحروف ومخارجها ، واستقراء ما ينطلق على ألسنتهم وما لا ينطلق ، فكثير من الظواهر اللغوية مرجعها الطبيعة الصوتية •

وقد سمعنا الآن كيف أن الخليل كان يذهب الى قلب الواو الثانية ياء فيما ختم بواوين متحركين ، وعرفنا من تعليه ذلك أن ابدال الثانية انما

(٧) المصدر السابق •

مرجعه ما يشعر به العرب من ثقل لو تركت الواوان على حالهما ، «لأنه يثقل عليهم أن يستعملوا ألسنتهم من موضع واحد ، ثم يعودوا اليه ، فلما صار ذلك تعباً عليهم أن يداركوا في موضع واحد ولا تكون مهلة كرهوا وأدغموا ، لتكون رفعة واحدة ، وكان أخف على ألسنتهم» (٨) .

وعلى هذا الذي أدركه الخليل بنيت ظاهرة الادغام في اللغة العربية ، لأن الادغام فيها مبني على اجتماع حرفين متماثلين ، فإذا جاءت كلمة عينها ولامها من جنس واحد ، وهما متحركان استقلوا ، فحذفوا حركة الأول منهما ، وأدغموه في الثاني ، لئلا يستعملوا ألسنتهم في مخرج معين ، ثم يعودوا اليه ، وليتحرك اللسان بعد الادغام مرة واحدة ، لأن الحرف المثقل المكون من حرفين ساكنين ومتحرك عندهم بمنزلة الحرف الواحد ، ولم يتركوا الحرفين المتحركين اللذين هما من جنس واحد على حالهما الا في مواضع معينة يضطرهم التأليف فيها اليه ، كما اذا قصدوا الحاق بنات الثلاثة بنات الأربعة ، كالحاق قردد بجعفر وقعدد بجندب ، وجلب بدحرج ، لأن الغرض من الالحاق هو التماثل بالوزن فاذا أدغموا فاتهم هذا الغرض .

وبالإضافة الى أن في اللغة ظواهر لا تفسر الا بالوقوف على طبائع الأصوات ، فان دراسة الأصوات تعين على :

- (١) تجويد القرآن وترتيبه ترتيباً حسناً .
- (٢) وإخراج لغة التخاطب إخراجاً حسناً ترتاح له الأذن .
- (٣) وتحسين اللغة العربية ضد أصوات طارئة حملتها الى البيئات العربية عناصر أجنبية اضطرت الى مشاركة العرب في حياتهم ولغتهم ، ولم تستطع أن تتخلى عن الرواسب اللغوية المتبقية من لغاتها الأصلية التي نشأت عليها .

وقد قرأت وأنا بصدد هذا فقرة كتبها Walter Ripman

في مقدمة كتابه : The English Phonetics ص ٩ عارضا
فيها لنوعى الكلام ، أعنى الكلام المقنن Standard ، واللهجة Dialect ،
وقد قصر القول في هذه الفقرة على الفوائد التي تجنى من النوع الأول ،
وذكر أن لهذا النوع فوائد ، بعضها يحقق غرضا اجتماعيا ، وبعضها يحقق
غرضا جماليا ، وبعضها يحقق غرضا تربويا ♦

أما الفوائد الاجتماعية فتمثل بما يجنيه الفرد في عمله وفي معاملاته مع
مواطنيه ، فإن الرجل الذي لا يعرف إلا العامية سيجد نفسه معطلا متلدا في عمله وفي
معاملاته مع مواطنيه ، وبما يجنيه العامل والواعظ والمحامي والسياسي وغيرهم
ممن يريد أن يوصل أفكاره إلى جماعات تجمع بين مستويات عقلية مختلفة ،
فإن هؤلاء جميعا يحتاجون إلى هذه اللغة ، لكي يحققوا ما يريدون ♦

وأما الفوائد الجمالية فتمثل بهذه المتعة التي يحس بها من يستمع إلى
قراءة جيدة واضحة ♦

وأما الفوائد التربوية فتمثل بالاعتقاد في الجهود التي يبذلها المعلم في
تلقين تلاميذه ما يريد تلقينهم إياه ♦ ويرى أن من التبذير للجهود أن لا ينطق
المعلم والطلبة بلغة واضحة بحيث لا تنسب إلى لهجة معينة من لهجات
التلاميذ المختلفة ♦

(٣)

الابتداء والوقف

كان الخليل كما استظهرنا - يرى أن الوحدة التي استقر عليها الكلام العربي هي الثلاثي ، والثلاثي عنده أبسط أنواع الأبنية ، وهو مؤلف من ثلاثة أحرف ، حرف يبدأ به ، وحرف يوقف عليه ، وحرف يتوسط ما يبدأ به وما يوقف عليه •

وكان قد عرض لبناء الكلمات ، فذكر أنها تبنى من الحروف الصامتة الساكنة ، وأن هذه الحروف هي أصل البناء ، ولما لم يمكن النطق بها استعانوا على ذلك بزيادة حروف المد أو الحركات •

واتماما لدراسة هذه الأصول عرض لظاهرتين ، هما الابتداء والوقف ، وللعرب فيهما أسلوب خاص •

أ - الابتداء

ألقى الخليل على اللغة نظرة عامة فوجد أن السنة العرب لاتنطلق بالساكن من الحروف ، واذا فرض عليهم ذلك في بعض حالات التأليف استعانوا بحرف متحرك ، يجعلونه عمادا وسلما للوصول الى النطق به ، فقرر أن «حرف اللسان لاينطلق بالساكن من الحروف ، فيحتاج الى ألف الموصل» (١) •

وليس يعنى كل لسان ، انما هو اللسان العربي فان الألسنة الأجنبية تستسيغ ذلك ، وهو موجود في كثير من اللغات •

(١) الجزء المطبوع من كتاب العين ص ٢ •

ولهذا رأيناه في أثناء تذوقه الحروف لتحديد مخرجها يستعين بالهمزة المفتوحة متخذاً منها سلماً وعمادا الى النطق بالحرف الذي تعمد اسكانه ،
ليتمثل ويتشخص •

وكان يقول - بعد أن مثل للخماسي من الأفعال - : «الألف التي في اسحنك واقتعرت واسحنفر واسبكر ليست من أصل البناء ، وإنما أدخلت هذه الألفات في الأفعال وأمثالها من الكلام ، لتكون عمادا وسلما للسان الى الحرف الساكن» •

وجلس الخليل مع أصحابه يوما فسألهم : كيف تلفظون بالحرف الساكن ، نحو ياء غلامى وباء اضرب ودال قد ؟ فقالوا له : نقول : ياء وباء ودال ، فلم تعجبه اجابتهم ، لأنهم انما لفظوا بالاسم ولم يلفظوا الحرف ولم يحكوه ، كما هو في غلامى واضرب وقد • فقال لهم : «أقول : اب واى واد ، فألحق ألفا موصولة • قال : كذلك أراهم صنعوا بالساكن ، ألا تراهم قالوا : ابن واسم حيث أسكنوا الباء والسين ، وأنت لاتستطيع أن تكلم بساكن فى أول الاسم ، كما لاتصل الى اللفظ بهذه السواكن ، فألحقت ألفا حتى وصلت الى اللفظ بها ، فكذلك هذه الألفات حتى تصل الى اللفظ بها ، كما ألحقت المسكن الأول فى الاسم» (٢) •

وهذه الهمزة التي يستعان بها على النطق بالساكن فى الابتداء يؤتى بها مكسورة أو مفتوحة ، الا اذا كان الحرف الذى يلي الحرف الساكن مضموما ، كاستنصر واعتلى ، فتضم الهمزة ، ليتماثل الصوت ، ويكون العمل فيهما من وجه واحد (٣) •

(٢) الكتاب ج ٢ ص ٦٢ •

(٣) الكتاب ج ٢ ص ٢٧٢ •

وإذا وقعت هذه الكلمات المدبوءة بالساكن ، والمستعان على ساكنها بالهمزة في الوصل أسقطت الهمزة لزوال الحاجة إليها ، فإن كان آخر الكلمة التي سبقتها ساكنا ألقيت حركتها عليه ، كما في قولنا : ان استنصرك فانصره •



التقاء الساكنين :

ويلحق بهذا التقاء الساكنين سواء أكانا في كلمة أم كلمتين ، فاللسان العربي كما لا ينطلق بالساكن ابتداء لا ينطلق بالساكنين في وصل الكلام • وقد عرض الخليل لهذه الظاهرة التي تعرض في الكلام العربي ، فرأى أنه إذا التقى ساكنان حرك أحدهما ، ابعادا لما لا تنطلق به ألسنتهم ، فإن استتبع التحريك ثقلا ، كما إذا كان الحرف المحرك ياءا حذفوه ، كما في الأسماء المنقوصة المنونة ، نحو أيد وادم ، حذفوا التنوين لأن التنوين اعراب كما كان الخليل يقول ، وان لم يستتبع ثقلا حرك الأول منهما •

أما الحركة التي يحرك بها فهي الكسرة لأنهم يلجئون إليها في أكثر الحالات التي يستدعي التأليف فيها اجتماع ساكنين ، كما فعلوا في قولهم : اقبلت الوفود ، من كسر التاء وهي تاء ساكنة للتأنيث ، فلما التقت وهي ساكنة بهمزة الوصل التي تسكن إذا وقعت في وسط الكلام اضطروا الى كسر التاء • إلا إذا كانت محتومة بالواو ضميرا ، نحو : لاتسوس الفضل ، واخشوا الله فتحرك بالضم •

وقد علل الخليل ذلك بقوله : «انهم جعلوا حركة الواو منها ، ليفصل بينها وبين الواو التي من نفس الحرف نحو واو لو و أو» (٤) •

(٤) الكتاب ج ٢ ص ٢٧٦ •

وإذا الجأهم الوقف الى حذف الحركة التي ليست اعرابا ، وكان الحرف الذي قبل الآخر ساكنا وهم انما يريدون تبيين الحركة استعانوا بهاء السكت ، فقالوا : كيفه وليته ولعله وانطلقته ، «لأنها ليست بناء اعراب وما قبلها ساكن» (٥) .

ب - الوقف :-

أما الوقف فالعرب يفرقون بين ما كان منه في الشعر وما كان منه في النثر ، فان كان في الشعر فالوقف يكون على الروي الذي هو بمنزلة الاستراحة التي تمهد للبيت الثاني ، أو على الصلة التي تلحق الروي في القصائد التي تبني على الروي الموصول بأحرف الوصل .

وللعرب في حرف الروي مذاهب ثلاثة ، نص عليها الخليل فيما روى ابن كيسان ، فمن العرب من ينون القوافي كلها سواء أكان منها ما يدخله التنوين أم لا يدخله التنوين ، فهم ينونون مثل قول امرئ القيس :

قفا نيك من ذكرى حبيب ومنزل
بسقط اللوى بين الدخول فحومل
وينونون مثل قول زهير :

ألا عم صباحا أيها الربع واسلم

ومثل قوله أيضا :

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم بحومنة الدرّاج فالتثلم

ومن العرب من يقف على حركات الروي دون مدّها ، أو زيادة تنوين فيها ، فيقولون : فحومل واسلم ، ولم تكلم ، فالتثلم .

(٥) الكتاب ج ٢ ص ٢٧٩ .

ومن العرب من يميل الى مدّ الحركة ، يمدّ الضمة حتى يجعلها واوا ،
كقول جرير :

متى كان الحيام بندى طلوح سقيت الغيث أيتها الحيامو

ويمدّ الفتحة حتى يجعلها ألفا ، كقول عمرو بن كلثوم :

إذا بلغ الفظام لنا صبي تخر له الجابر ساجدينا

ويمدّ الكسرة حتى يجعلها ياء كقول النابغة :

يا دارميّة بالعلاء فالسندی أقوّت وطال عليها سالف الأمدى

وهذا المدّ نوع من الاشباع الموسيقى ، تتحقق به الاستراحة التي يميل

اليها الشاعر فى نهاية كل بيت ، ويكون بمنزلة السكّنة الزمنية فى الايقاع .

وقد يستعينون بالهاء والالف ، أو بالهاء والواو ، أو بالهاء والياء ، كقول

ليلى :

عفت الديار محلها فمقامها بنى تأبّد غولها فرجامها

وكقول ابن زريق البغدادي :

لا تعذليه فان العذل يوجعهو قد قلت حقا ولكن ليس يسمعهو

وكقول الآخر :

قف فى ربي الخلد واهتف باسم شاعرهى فسدره المنتهى أدنى منا برهى

وتسمى هذه الحروف عند أهل القافية حروف الوصل (٦) ، ويسميتها

الخليل حروف الترتم (٧) .



(٦) مفاتيح العلوم للخوارزمى ص ٥٦ .

(٧) لسان العرب ج ٢٠ ص ٣٨٣ .

أما في الشر فيقف العرب اختيارا حيناً ، واضطراباً لانقطاع النفس
حيناً آخر ، وفي كلتا الحالين يقفون باسكان آخر ما يقفون عليه •
والكلمة التي يقفون عليها تارة تكون صحيحة الآخر ، وتارة تكون
معتلة الآخر ، وتارة تكون محتومة بقاء التائيث ، وتارة محتومة بضمير •
فان كانت صحيحة الآخر وقف عليها بحذف حركتها ، وحذف التنوين
معاً ، اذا كانت مرفوعة أو مجرورة ، وان كانت منصوبة حذفوا التنوين منها
ووقفوا عليها بالألف •

وان كانت معتلة الآخر فان الخليل يرى أنهم يقفون عليها بهذه
الحروف ساكنة ، واذا كانت هذه الحروف قد حذفت لتتوينها حذف التنوين ،
وأعيد الحرف المحذوف لذهاب المقضي حذفه وهو التنوين ، فيقولون : أيدي
وأدمى وقاضى وفتى ومصطفى •

وينجر هذا الحكم الى المنقوص والمقصور اذا نوديا مناداة يا رجل ،
فالخليل يقول : «أختار يا قاضى لأنه ليس بمنون ، كما أختار هذا القاضى» (٨) •
ويونس بن حبيب يقيه على حذفه فيقول يا قاضٍ ، وسيويه يقوى
رأى يونس فى هذا فيقول : «وقول يونس أقوى لأنه لما كان من كلامهم أن
يحذفوا فى غير النداء كانوا فى النداء أجدر لأن النداء موضع حذف» (٩) •

غريب جدا أن يفوت سيويه أن الياء فى المنقوص انما حذفت لتتوينه ،
فاذا ذهب التنوين فليس هناك ما يمنع من اعادة الياء ، هذا الى أن النداء يقتضى
مدّ الصوت ، فالخليل يكتفى بالياء الأصلية يستعين بها على مدّ الصوت ،

(٨) الكتاب ج ٢ ص ٢٨٩ •

(٩) المصدر السابق •

وسيويوه ويونس يضطران الى مد حركة الآخر حتى يجعلها ياء ، وحينئذ يتلاقيان مع الخليل فى نهاية الطريق •

وان كانت الكلمة محتومة بقاء التانيث قبلوا التاء هاء سواء أكانت نحو (فاطمة) أم نحو (حياة) • قال الخليل : «وسائر الحروف الصحاح لا تتغير عن حالها أبدا ، غير الهاء المؤنثة فانها تصير فى الاتصال تاء كقولك : هذه شجرة ، فتظهر الهاء ثم تقول : هذه شجرتك شجرة طيبة ، فتذهب الهاء وتستخلف التاء ، لأن التاء مؤنثة ، وانما فعلوا ذلك بهاء التانيث ليفرقوا بينها وبين الأصلية فى بناء الكلمة» (١٠) •

وان كانت الكلمة منتهية من الضمائر بألف أو واو أو ياء ، فان وقف عليها امتدت حتى تصل الى مخرج الهمزة من أقصى الحلق ، وان لم يوقف عليها لم تمتد اليه ، لأن اللسان يأخذ حينئذ فى حرف آخر ، «ولذلك قالوا : ظلموا ورموا ، فكتبوا بعد الواو ألفا» (١١) •

وبعض العرب يقبل الألف همزة فعلا ، وقد سمع الخليل هذه اللغة فكان يقول : «ان بعض العرب يقول : رأيت رجلاً فيهمز ، وهذه جبالاً فيهمز ، لقرب الألف من الهمزة ، حيث علم أنه سيصير الى موضع الهمزة ، فأراد أن يجعلها همزة واحدة ، وكان أخف عليهم • وسمعاهم يقولون : هو يضربها فيهمز كل ألف فى الوقف» (١٢) •

ولا يقفون على الكلمة بالحاق هاء السكت الا فى حالات خاصة : منها : أن تكون الكلمة قد جار عليها الاستعمال فحذف من أصولها ولم يبق منها

-
- (١٠) تهذيب اللغة للازهري ج ١ ص ٢٣ مخطوطة بدار الكتب المصرية ،
رقمها (٩ لغة) •
(١١) الكتاب ج ٢ ص ٢٨٥ •
(١٢) المصدر السابق •

الاحرفا أو حرفين ، كالأمر والمضارع المجزوم من رأى ووعى ، فيقولون اذا وقفوا عليهما : ره وعيه ، ولم يره ولم يعه ، ليتحقق اشباع الصوت ، ويتحقق ما ينشده العرب من مطلق حركة الآخر •

ويدخل فى هذا ، الوقف على (ما) الاستفهامية فى نحو له وكيه ، ويدخل فيه الوقف على الحروف المتحركة التى يلفظ بها على سبيل الحكاية ، كالتلفظ بكاف ملك وباء ضرب ، وقد سأل الخليل أصحابه ، فقال : « كيف تقولون اذا أردتم أن تلفظوا بالكاف التى فى (لك) والكاف التى فى (مالك) ، والباء التى فى ضرب ؟ فقيل له : نقول : باء ، كاف • فقال : انما جئتم بالاسم ولم تلفظوا بالحرف • وقال : أقول : كه وبه • قالوا : لِمَ أَلحقت الهاء ؟ فقال : رأيتهم قالوا : عه فألحقوا هاء حتى صيروها استطاع الكلام بها ، لأنه لا يلفظ بحرف ، فان وصلت قلت : كَ وبَ فاعلم يافتى ، كما قالوا : ع يافتى • فهذه طريقة كل حرف كان متحركا » (١٣) •

ومنها : أن تكون حركتها حركة بناء لا اعراب ، وأن يقصد الى الاحتفاظ بحركتها ، كما جاء فى قراءة الكسائى : ماهيه نار حاميه • (١٤) وكالوقف على هو ، نحو هو •

ومنها : أن تكون حركتها حركة بناء ، ولو وقف عليها بالطريقة المألوفة لزم اجتماع حرفين ساكنين ، لأن ما قبل الآخر فيها ساكن ، كالوقف على ليت وكيف ولعلّ وأين وثم وهلمّ ، فانهم يقولون : ليته ، وكيفه ولعله ، وثمه ، وهلمّه ، كقول الراجز :

يا أيّها الناس ألا هلمّه • (١٥)

(١٣) الكتاب ج ٢ ص ٦٢ •

(١٤) الاشمونى ج ٤ ص ٢٢٨ •

(١٥) الكتاب ج ٢ ص ٢٧٩ •

وكالوقف على الكلمات التي آخرها نون الاثنيين أو الجمع ، نحو
مسلمان ومسلمون ، فانهم يقولون : مسلمانه ومسلمونه • ومثلها نون
المؤنثات نحو ضربتنّ وذهبتنّ ، فانهم يقولون في الوقف عليهما : ضربتته[°]
وذهبتته[°] • وكل ما كانت حركته بناءا لو وقف عليه بالسكون لاجتمع فيه
ساكنان ، نحو لم يرم ولم يخش فانهم يقولون : لم يرمه[°] ولم يخشه[°] ، ومنه
قراءة الكسائي : لم يتسنه[°] (١٦) •

ومنه الوقف على ان في قول الشاعر :

ويقلن شيب قد علاك وقد كبرت فقلت انه (١٧)

ومنه الوقف على ذهبت وانطلقت ، وقد سبق ذكر رأى الخليل فيهما •

(١٦) الاشموني ج ٤ ص ٢٢٨ •

(١٧) الكتاب ج ٢ ص ٢٧٩ •

(٤)

البناء العام والموسيقى

ولم يكن الخليل عالماً وقف بحثه على ظواهر اللغة وصفها وتعليلها فحسب ، ولكنه كان ذواقة ، درس اللغة دراسة فنية ، ووصل الى ادراك الحس اللغوي عند العرب ، وعرف أن اللغة العربية لغة موسيقية ذات أنغام خاصة ♦

ان ادراك موسيقى اللغة يتوقف على توفر حسّ موسيقى ، وملكة موسيقية ، وهو ما توفر للخليل ، فقد عرض للايقاع والنغم ، ووقف على أصولهما المعروفة ، حتى يكاد المؤرخون يجمعون على أن له كتاباً في النغم وكتاباً في الايقاع ، كما سبقت الإشارة اليه ♦

ويذهب بعضهم الى أن كتابه في الموسيقى كان مصدراً للموسيقين المؤلفين في صدر الدولة العباسية ، كما يزعم أنه «لما وضع اسحاق بن ابراهيم كتابه في النغم واللحن عرضه على ابراهيم بن المهدي فقال : أحسنت يا أبا محمد ، وكثيراً ما تحسن ♦ فقال : بل أحسن الخليل لأنه جعل السبيل الى الاحسان» (١) ♦

ولاشك أن الناس كانوا يفرقون بين طائفتين كبيرتين من الكلام ، طائفة الشعر وطائفة النثر ، وسهل جداً أن يميز الشعر من النثر ، لما في الشعر من جرس لاذع ونغم جميل ، ولم يهياً للشعر أن يدرس جانبه الموسيقى دراسة فنية محكمة الاّ في عهد الخليل وعلى يد الخليل نفسه ♦

(١) طبقات النحويين للزبيدي - ترجمة الخليل - «نسخة مصورة بدار الكتب» ♦

أخذ الخليل يدرس الشعر دراسة فاحصة ، شأنه مع كل موضوع يتناوله بالدرس ، ومكّنه من هذه الدراسة معرفة بالنغم واللحن

تناول الخليل من الشعر جانبه اللفظي الموسيقي ، فرأى أن الشعر العربي كله لا يخرج عن كونه قائما على وزن من ستة عشر وزنا سماها بحورا ، ووضع لكل بحر اسما خاصا يميزه عن غيره ، وقسم كل بحر منها الى وحدات ، وعبر عنها بـ (ف ع ل) ومشتقاتها من فاعلن ومتفاعلن ومستفعلن وغيرها ، حتى اكتمل له من ذلك دراسة تامة الأجزاء سماها «عروضا» .

ورأى للقافية أثرا واضحا في موسيقى الشعر ، فهي تكون جزءا هاما منها ، ثم هي تتضمن الروى الذى تنسب اليه القصيدة ، وتلقب به ، فأخذ يدرسها تامة لدراسة العروض ، فقسمها ، ووضع لأقسامها أسماء وألقابا ، فسمى الكلمة التى هى القافية ضربا ، والحرف الذى تنتهى به رويّا ، «وسمى الحركات التى تلزم القوافى بأسماء ، كما سمى هذه الأشياء بأسمائها ، فقال فى هذه الحروف : القافية والرديف والصلة والخروج ، والتأسيس ، فكانت خمسة أحرف بخمسة أسماء ، فسمى معها خمس حركات بخمسة أسماء ، فقال : الرسّ والحذو والتوجيه والمجرى والنفاد ، فالرسّ اسم للحركة التى قبل التأسيس ، والحذو اسم للحركة التى قبل الرديف ، والتوجيه حركة ماقبل القافية المقيدة ، والمجرى حركة القافية المطلقة ، والنفاد حركة الهاء التى يتبعها الخروج» (٢) .

وقد تناولهما الدارسون وهم مأخوذون بهذه العقلية وهذه الدراسات ، وكان ظهورهما حدنا لافنا للأذهان ، فأقبل كثير من الأدباء والشعراء على دراستهما ، وعيّت على ناس آخرين كانوا يعدون العروض نوعا من الطلاسم

(٢) تلقيب القوافى وتلقيب حركاتها لابن كيسان ص ٤٨ (طبع أوروية) .

والمعيات ، حتى قيل ان الأصمعي - على جلاله قدره - حاول دراسته فلم يقع له ، وصرفه الخليل عنه * طلب اليه أن يقطع هذا البيت :

إذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه الى ما تستطيع

ففهم الاصمعي قصده وانقطع عن دراسته * (٣)

ومن طريف ما يروى في هذا ما كان بين محمد بن منذر الشاعر البصري ، ومحمد بن عبد الوهاب الثقفي ، « وكان هذا يعادى محمد بن منذر بسبب ميله لأخيه عبد المجيد ، وكان ابن منذر يهجوّه ويسبه ويقطعه ، وكل واحد منهما يطلب لصاحبه المكروه ، ويسعى عليه فلقى محمد بن عبد الوهاب ابن منذر في مسجد البصرة ، ومعه دفتر فيه كتاب العروض بدوائره ، ولم يكن محمد ابن عبد الوهاب يعرف العروض ، فجعل يلحظ الكتاب ويقرأه ولا يفهمه ، وابن منذر متغافل عن فعله ، ثم قال له : ما في كتابك هذا ؟ فخبّاه في كمنه وقال : وأى شيء عليك مما فيه ؟ ! فتعلق به ولبّبه * فقال له ابن منذر : يا أبا الصلت ، الله الله في دمي ، وطمع فيه ، وصاح يا زنديق في كمنك الزندقة » (٤) *

وظل الدارسون من بعده يتناولونهما ، لم يزد واحد منهم شيئاً على ما أثبتته الخليل ، اللهم الا ما شاع عند القدماء من أن البحور التي توصل اليها الخليل هي خمسة عشر بحراً ، ثم استدرك الأخفش الذي نقل الينا علم العروض البحر السادس عشر وسماه المتدارك ، ووزنه : فاعلن ثمانى مرات غير أن (فاعلن) هنا تجيء اما (فَعَلَن) أو (فَعَلْن) *

غير أن القفطي يقول : ان للخليل بن أحمد قصيدة على (فَعَلَن) ثلاث متحركات وساكن ، وله قصيدة أخرى على (فَعَلْن) متحرك وساكن * فالتى على ثلاث متحركات وساكن قصيدته التى فيها :

(٢) الخصائص لابن جنى ج ١ ص ٣٦٧ ، نزهة الالباء ص ١٥٤ .

(٤) الاغانى ج ١٧ ص ١٨ (ساسى) *

سئلوا فأبوا فلقد بخلوا فلبس لعمرك ما فعلوا
والتي على فعلن ساكتة العين قوله :

هذا عمرو يستعفى من زيد عند الفضل القاضي
فانهوا عمرا انى أخشى صول الليث العادى الماضى (٥)

وسواء أكانت التفعيلة مكونة من ثلاث متحركات وساكن أم من متحرك وساكن ، فان الأبيات من وزن المتدارك ، مما يؤيد الداهيين الى أن البحور الستة عشر كلها من وضع الخليل •

ولم تقتصر عناية الخليل على موسيقى الشعر وحدها ، بل جاوزته الى النثر ، فلنثر جرس موسيقى كما للشعر جرس موسيقى ، بل لقد توغل فى تلمس هذه الموسيقى فى الألفاظ المفردة ، فأحس بما لها من موسيقى تمثل فى تأليفها على صورة معينة •

أليس فيها من الحروف ماهو مجهور وما هو مهموس ، وماله جرس قوى وما ليس له هذا الجرس ؟ ثم أليس فيها من الحركات التى تكسب الحروف أصواتا لها جرس ونغم ؟

وهكذا هدته ملكته الفنية الى أن الكلمات لم تخل من موسيقى ، ولذلك وزنها بالميزان الذى وزن به الشعر نفسه ، فاعتبر (ف ع ل) ومشتقاتها ميزانا يزن بها الكلمات ، وهو الميزان الذى أفاد منه علماء الصرف فى دراسة أبنية الكلمات •

وظل هو يتتبع كلام العرب حتى استطاع حصر أوزان الكلمات كما استطاع حصر أوزان الشعر من قبل ، وذكر سيبويه للأسماء فقط - وما

(٥) انباه الرواه على أنباه النحاة ص ٣١٩ ج ١ «مخطوطة بدار الكتب» •

ذكره سيوييه ، فى رأينا ، فهو من عمل الحليل - نحو ثلاث مائة وزن وبضعة أوزان .^(٦) واستطاع أن يلم بجميع الأوزان التى ألفها الطبع العربى ، فجرت على لسانه ، وأصبح من اليسير مقارنة الصيغ العربية بغيرها ، وأن يحكم على صيغة معينة بأنها عربية أو غير عربية ، كما سبقت الاشارة اليه .

والتفت الى أن كثيرا من الظواهر اللغوية يمكن ارجاعه الى اهتمام العربى بموسيقى اللفظ ، كالاتباع والادغام والابدال ، فلم يحرك حرف من أجل حركة حرف آخر ، ولم يبدل حرف من حرف آخر الا لتحقيق الاستسجام الموسيقى فى الكلام .

ولم تكثر المزاوجة فى كلامهم الا لهذا الغرض ، والمزاوجة تتحقق بوجهين : أحدهما : أن تكون الكلمتان المتواليتان على روى واحد ، كما فى « ليرجعن مأزورات غير مأجورات » .

وثانيهما : أن يؤتى بكلمة ، ثم تردف بكلمة أخرى قد تكون واضحة المعنى ، وقد تكون غير واضحة المعنى ، ولايئنة الاشتقاق^(٧) ، كحسن بسن وشيطان ليطان ، وحيآك الله وبيآك ، اتباعا لحيآك ، وان ضعفها الفيروزابادى ، وغيرها من أمثلة كثيرة وضع لها ابن فارس كتابا سماه « الاتباع والمزاوجة » ، وعقد لها السيوطى فصلا فى كتابه « المزهر » .

وأكبر الظن أن شيوع هذه الظاهرة فى العربية يؤيد عنايتها بالموسيقى ، وقد استعمل العرب هذا النوع من الألفاظ التى ليس لها معنى واضح ولا اشتقاق بين ، اشباعا لنغم الكلام ومدّا لموسيقاه .

وقد روى ابن فارس أن بعض العرب سئل عنه فقال : « هو شىء تندبه كلامنا »^(٨) .

(٦) المزهر للسيوطى ج ٢ ص ٢ .

(٧) الاتباع والمزاوجة لابن فارس ص ٢ (طبع أوروبا) .

(٨) المصدر السابق .

فدراسة الخليل اذن لم تكن نظرية خالصة تعنى بوصف ظواهر اللغة ،
واستخراج الاصول ، ولكن فيها جانبا فنيا لا يخضع لاعتبارات عقلية بحتة ،
وانما يخضع لاعتبارات فنية مآلها الحس والذوق ، ولذلك كانت دراسته
للغة أبعد أثرا ، وأكثر جدوى ، لأنها ملاحظ فيها الحس اللغوى عند العرب
فى أساليبهم وتعبيراتهم •

ولا أريد أن أترك هذا الفصل قبل أن أعرض لقضية تدور فى أذهان
الدارسين ، ويقف منها الباحث موقفا كله حيطة وحذر ، وهى قضية العروض
العربى أو قضية تأثره بعروض أجنبى •

من الثابت أن الخليل هو صاحب العمل الأول فيه ، اليه ينسب العروض
العربى ، واليه ينسب استخراج أوزان الشعر العربى ، وتلقيها بألقابها الخاصة ،
ووضع المصطلحات التى تتصل بالعلل والزخافات ، كما صرح الجاحظ به فى
قوله : «وضع الخليل بن أحمد لأوزان القصيد وقصار الأرجاز ألقابا لم تكن
تعارف تلك الأعارىض بتلك الألقاب وتلك الأوزان بتلك الأسماء ، وذكر
الطويل والبسيط والمديد والوافر والكامل وأشبه ذلك» • وكما أشار اليه ابن
كيسان هنا فى كتابه «تلقب القوافى» •

والشئ الذى هو مدار الشك فى نفوس الدارسين هو أن الخليل قد وضع
العروض العربى وضعاً ، واستنبطه استنباطاً ، دون أن يستفيد من أعمال من
سبقه من علماء الأمم الأخرى كاليونان والهنود ، مع أن لهؤلاء اتصالاً قديماً
بالبيئة التى نشأ فيها الخليل ، ولهم فيها آثار باقية ، ولهم فيها مدارس نشأت
فيها وفى الجهات القريبة منها كالديارات المحيطة بها •

ان قضية العروض واقتباس الخليل اياه من جهة أجنبية - من اليونان
كما كان الجارم يقول ، أو من الهنود كما يظن بعض الباحثين - كقضية النحو
وتأثر النحاة العرب بنحو اليونان •

أكبر الظن أن العروض قضية اجتماعية تدفع الى تحقيقها حاجة اجتماعية عارضة ، وتحدها اليها الرغبة في المحافظة على سلامة التراث القومي ، وان أمة من الأمم لاتشعر بضرورتها الا حين تحيط بها ظروف يخشى منها على كيان أو تراث ، وأن اليونان لم يشعروا بالحاجة الى العروض الا بعد أن أخذت اليونان تتوسع وتختلط بأهل البلاد المفتوحة ، الذين أخذوا يشاركونها ثقافتها وعلومها ، ويحاكونها في فنونها ، ومنها الشعر ، ولا يخفى ما يستتبع ذلك من أخطار تهدد سلامته •

وأن الهنود كانوا يعنون بالشعر عناية فائقة حتى انهم كانوا ينظمون كتبهم وعلومهم وفلسفاتهم ليسهل حفظها واستظهارها ، بل لقد شعر البيروني بان «أكثر الهنود يهتَرون لمنظومهم ويحرصون على قراءته ، وان لم يعرفوا معناه ، ويفرقون أصابعهم فرحا به ، واستجادة له ، ولا يرغبون في المنشور وان سهلت معرفته» (٩) •

والشعر في كل أمة ينزع أول أمره منزعا فطريا توحى به الفطرة ، وتدفع اليه السليقة ، والشعراء منهم يقولون الشعر فيأتون به سليما وفق القوانين الذوقية العامة المستنبطة من ذوق الأمة العام ، قبل أن يفكروا في القوانين أنفسها ، وقبل أن يعرفوا الأوزان التي ينظمون عليها ، والعيوب التي تعرض للشعر قوافيه وأوزانه ، ويبقى الشعر هكذا فطريا سليقا مادامت لغة الأمة بعيدة عن التعرض لخطر يهدد كيانها بتهديد تراثها •

وأكبر الظن أن الهند لم تتعرض للخطر الا بعد أن اجتاحت العرب قسما من أراضيها في عهد الحجاج ، وعلى يد محمد بن القاسم الثقفي القائد العربي المعروف ، فليس الدارس بمتجن اذا قال بان الهنود لم يفكروا

(٩) تحقيق ما للهند من مقولة للبيروني ص ٦٦ (لايبزج) •

بالعروض ، ولم يشعروا بضرورة وجوده الا بعد أن شعروا بالخطر يتهدد
كيانهم وتراثهم الذي يعتزون به •

والبيروني قد عرض للعروض عند الهنود ، وعرض لأوزانه وتفعيلاته
وأجزاء تفعيلاته ، ويبدو مما ذكره أن عملهم في العروض يشبه عمل العرب ،
فكما أن العرب «عملوا من التفعيلات قوالب لأبنية الشعر ، وأرقاما للمتحرك
منها والساكن ، يعبرون بها عن الموزون ، فكذلك سمي الهند لما تركب من
الخفيف والثقيل ••• القابا يشيرون بها الى الوزن المفروض!» (١٠) •

والعروض العربي لم ينشأ الا حين دعت اليه الحاجة ، ولم تتسم هذه
الحاجة بالضرورة الا بعد أن اختلط العرب بغيرهم ، وعاشوا في بيئة واحدة ،
يتبادلون في العيش والعادات والثقافات ، والا بعد أن أخذت تفتد على المجتمعات
العربية مع الوافدين الأجانب أوزان لم يكن للعرب بها عهد • وكان الخليل
ابن أحمد في هذا هو المتحمل لهذه التبعة ، والمنقذ للتراث العربي ، حين شعر
بالخطر يهدده •

ولا شك أن هناك تشابها بين عروض اليونان وعروض الهند من جهة ،
وعروض العرب من جهة أخرى ، وأن مصطلحات يونانية تردت على لسان
بعض العرب ، كلفظة (ميتري) اليونانية التي تؤدي معنى التفعيلة في العربية •
أقول : لاشك أن هناك تشابها في ذلك ولكن مجرد التشابه لا يثبت
قضية ، فكثير من أوجه الشبه بين عاملين ناتج عن تشابه القوانين التي يسير
عليها الفكر البشري ، فاذا ما عرضت للفكر العربي حاجة عرضت مثلها لليونان
والهنود ، فادّت الى وجود النحو العربي أو العروض العربي ، فان ذلك لا يعنى
أن ما قام به العرب من أعمال متأثر تأثرا مباشرا أو مقتبس اقتباسا من أعمال
اليونان أو الهنود •

(١٠) المصدر السابق •

هذا الى أن أسماء الأوزان وأسماء العلل والزحافات والعيوب كلها عربية خالصة ، واذا ورد اسم (ميتر) على لسان الباقلائي ، كما يقول الجارم ، فان ذلك بعد أن ترجم عروض اليونان ، وأخذت المصطلحات اليونانية تتردد على ألسنة الدارسين ، كما أن اسم (العروض) عربي خالص وهو اسم مكة ، وقد زعم المؤرخون أن الخليل سمى هذا العلم عروضاً تيمناً باسم مكة التي شعر أنها ألهمته هذا العلم ، وهدته الى السير فيه حتى أتمه .

وليس بعيد أن يكون قد وصل الى الخليل أن لليونان أو الهنود عروضاً وأدرك ضرورة مثل ذلك للشعر العربي وخاصة حين أحس بالحاجة اليه . وقد يكون الخليل قد وقف على الأسس التي قام عليها عروض اليونان ، وان كنا لانعرف كيف كان هذا ، ولا عن طريق من تحقق له معرفة ذلك ، فلم يقع في أيدينا بين من صاحب الخليل ولازمه من عرف بعروض يوناني أو هندي (١١) .

(١١) ان المصادر التي أمكن الوقوف عليها تتفق على أنه من عمل الخليل ومن استنباطه واختراعه .

فابن سلام يقول : «استخرج الخليل العروض ، واستنبط منه ومن علمه مالم يستخرج أحد ولم يسبقه الى علمه سابق» . (طبقات الشعراء ص ١٥) .

وابن النديم يقول : «وهو أول من استخرج العروض ، وحسن به أشعار العرب» . (الفهرست ص ٦٤) .

والزبيدي يقول : «واستنبط من العروض ومن علل النحو مالم يستنبط احد ومالم يسبقه الى مثله سابق» . (طبقات النحويين «نسخة مصورة بدار الكتب») .

والقفطي يقول : «استنبط من العروض وعلله مالم يستخرجه أحد ، ولم يسبقه الى علمه سابق من العلماء كلهم» . (انباء الرواه ج ١ ص ٣١٩ «مخطوطة بدار الكتب») .

وياقوت يقول : «هو أول من استخرج العروض وضبط اللغة وحصر أشعار العرب» ، وينسب استخراج العروض الى معرفته بالايقاع والنغم . (معجم الادباء ج ١١ ص ٧٢) .

(٥)

الاستعمال وأثره في البناء

أ - لا أريد أن أثبت هنا أن للخليل رأياً منظماً في التطور التاريخي للغة العربية ، ولكنني بصدد الزعم بأن فكرة تطور اللغة من الأفكار التي اطمأنت إليها نفس الخليل ، وان لم يدرسها دراسة علمية ، وكل ما هنالك اشارات منه تقنع الدارس بوجود هذه الفكرة في ذهنه .

وحزمة بن الحسن الاصفهاني يقول : « وبعد فان دولة الاسلام لم تخرج أبدع للعلوم التي لم يكن لها عند العرب أصول من الخليل ، وليس على ذلك برهان أوضح من علم العروض الذي لا عن حكيم أخذه ولا على مثال تقدمه احتذاه ، وانما اخترعه في ممر له بالصفارين من وقع مطرقة على طست » .
(التنبيه على حدوث التصحيف « نسخة مصورة بدار الكتب » ص ١٢٣) .
وبروكلمان يصرح أن الروايات تنسب الى الخليل اختراع العروض ولم يتناول الروايات بالتوهين والتكذيب . (تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ٢٧ طبع بيروت) .

وجول روانيت يقول : « وكان العرب يصنعون الشعر بغير أن يعرفوا قواعده وبغير عامل سوى سجية القياس الشعري الموجودة في غريزتهم ، الى أن جاء الخليل بن أحمد في القرن الثامن ووضع قواعد العروض . ومنشأ هذه الفكرة أنه رأى طائفة من الحدادين يطرُقون الحديد بمطارقهم بحركة متزنة منتظمة » . (دائرة المعارف الموسيقية ص ٤٢) .

حتى البستاني الذي يزعم أنه كان له المام تام باليونانية يستبعد أن يكون قد اطلع على عروض أرسطو « لان هذه الكتب لم تترجم ولم تختلط علوم اليونان بعلوم العرب الا في زمن المأمون وبعده ، والخليل مات قبل ذلك الزمان » . (دائرة المعارف ج ١ ص ٤٦١) .

وغير هؤلاء كثير وقالوا بالمقالة نفسها .

ثم أرجع الى الخليل نفسه ، فأجد من أعماله ، ومما أمتاز به من عقل خالق مبتكر ما يؤيد آراء القدماء في أنه واضع علم العروض ومبتكره ومستنبطه .

فمن هذه الاشارات رأيه في زيادة الألف على كلمات مبدوءة بساكن، كاقشعر وغيرها ، وعلى أسماء زيدت فيها همزات الوصل بشكل دائم ، كاسم وابن وامرىء ، كأنه كان يرى ما يظنه المحدثون الآن من أن اللغة مرت في مراحلها التطورية بمرحلة كانت أوائل كلماتها ساكنة ، ويفسر هذا الكثرة الهائلة من المفردات التي استعين أخيرا على الساكن المتبدأ به فيها بهمزات كان الخليل أيضا يرى أنها ألحقت للتوصل بها الى النطق بالساكن .

وكان بين النحويين خلاف في همزة (اسم) فالخليل يذهب الى أن الهمزة زيدت للتوصل الى النطق بالساكن (١) ، أما غيره من النحاة سواء أكانوا بصريين أم كوفيين فانهم يذهبون الى أنها عوض عن الحرف المحذوف ، فالصريون - غير الخليل - يرون أنها عوض عن الواو ، لأن الاسم من السموء والكوفيون يرون أنه عوض عن الواو أيضا ، لأن الاسم من الوسم (٢) .

ان القول بالتطور اللغوى فرع القول بأن اللغة ليست توقيفا ، وانما هي من صنع البشر ، وأنها اصطلاح جماعى لاتنسب الى واضع بعينه ، وقد سبق لأصحاب الكلام أن تناولوا هذه المسألة ، فقالوا بأن اللغة اصطلاح ، ليست توقيفية وليست من وضع واضع معين ، ولذلك كان مذهبهم يسمى مذهب الاصطلاح .

وأقوال الخليل تشعرونا أنه كان يذهب مذهب أصحاب الكلام من المعتزلة وكان له فى بداية نشأتها رأى صائب طريف فقد استظهرنا فيما سبق أن اللغة عنده أصوات نشأت ساذجة وقصد بها الى محاكاة أصوات الطبيعة والانسان والحيوان ، ثم أخذت تتعقد شيئا فشيئا تبعا لتعقد المجتمعات

(١) الكتاب ج ٢ ص ٦٢ .

(٢) الانصاف فى مسائل الخلاف . المسألة الاولى ج ١ ص ٤ .

الانسانية ، وتبعد عن مدلولاتها الأصلية شيئاً فشيئاً ، تبعاً لما تحمله معها في تطورها من دلالات جديدة وما يحف بها من أجواء طارئة •

وقد رأينا أن الخليل كان يرى أن اللغة مجموعة من الأصوات الصامتة الساكنة ، ثم زيد فيها حروف المد أو الحركات التي هي أبعاض حروف المد ، واستعين بهذه الحروف والحركات على النطق بتلك الأصوات ، لأنها ، وهي ساكنة ، لا يمكن النطق بها ، ولا دلالة لها على معنى من المعاني • فعادة (ق ت ل) مثلاً هي البناء الأصلي لقتل و قَتَلَ و يَقتُلُ ، وقاتل و قَتِلَ و قَتَلَ و قَتيل ، ولولا توسط حروف المد أو أبعاضها لما أمكن النطق بها ولا فهم منها معنى من المعاني المستفادة من هذه الأبنية ، وليس لازماً أن يستعان على النطق بهذه الأصوات الساكنة بحروف المد ، فالحركات تقوم مقامها عند الخليل لأنها أبعاضها •

وكان الخليل قد راودته فكرة أن اللغة في بداية أدوارها كانت تعتمد على الأصوات الساكنة المجردة ، وما أن تقدمت الحياة بالإنسان وشعر بالحاجة إلى التفاهم حتى أدرك صعوبة النطق بها أو تعذره ، فلجأ إلى حروف المد يستعين بها على النطق بأصول البناء الساكنة ، ثم شعر بطول هذه الحروف اللينة فعمل على تقصيرها ، فكانت الحركات ، ولم يكن ذلك ليكون دفعة واحدة ، وإنما اقتضى ذلك فترات طويلة •

ولبعض المحدثين معالجات لهذه الفكرة ، وصل منها إلى ما يؤيد الخليل فيما نظن أنه فكر فيه ، فذهب إلى أن اللغة قد مرت بمراحل كانت حروف المد في مراحلها الأولى جزءاً من أصولها ، ثم أخذت تتحلل منها شيئاً فشيئاً حتى اقتصر على أبعاض منها ، وهي الحركات •

ونقل للشيخ مصطفى الغلايني فقرة من بحث نشر له في مجلة الكشاف • قال الشيخ فيه : «الحركات في العربية أحرف مد في عهد اللغة القديم ،

فالمضموم والمفتوح والمكسور كان يعتمد على حرف من أحرف المدّ ، وبعد فقد تهذبت اللغة لسنة تغلب القوى على الضعيف ، وأقوى دليل أن العبرية لم تنزل تعتمد على أحرف المدّ ، في حين أن هذه الألفاظ قد فقدت الحروف في العربية» (٣) .

وبيني هذا الباحث ظنه على ما وجد من ألفاظ عربية تخلفت عن السير مع أخواتها ، فظلت تحمل معها بقايا عهد قديم كانت أخواتها مثلها فيه .

ويذكر منها : يسروع ويعسوب ويربوع ويعتيد ويعضيد ويقطين ، وكان السيوطي قد عقد في المزهرة فصلا خاصا بهذه الصيغة ، ذكر فيها هذه المفردات وغيرها (٤) ، ويمكن الرجوع إليها الى ما ذكر .

والاستعمال عند الخليل في مقدمة الاعتبارات التي يضعها نصب عينيه لفقه اللغة وفهم تطورها ، فله أقوال كثيرة في تعبيرات وصيغ أثر فيها الاستعمال ، فحذف بعض أجزائها أو غيرَ فيها شيئا ، وكان الخليل يلجأ الى التأويل في الرجوع ما حذف منها ، كأنه كان يرصد مراحل استعمالها المختلفة التي مرت بها .

وله آراء كثيرة في أدوات كثيرة كانت الواحدة منها قد جاورت صاحبتهما في الاستعمال ، وظل هذا التجاور بينهما ، وأثر فيهما الاستعمال معا ، فلاحا كأنّهما أداة واحدة ، وخدع وضعهما الأخير من تناولهما بالدرس ، فتناولهما على أنّهما أداة واحدة بسيطة لا تركيب فيها .

ولكن الخليل المتفقه في اللغة والمؤمن بالاستعمال وأثره لم يخدعه مظهرها الأخير ، فأدلى فيها بأقوال كان ينسبها كثير من النحاة الى كلام

(٣) مقدمة لدرس لغة العرب للعلاليلي ص ١٧٨ «المطبعة العصرية» .

(٤) المزهرة للسيوطي ج ٢ ص ١٠١ «مطبعة السعادة» .

المتصوفة ، أو الى المعميات ، أو الى الشذوذ ، لعدم ادراكهم المنهج الذي سار عليه الخليل والفكرة التي كان يؤمن بها في دراسته اللغوية ، كرايه في لن وليس وغيرهما من الأدوات التي سنعرض لها في هذا الفصل ، هادفين ، الى تثبيت الفكرة في الأذهان ، مطمئنين الى أنها كانت تراود نفس الخليل • ونحن لانطالب الخليل أن يخطو أكثر مما خطاه في هذا الموضوع ، فحسبنا منه ما أدلى به من آراء ، وما أملاه على تلاميذه من أقوال ، وحسبه أن كان الدارس الأول والأخير - فيما نظن - في الوقت الذي لم تنهأ له الظروف ليجعل من هذه الفكرة نظرية تامة البناء ، ويكفيه منها أنها تحمل في ثناياها نظرية تامة التكوين ، وان لم يتح لها الحياة ، اذ لم يتح لها الخالقون من علماء اللغة طوال هذه القرون •

ويمكن استنتاج هذه النظرة التاريخية من أقواله في صيغ وأدوات كثيرة الدوران في الكلام ، وكلها مما يندرج تحت هذه الظاهرة اللغوية التي سنتناولها وهي ظاهرة النحت والتركيب •

ب - النحت والتركيب

هاتان كلمتان تتلاقيان في معنى واحد هو استخلاص كلمة من أصلين أو أكثر • والظاهر أن بينهما فرقا ينبغي الا يهمل • فالنحت يتحقق باستخلاص كلمة واحدة من كلمتين أو أكثر لكل واحدة معنى مستقل بعد اقتطاع بعض أجزائهما • والتركيب يتحقق باستخلاص كلمة واحدة من كلمتين أو أكثر للدلالة على معنى مركب ، كأنواع التركيب المعروفة في العربية ، وهي التركيب المزجي والتركيب الاضافي والتركيب الاسنادي •

والتركيب ظاهرة في اللغات لاتختص بها العربية ، بل هي في العربية أو في اللغات السامية أقل منها في اللغات الهندية الأوروبية ، ولاسيما الحديثة منها ، فقلما تجد في هذه اللغات كلمات ترجع الى أصل واحد •

وأمثلة التركيب فى اللغات الاوروبية الحديثة كثيرة جدا ، ففى

الانكليزية مثلا نحو : allright ، doorkeeper ، Pickpocket

Postoffice ، وغيرها مما يؤدى الى كلمة واحدة •

ومن هذه المركبات الانجليزية ما ألحق به صلة سواء أكانت فى أوله

Prefix أم فى آخره Suffix • (٥)

وهذا كله لم يمرّ بالعمليات التى مرت بها الكلمات المنحوتة فى

العربية مما سنعرض له ، فينبغى ألا نخلط بين هذا النوع وبين المركبات التى

لم يعرض الحذف لأصولها ، كما عرض لأصول المنحوتات ، كما فعل

الدكتور على عبدالواحد وافى فى كتابه «فقه اللغة» • (٦)

ولعل أكثر ما وجد من النحت فى العربية كان فى عصر متأخر ، فلو

تبعنا الكلمات التى أثبت القدماء أنها منحوتة لوجدتها اسلامية بحتة كالبسملة

والحمدلة والحوقة والهيلة والحسيلة والحيعة والسمعة ، فانها منحوتة

من : بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله ، لاحول ولا قوة الا بالله ، لا اله

الا الله ، حسبى الله ، حى على الصلاة ، سمع الله لمن حمده • اللهم الا ما قل

من مثل عبشمى وعبدرى وعبقى ، نسبة الى عبد شمس وعبدالدار وعبد

القيس ، فلا نستطيع تحديد تاريخها ، ولا القطع بقدمها أو حدايتها •

وقد تناول الخليل هذه المنحوتات ، فذكر أمثلة لبعضها سبق أن عرضنا

له ، كالحيعة والهيعة • وزعم ابن فارس أن الخليل أنشد :

أقول لها ودمع العين جار ألم يحزنك حيعة المنادى (٧)

(٥) راجع كلمة Compound فى :

Webster's Students Dictionary, P. 169

(٦) الطبعة الثانية ص ١٥٠ ، ١٥١ •

(٧) الصحابى لابن فارس ص ٢٢٧ •

وجاء الدارسون فعرضوا لها أيضا ، وغلا بعضهم ، فذهب الى أن أكثر الأبنية التي تزيد أصولها على ثلاثة منحوتة من كلمتين ، «مثل قول العرب للرجل الشديد : ضبط ، من ضبط وضبر ، وفي قولهم صهلق : انه من سهل وصلق ، وفي الصلدم : انه من الصلد والصدم» (٨) .

ويظن بعض الدارسين أن النحت انما يكون بين اسمين فأكثر ، ولا يكون بين الحروف والأدوات ، ويعدّ رأى الخليل في ذهابه الى أنه قد يكون بين الحروف ، نوعا من الآراء التي انفرد بها ، وشذّ عن جمهرة الباحثين (٩) .

والحق أننا لم نعثر للخليل على كلام مفصل في نحت الكلمات غير الأدوات والحروف الا ما أثبتناه له فيما سبق من أمثلة التفت الى ما فيها من نحت ، ولعل عدم تفصيله الكلام في المنحوتات غير الحروف والأدوات أن يرجع الى قلة ذلك في اللغة العربية ، وندرة الأمثلة التي خضعت لعملية النحت .

ولكن الأصل الذي استخرجه ، والذي رأينا أن له اتصالا وثيقا بالنحت لا يختص بطائفة معينة من الكلمات ، فكما يصدق على الأدوات والحروف يصدق على الأسماء أيضا .

كان الخليل يرى «أن الكلمتين اذا ركبنا ، ولكل منهما معنى وحكم أصبح لهما بالتركيب حكم جديد ، وقد أدخل في هذا الأصل جميع الأدوات التي رأى أنها مركبة من أداتين .

ويحسن بنا أن نفرق بين طائفتين من هذه الأدوات التي أدخلها في هذا الاصل بين طائفة انبنى تركيبها على أساس النحت ، وطائفة انبنى تركيبها على

(٨) المصدر السابق .

(٩) تاريخ علوم اللغة العربية ، لطفه الراوى ص ٢٨ .

الاتصال المحض والتلازم المحض ، وكلتا الطائفتين عنده تشتركان في أنها
اصطنعت لنفسها حكما جديدا •

• أما أدوات الطائفة الأولى فهي : لن وليس واذن •

(١) لن :-

ذهب الخليل الى أن أصلها : لا أن ولكنهم حذفوا لكثرة في كلامهم ،
كما قالوا : ويلمه يريدون : وى لأمه ، وكما قالوا : يومذ • وجعلت بمنزلة
حرف واحد فانما هي هل ولا « (١٠) •

قال ابن جنى في سر صناعة الاعراب ، بعد أن عرض لكأن وذكر أن
أصل (كأن زيدا عمرو) : ان زيدا كعمرو ، ثم قدمت الكاف على ان فانفتحت
همزتها ، لأنها ركبت مع ان ، فصار لها معها حكم جديد •

قال : «ونظير هذا الكلام في أنه قد خلط بعضه ببعض وصار فيه كأنه
حرف واحد مذهب الخليل في لن ، وذلك أن أصلها عنده : (لا أن) ، وكثر
استعمالها ، فحذفت الهمزة ، فالتقت ألف (لا) ونون (لن) ، وهما ساكتان ،
فحذفت الألف من (لا) ، لسكونها وسكون النون بعدها ، فصارت (لن) ،
فخلطت اللام بالنون ، وصار لهما بالامتزاج والتركيب الذي وقع بينهما حكم
آخر • يدلّك على ذلك قول العرب : زيدا لن أضرب ، فلو كان حكم (أن)
المحذوفة الهمزة مبقى بعد حذفها ، وتركيب النون مع لام (لا) قبلها ، كما كان
قبل الحذف والتركيب لما جاز لزيد أن يقدم على (لن) ، لأنه كان في التقدير
من صلة أن المحذوفة الهمزة ، ولو كان من صلتها لما جاز تقدمه عليها على

(١٠) الكتاب ج ١ ص ٤٠٧ •

وجه ، فهذا يدل على أن الشئيين اذا خلطا حدث لهما حكم ومعنى لم يكن لهما قبل أن يمتزجا» (١١) .

واتخذ ابن جنى من هذا الذى لمح به من مذهب الخليل ردًا على سيويه فى ردّه على الخليل اذ قال : «ولو كانت - يعنى لن - على ما يقول الخليل لما قلت : أما زيدا فلن أضرب ، لأن هذا اسم والفعل صلة له ، فكأنه قال : أما زيدا فلا الضرب له» (١٢) .

وقال الليث : «زعم الخليل فى لن أنه (لا أن) ، فوصلت لكثرتة فى الكلام . ألا ترى أنها تشبه فى المعنى (لا) ، ولكنها أوكد . تقول : لن يكرمك زيد . معناه كأنه كان يطمع فى اكرامه ، فنفيت ذلك ووكدت النفسى بلن فكانت أوجب من لا» (١٣) .

وذهب الخليل الى أن (لن) أصلها (لأن) يستند فيما أرى الى شئيين : أحدهما : أنه فهم منها النفى كما صرح به فى رواية الليث ، وحروف النفى الأصلية فى العربية هى لا وما ، وهما ينفيان الاسم كما ينفيان الفعل ، ونظر فى الحروف المشتركة والحروف المختصة فرأى أن المختصة هى العاملة دون المشتركة ، و (لن) خاصة بالأفعال المضارعة ، واختصاصها بها يلفت الذهن الى أن هذا الحرف مركب لا بسيط ، وذهابه الى أنها مركبة من (لا وأن) يفسر هذا الاختصاص وافادة النفى لأن (أن) معها دائما ، وهى المختصة بالفعل وتعمل فيه النصب ، و (لا) معها دائما وهى التى يفهم منها النفى .

وثانيهما : أنه أدرك بحسّه اللغوى أن (لن) من الأدوات التى ترك فيها الاستعمال أثره ، والاستعمال عند الخليل دائما عامل من عوامل

(١١) سر صناعة الاعراب - حرف الكاف .

(١٢) الكتاب ج ١ ص ٤٠٧ .

(١٣) لسان العرب - مادة لن .

التخفيف ، وهو الذى أسقط من هذين الأصلين اللذين ركبت منهما (لن) بعض حروفهما ، ووصل ماتبقى من الثانى بما تبقى من الأول ، كما أن هذه العملية الاستعمالية هى التى أسقطت الهمزة من (ويلمه) •

وجاء الباحثون المحدثون فأيّدوا الخليل فى ذهابه الى تركيب (لن) الذى كان القدماء من النحويين يعدونه قولاً شاذاً ، لأنهم كانوا ينزعون الى بساطتها • وقد بحث المحدثون فيها وفى أمثالها من الحروف فى اللغات السامية الأخرى التى تكوّن مع العربية عائلة لغوية واحدة لها صفات عامة ولها معالم مشتركة ، فذهبوا مذهب الخليل فيها ، فصرح بركستراسر : «أن لن مركبة من لا وأن» ، ووجد أن للن شيئاً وهو لم وكم ، فقال : «كما أن (لم) أصلها la-ma لا ما ، وكم أصلها Kama ، ولكن مركبة من لا وكن المقابلة لكلمة Ken العبرية التى معناها هكذا» (١٤) •

(٢) ليس :

وأما ليس فقد ذهب الخليل الى أن أصلها «لا أيس» ، ثم طرحت الهمزة والألف وألزقت اللام بالياء •

ثم جاء الفراء ليتابعه فى هذا فقال : «أصل ليس لا أيس ، ودليل ذلك قول العرب : اتتى به من حيث أيس وليس ، وجىء به من حيث أيس وليس ، أى من حيث هو وليس هو» (١٥) •

وإذا نحتت ليس من لا وأيس أصبح لها حكم جديد ، وهو هذا الأسلوب المعروف لها فى النحو ، واتخذت مكاناً لها بين كان وأخواتها ، فدخلت على المبتدأ والمبنى عليه فرفع المبتدأ ونصب المبنى عليه •

(١٤) التطور النحوى للغة العربية ص ١١١ •

(١٥) لسان العرب - مادة - ليس •

ولعلّ ما فيها من معنى الوجود الذى لمحّه الخليل ، وأشار اليه الفراء حين فسّر قول العرب : «جئنى به من حيث أيس وليس» بقوله : «أى من حيث هو وليس هو» ، لعل ذلك هو الذى هيأ لها أن تنضم الى عائلة الأفعال الدالة على الوجود فى زمن من الأزمان ، وأصبح لها أسلوبها ، وأخذت لنفسها أحكامها كالاتصال بالضمائر ، وان اختلفت عنها بعض الاختلاف من حيث تقديم ما بعدها عليها أو تقديم ماله صلة بما بعدها عليها •

ولعل معنى الوجود الذى يلمح فيها يؤيد ظن من يظن أن (أيس) هو فعل الكينونة ، كما كان فى أخواتها من اللغات السامية الأخرى ، ولكنه انقرض من العربية •

وأيد البحث الحديث مذهب الخليل فى ليس ، فزعم بركستراسر أنه «اشتقت من (لا) أدوات أخرى للنفى لا توجد فى سائر اللغات السامية الا ليس ، فيقابلها فى الآرامية ليت *lait* ، وهى مركبة من لا واسم معناه الوجود ، يحتمل أن يكون لفظه القديم *iitai* ، أو قريبا من ذلك ، وهو أيس *ies* فى العبرية ، وايتى *itai* فى الآرامية العتيقة ، ويقاربها فى الأكديّة فعل وهو *isu* ايسو ، أى يملك الشئ وهو له ، فمعنى *Lait* : لا يوجد ، وهذا هو معنى (ليس) الأصلى غير أن حروفهما لا تتطابق تماما ، فانا كنا قد بينا أن السين العربية لا يقابلها فى اللغات السامية الشمالية الا السين أو الشين ، ولا يقابلها التاء أو الثاء الآراميتان ، ولا يوجد بين الحروف العربية حرف يقابله فى الآرامية التاء أو الثاء ، وفى العبرية والأكديّة الشين أو التاء ، فكان يلزم أن تكون (ليت) *Lait* فى العربية ليت ، وقيام السين فى ليس مقام التاء نقص لقوانين الأصوات السامية» (١٦) •

(١٦) التطور النحوى للغة العربية ، ص ١١١ •

أكبر الظن أن (ليس) عربية ليس لها ما يقابلها في الساميات الأخريات •
أما (ليت) الآرامية ففي العربية ما يماثلها ، وهو (لات) ، و (لاث) تستعمل
في العربية استعمال ليس ، وهي فيما نرى الأداة العربية التي تماثل (ليت)
الآرامية مع اختلاف في صوت اللين •

ونحن هنا لا نريد أن نبعد في التكهن ، أو نقف طويلا على أصالة السين
وعدمها ، أو على وجود ما يقابلها في الساميات الأخريات أو عدمه ، لأن المسألة
هنا تتعلق في تركيب ليس وعدمه ، وقد ذكرنا أن الخليل والفراء كانا يذهبان
إلى أن ليس مركبة من لا وأيس ، وأن الاستعمال أثر في هذين الأصلين
وحذف بعض حروفهما كما أثر في (لا وأن) وأسقط بعض حروفهما •



(٣) اذن :-

وأما اذن فأداة اختلف فيها النحاة اختلافا كبيرا ، فمنهم من ذهب إلى
أنها بسيطة ، ومنهم من ذهب إلى أنها مركبة من (اذ وأن) • والقائلون ببساطتها
اختلفوا فيما بينهم ، فمن قائل انها هي الناصبة ، ومن قائل ان النصب بأن
مضمرة بعدها • (١٧) •

أما الخليل فلم أقف له على رأى صريح فيها ، ولكنى أظن أنه ممن
يذهب إلى تركيبها من اذ وأن ، مستندا في ذلك إلى شيئين :

(١) أنى رأيت يذهب إلى تركيب لن ، واذن من حيث حسنها اللغوى تشعر
بتركيبها من اذ وأن •

(٢) أنى وقفت على رأى له في نصب الفعل المضارع ، رواه أبو عبيدة عنه

(١٧) ابن هشام في مغنى اللبيب ، ج ١ ص ١٩ •

قال : قال الخليل : « لا ينتصب شيء من الأفعال المضارعة إلا بأن مضمرة أو مظهرة في كى واذن ولن وغير ذلك » (١٨) .

فلا ينتصب الفعل المضارع عنده إلا بأن ، وأن تنصبه ظاهرة حينا ومضمرة حينا آخر . أما (لن) فقد عرفنا مذهب الخليل فيها ، فإذا نصب الفعل المضارع بعدها فالنصب لأن التى نحتت (لن) منها ومن لا .

وأما كى فأكبر الظن أنه يذهب الى أنها لا تنصب هى الفعل المضارع ، لأنها غير مختصة به ، ولا يعمل إلا الحرف المختص ، لأنه وجدها تدخل فى لغة صحيحة على الأسماء ، فى قولهم : كيمه بمعنى لمه .

وأما (اذن) فنصب الفعل بعدها - بناء على ما زعم الخليل - يرجع الى أن ، وأن هذه لا تظهر بعد اذن ناصبة للفعل المضارع ، فاما أن تذهب الى أن (أن) مضمرة بعد اذن وهذا بعيد ، ولا أظن الخليل كان يذهب اليه ، وسيويه لم يسمعه منه ، واما أن تذهب الى أنها مركبة من اذ وأن ، وأن نصبها الفعل يرجع الى أن التى نحتت (اذن) منها ومن اذ ، وهو أقرب الاحتمالين ، وألصق بمذهب الخليل .

وقد يعترض على هذا بأن (اذن) اذا كانت مركبة من اذ وأن ، فما معنى الغاء عملها فى المواضع التى نصّ بها على الغائه ؟ ولكن لا ينبغى أن ننسى رأى الخليل فى المركبين المتلازمين من أن التركيب يمنحهما حكما خاصا .

وأما أدوات الطائفة الثانية فكثيرة ، منها ما لازمه كاف التشبيه ، ومنها ما لازمه (ما) ، ومنها ما لازمه (لا) ، ومنها ما لازمه غير ذلك وكلها مما ينزله الخليل منزلة الكلمة الواحدة ، وان لم ينظر اليها على أنها أصبحت بهذا التلازم والاتصال مركبة تركيب لن وليس واذن ، أو تركيب حضر موت وغيرها .

(١٨) شرح السيرافى على الكتاب ج ١ ص ٣٢ «مخطوطة لاستاذنا» .

أما الأدوات التي لازمتها كاف التشبيه ونزلت منها منزلة الجزء فهي كأن وكأى وكذا •

(كأن) : عند الخليل مركبة من كاف التشبيه وان • قال سيويوه : «سألت الخليل عن كأن فرغم أنها ان لحقتها كاف التشبيه ، ولكنها صارت مع ان بمنزلة كلمة واحدة ، وهي نحو كأى رجلا ، ونحو له كذا أو كذا درهما» (١٩) ، ثم صار لهما بالتركيب حكم جديد هو عدم احتياجهما الى متعلق لهما ولمجرورها ، كما احتاجت اليه سائر الحروف الجارة ، وقد أشار ابن جنى الى هذا حين قال : «ان أصل قولنا كأن زيدا عمرو انما هو : ان زيدا كعمرو ، ثم انهم أرادوا الاهتمام بالتشبيه الذى عقدوا عليه الجملة ، فأزالوا الكاف من وسطها ، وقدموها الى أولها ، لافراط عنايتهم بالتشبيه ، فلما أدخلوها على ان من قبلها وجب فتح ان ، لأن المكسورة لا يتقدمها حرف الجر ، ولا تقع الا أولا أبدا ، وبقي معنى التشبيه الذى كان فيها ، وهى متوسطة بحالها فيها وهى متقدمة ، وذلك قولهم ، كأن زيدا عمرو ، الا أن الكاف لما تقدمت بطل أن تكون متعلقة بفعل ، ولا معنى فعل ، لأنها فارقت الموضع الذى يمكن أن تتعلق فيه بمحذوف» (٢٠) •

(كأى وكذا) : مركبتان عند الخليل ، أما الأولى فمركبة من كاف التشبيه وأى ، وأما الثانية فمركبة من كاف التشبيه أيضا و (ذا) ، ولكن كثرة استعمالهما متصلتين بالكاف نزلت كلاهما مع الكاف منزلة الكلمة الواحدة • قال الخليل فى تأويل كأى وكذا : «كأنهم قالوا : له كالعهد درهما ، وكالعهد من قرية ، فهذا تمثيل وان لم يتكلم به ، وانما تجيء الكاف للتشبيه ، فتصير وما بعدها بمنزلة شىء واحد ، من ذلك قولك كأن ، أدخلت الكاف على

(١٩) الكتاب ج ١ ص ٤٧٤ •

(٢٠) سر صناعة الاعراب - حرف الكاف •

ان للتشبيه» (٢١) ، وكان من أثر التركيب فيهما أن حصلا على معنى جديد واستعمال جديد ، فقد عدما التحويون من الألفاظ التي يكنى بها عن العدد ، وقد لزما الجمود فلم يتصرفا تصرفهما قبل التركيب ، فلم تصبح (أى) في كأى مثل (أى) التي تضاف الى الضمائر ، ولم تصبح (ذا) في (كذا) مثل (ذا) التي تتصرف في التذكير والتأنيث والافراد التثنية ، فلا يقال فيها كذين ولا كذه ، كما يقال في ذا : ذان وذه •

وأما الأدوات التي لازمتها (ما) فهي :

(مهما) : هي عند الخليل أداة مركبة من (ما) الشرطية و (ما) التي تلحق لغوا بمتى في قولك متى ما تأتتى آتاك ، وبأين في قوله تعالى : «أينما تكونوا يدر ككم الموت» ، وبأى في قوله تعالى : «أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى» •
ولكن ما شأن هذه الهاء ؟ يقول الخليل : «انهم استقبحوا أن يكرروا لفظا واحدا ، فيقولوا (ما ما) ، فأبدلوا الهاء من الألف في الأولى» (٢٢) •
ولا يريد الخليل قطعا الى أنهم يستقبحون مجرد التكرار ، ولكنه يرمى الى نوع منه يستقبحه العرب ، ولا يدرك الا بالذوق • وليس قوله : «كرهوا أن يشبه كلامهم بنبح الكلاب» (٢٣) ، حين سئل عن السبب الذي دعا العرب أن يصغروا (وأصلا) على (أويصل) ، مع أن القياس يقتضى ظاهره أن يصغروا على (وويصل) • وتعليه بانهم استقبحوا أن يقولوا (ما ما) ، أو بانهم كرهوا أن يشبه كلامهم بنبح الكلاب لا يستند الى أصل علمي ، ولكنه يستند الى حس لغوي ، وذوق موسيقي ، وليس تعليله هذا بأكثر من تعليل استحسانى •
(انما وأتما) : وهما عنده مر كبتان من انّ وأنّ ، و (ما) ألحقت بهما

(٢١) الكتاب ج ١ ص ٢٩٨ •

(٢٢) الكتاب ج ١ ص ٤٣٣ •

(٢٣) عيون الاخبار لابن قتيبة ج ٢ ص ١٦٠ •

لتلغى عملهما فيما بعدهما ، فقد قال : «انما لاتعمل فيما بعدها كما أن» (أرى)
إذا كانت لغوا لم تعمل ، فجعلوا هذا نظيرها من الفعل ، كما أن نظير ان من
الفعل ما يعمل « (٢٤) ♦

(أما) : وهذه الأداة ان كانت مكسورة الهمزة فالميم فيها مشددة ، وهي
إذا كانت كذلك ، مركبة عند الخليل من (ان) و (ما) ، ويستدل على أن
(ما) هنا ضمت الى (ان) بقول الشاعر :

لقد كذبتك نفسك فاكذبها فان جزعا وان اجمال صبر (٢٥)

وان كانت مفتوحة فهي مشددة الميم حينا ، ومخففة الميم حينا آخر ♦
أما المشددة فهي عند الخليل مركبة حينا ، وبسيطة حينا آخر ، فالركبة هي
التي في قولك : أمّا أنت منطلقا انطلقت ، فهي عنده مركبة من (أن وما) ،
والبسيطة هي التي في قولك : أمّا زيد فمنطلق ، وهي التي يقول النحويون
عنها : أما كمهمايك من شيء ، وهي التي يقول فيها الخليل : «انها بمنزلة
شروي» (٢٦) ♦

وأما المخففة الميم فهي عنده مركبة وبسيطة أيضا ، فالركبة هي التي
تستعمل في الاستفهام في قولك : أما تذهب ؟ وانت تستفهم ، وهي عنده مركبة
من همزة الاستفهام وما النافية ♦ والبسيطة هي التي تستعمل في الابتداء ،
وهي التي يقول النحويون في اعرابها انها للاستفتاح ، كما في قولك : أما
انه ظريف ، ولذلك كان الخليل يقول : «هي بمنزلة قفا ورحي» (٢٧) ♦

(٢٤) الكتاب ج ١ ص ٢٨٣ ♦

(٢٥) الكتاب ج ٢ ص ٦٧ ♦

(٢٦) المصدر السابق ♦

(٢٧) المصدر السابق ♦

(لوما) : ولوما عند الخليل مركبة من لو وما ، ولو هي الشرطية التي تدل على امتناع الجواب لامتناع الشرط ، ولكنها اذ دخلت عليها (ما) ولازمتها ، وكثر استعمالها ملازمة اياها تغير معناها واستعمالها ، واندرجت في هذا الأصل الذي نتحدث عنه ، وهو «أن الكلمتين اذا ركبتا ، ولكل منهما معنى وحكم ، أصبح لهما بالتركيب حكم جديد» •

(حيثما) : وحيثما عنده مركبة من حيث وهي ظرف زمان أو ظرف مكان يبنى على الضم وعلى الفتح ، ومن (ما) التي لحقت بها لتضمنها معنى جديدا هو المجازاة ، قال سيبويه : «سألت الخليل عن انما وأنما وكأنما وحيثما وان ما ، في قولك أما أن تفعل واما أن لاتفعل ، فقال : هن حكايات ، لأن (ما) هذه لم تجعل بمنزلة (موت) في حضرموت ، ألا ترى أنها لم تغير حيث عن أن يكون فيها اللغتان الضم والفتح ، وانما تدخل لتمنع (أن) من النصب ، ولتدخل حيث في الجزاء ، فجاءت مغيرة ولم تجيء كموت في حضر ولا لغوا» (٢٨) •



وأما الأدوات التي لازمتها (لا) فهي :

(لولا) :- ولولا عند الخليل مركبة من (لو) الشرطية و (لا) ، لكي تستعمل استعمالين جديدين :
أحدهما : كالذي يبدو في قوله تعالى : لولا أخرتني الى أجل قريب فأصدق •

وثانيهما : كالذي في قولهم : لولا على لهلك عمر • فلولا هنا يجازى بها أيضا ، ولكنها تدل على امتناع الجزاء لوجود الشرط ، ولم تكن لتكون كذلك لولا الحاق (لا) بها •

(٢٨) الكتاب ج ٢ ص ٦٧ •

يقول ابن جنى : فى تأييد مذهب الخليل فى أن الكلام اذا خلط بعضه بعض صار له بالامتزاج والتركيب حكم آخر : «ألا ترى أن (لولا) مركبة من (لو) و (لا) ، ومعنى (لو) امتناع الشيء لامتناع غيره ، ومعنى لا النفي أو النهى ، فلما ركبا معا حدث معنى آخر وهو امتناع الشيء لوجود غيره» (٢٩) .

(هـلا) :- وهلا عنده مركبة من (هل) الاستفهامية و (لا) النافية ، فلما لحقت لا بهل ، ولازمتها اكتسبتها هذه الملازمة معنى جديدا هو الحظ والحث اذا دخلت على الماضى كقولك : هلا قمت اذا لم يكن قام وأردت حملة على الندم . اذا دخلت على المضارع كقولك : هلا تقوم اذا كنت تحثه على القيام ، والتنديم قال الخليل فى معرض الكلام على لن : «وجعلت بمنزلة حرف واحد ، كما جعلوا هلا بمنزلة حرف واحد ، فانما هى هل ولا» (٣٠) .

(الا) :- والا مكسورة الهمزة مشددة اللام عنده بسيطة حيناً ومركبة حيناً آخر .

أما البسيطة فهى (الا) الاستثنائية ، فى قولك نهض القوم الا زيدا ، ولذلك كان الخليل يقول : «الا التى للاستثناء بمنزلة دفتى» (٣١) .

وأما المركبة فهى (الا) التى للجزاء ، فى قولك : أسرع والا فاتك القطار ، لأنها مركبة من (ان) الشرطية و (لا) النافية .

وأما (ألا) المخففة فهى عنده على وجهين أيضا بسيطة ومركبة ، فالتى للاستفتاح فى قولك : ألا انه ظريف ، بسيطة وكان يقول عنها : «أما قولك ألا انه ظريف وأما انه ظريف فبمنزلة قفاورحى» (٣٢) . والتى للاستفهام

- (٢٩) سر صناعة الاعراب - حرف الكاف
(٣٠) الكتاب ج ١ ص ٤٠٧ .
(٣١) الكتاب ج ١ ص ٦٧ .
(٣٢) المصدر السابق .

فى قولك ألا تذهب ؟ مركبة من همزة الاستفهام ولا النافية •

وهناك كلمات وأدوات اختلف الدارسون فيها ، فمن ذاهب الى أنها بسيطة ، ومن ذاهب الى أنها مركبة ، وللخليل فيها آراء ندرجها فى هذا الفصل ، لما بينها وبين سابقاتها من علاقة ظاهرة ، ومن هذه الأدوات :
« أنت وفروعها » :-

ذهب الخليل الى أن الضمير فيها هو (أن) ، وأن التاء لحقته كما لحقت الكاف (ذاك) ، أى أن التاء التى لحقت (أن) ، والكاف التى لحقت (ذا) ، انما قصد بهما الى الدلالة على الخطاب • ورأيه هذا هو الأساس الذى انبنى عليه مذهب البصريين من أن الضمير هو (أن) ، والتاء حرف دال على الخطاب ، فهى عنده وعندهم مركبة لا بسيطة ، كما ذهب اليه الفراء (٣٣) •

قال الخليل : «أما التى فى الاستفهام حكاية ، وألا التى فى الاستفهام حكاية ، وأما قولك : ألا إنه ظريف ، وأما انه ظريف فبمنزلة قفا ورحى ونحو ذلك ، ولعل حكاية ، لأن اللام ههنا زائدة بمنزلتها فى لأفعلن ، ألا ترى أنك تقول علك ، وكذلك كأن • الكاف دخلت للتشبيه • ومثل ذلك كذا وكأى • وكذلك (ذلك) ، لأن هذه الكاف لحقت للمخاطبة ، وكذلك (أنت) التاء بمنزلة الكاف» (٣٤) •

وكلام الخليل هذا فى معرض التسمية بالحروف والأدوات • وهذا هو المعنى بقوله حكاية ، يريد أن يقول : اذا سميت بأما التى فى الاستفهام ، وألا التى فى الاستفهام ، وبلعلّ وكان وبذلك وأنت ، فانك تسمى بها على نحو الحكاية ، كما تسمى انسانا بجملة مركبة نحو تأبط شرا ونحوه •

(٣٣) الاشمونى ج ١ ص ١٢٧ •

(٣٤) الكتاب ج ٢ ص ٦٧ •

ومهما يكن من أمر فالذى يعنينا هنا هو اعتبار الخليل (أنت) مركبة من (أن) والتاء ، وذهابه الى أن التاء جىء بها للدلالة على الخطاب وحالها فى ذلك حال الكاف فى (ذلك) •

ويخيل الى أن الخليل انما ذهب الى تركيبها ، لأنه رأى التاء متغيرة بحسب نوع المخاطب وعدده ، فيقال أنت للمخاطب ، وأنت للمخاطبة ، وتضم التاء مع زيادة تلحق بها فى التشبية والجمع ، فيقال أتما لمتى المذكر والمؤنث ، وأتم للمخاطبين ، وأتن للمخاطبات ، ورأى أن الجزء الذى سلم من هذا التغير هو (أن) • ورأى أن له نظيرا فى العربية ، وهو (ذاك) ، وهو اسم اشارة مركب من (ذا) وكاف الخطاب • وحال الكاف حال التاء تتغير بحسب حال المخاطبين وعددهم ، فيقال ذاك للمفرد المخاطب وذاك للمخاطبة ، وذاكما للمثنى ، وذاكم وذاكن للجمع ، واسم الاشارة واحد لا يتغير •

وأيد المحدثون الخليل فى تركيب (انت) من (أن) والتاء ظانين أن (أن) اسم اشارة ، وأن التاء هى الضمير المتصل الذى يستعمل فى الماضى ، نحو ذهبت ، والذى تبدأ به صيغة المضارع نحو تذهب • (٣٥) •

(وحبذا) :- وليس نصيب حبذا بعد تركيبها من (حب وذا) وتنزيل الكلمتين منزلة الكلمة الواحدة بأحسن من نصيب كأى وكذا ، فقد لازمت هى الجمود أيضا ، فلم تعد (حب) تتصرف تصرف الأفعال ، ولم تعد (ذا) تتصرف تصرف أسماء الاشارة • قال الخليل : «ان حبذا بمنزلة حب الشئ ، ولكن (ذا وحب) بمنزلة كلمة واحدة ، نحو لولا ، وهو اسم مرفوع كما تقول : يابن عمّ ، فالعم مجرور • ألا ترى أنك تقول للمؤنث حبذا ، ولا

(٣٥) التطور النحوى للغة العربية لبرجستراسر ص ٢٦ ، ٤٨ •

تقول جتده ، لأنه صار مع جبّ على ما ذكرت لك ، وصار المذكر هو اللازم
لأنه كالمثل» (٣٦) •

(واللهم) :- وهى عنده مركبة من (الله) وميم مشددة تقوم مقام (يا)
فى النداء ، وقد لازمت الميم المشددة ذلك اللفظ حتى أصبحت جزءا منه مبنيا
عليه ، كما أصبحت النون فى المثنى والجمع جزءا مبنيا عليهما ، وليس (الله)
هنا الا منادى ، ولكن تنزيل الميم المشددة منزلة جزئه منعه من أن يتصرف
تصرف المناديات ، فلم يوصف كما توصف ، ولم يدل منه كما يدل منها •
أما «اللهم فاطر السماوات» فيجب الخليل عنه بأنه على تقدير (يا) ، أى لم
يكن بدلا أو نعتا ، وانما هو منادى آخر حذف منه حرف النداء • (٣٧) •

(وايّاك) :- ويرى النحويون أن (ايّا) ضمير • وعلى هذا فالكاف التى
اتصلت بها حرف دال على الخطاب ، وليست اسما ، لأنها اذا كانت اسما وجب
أن تكون مضافا اليها والضمائر لاتضاف •

ولكن الخليل - مع أنه يرى أنها ضمير - يرى أنّها اسم مبهم يحتاج
الى مايزيل عنه الابهام ، كالأسماء الموصولة ، وأسماء الاشارة ، فهى اذن
محتاجة الى التخصيص وقد خصصت هنا باضافتها الى ضمير المخاطب ، وقد
سمع الخليل العرب يقولون : «اذا بلغ الرجل الستين فايّاه وايّا
الشواب» (٣٨) ، فاضافة (ايّا) الى الشواب تدل على أن الهاء المتصلة بايّا
الأولى ضمير ، وهو مضاف اليه ، ولذلك كان يقول : «لو أن رجلا قال ايّاك
نفسك لم أعنّقه ، لأن هذه الكاف مجرورة» (٣٩) •

(٣٦) الكتاب ج ١ ص ٣٠٢ •

(٣٧) الكتاب ج ١ ص ٣١٠ •

(٣٨) الكتاب ج ١ ص ١٤١ •

(٣٩) الكتاب ج ١ ص ١٤١ •

وعرض النحاة آخرون لرأى الخليل ، فضعفوه وعدوه شاذاً • قال ابن جنى : «أما قول الخليل ان ايا ضمير مضاف فظاهر الفساد ، وذلك أنه اذا ثبت أنه مضمر فلا سبيل الى اضافته على وجه من الوجوه ، لأن الغرض فى الاضافة انما هو التعريف والتخصيص ، والمضمر على نهاية الاختصاص فلا حاجة به الى الاضافة» (٤٠) •

ونحن نرجح رأى الخليل بثلاثة أمور :

(١) أنه سمعهم يقولون : اذا بلغ الرجل الستين فإياه وإيا الشواب ، واستعمالهم اياها مضافة الى الظاهر يشعر بجواز استعمالهم اياها مضافة الى المضمر •

(٢) أن ايا فى استعمالها خالفت أخواتها من الضمائر ، لأنها مبهمة تحتاج الى ما يخصصها بالحق علامة التكلم والخطاب والغية بها ، وذلك يشعر بأنها تختلف عن سائر أخواتها ، وأنها ليست بمنزلتها فى التعريف ، ويشعر بقوة رأى الخليل فى ابهامها واحتياجها الى ما يزيل الابهام عنها باضافتها •

(٣) أن الحروف التى تلحقها كما يزعم النحويون هى بعينها التى تستعمل أسماء ، فكيف يفرقون بين استعمالها حروفاً واستعمالها أسماء ، وليس ذلك الا لذهابهم الى أن ايا ضمير معرفة • فلما عدوها من المعارف أحالوا اعتبار العلامات بعدها أسماء لأن كونها أسماء يستدعى أن يكون لها محل من الاعراب ، ولا محل لها الا أن تكون مضافا اليها • وهذا مالا يستطيعون تصوره ، لأن الضمائر عندهم لاتضاف ، لغنائها عن التعريف والتخصيص •

(٤٠) سر صناعة الاعراب - حرف الكاف •

(وَأَلْ) :- وَأَلْ هُوَ الْحَرْفُ الَّذِي يَعْرِفُ بِهِ ، وَهُوَ فِي رَأْيِ الْحَلِيلِ
بَسِيطٌ غَيْرُ مَرْكَبٍ ، وَالتَّعْرِيفُ عِنْدَهُ مُسْتَفَادٌ مِنَ الْهَمْزَةِ وَاللَّامِ مَعَ لَا مِنَ اللَّامِ
وَحَدَهَا ، كَمَا يَذْهَبُ إِلَيْهِ نَحْوُ آخَرُونَ يَقُولُونَ أَنَّ اللَّامَ وَحَدَهَا لِلتَّعْرِيفِ ، وَهِيَ
سَاكِنَةٌ أَبَدًا ، وَجِيءَ بِالْهَمْزَةِ تَوْصِيلاً إِلَى النُّطْقِ بِهَا • قَالَ الْحَلِيلُ : «أَنَّ الْأَلْفَ
وَاللَّامَ اللَّتَيْنِ يَعْرِفُونَ بِهِمَا حَرْفٌ وَاحِدٌ ، كَقَدْوَانٌ ، لَيْسَتْ وَاحِدَةً مِنْهُمَا
مُنْفَصِلَةً عَنِ الْآخَرَى» (٤١) • وَكَانَ يَرَى أَنَّ (أَلْ) لَيْسَتْ جِزْءًا مِنَ الْكَلِمَةِ
الَّتِي اتَّصَلَتْ بِهَا ، وَأَنَّهَا هِيَ كَلِمَةٌ مُسْتَقْلَةٌ يُوْتَى بِهَا لِلتَّعْرِيفِ إِذَا أُرِيدَ وَتَتْرَكَ
إِذَا لَمْ يَرِدْ • وَاسْتَدَلَّ عَلَى انْفِصَالِهَا وَاسْتِقْلَالِهَا عَنِ مَدْخُولِهَا بِقَوْلِ الشَّاعِرِ :

دع ذا وعجل ذا والحقنا بذا ال بالشحم انا قد مللنا بجل

فَقَالَ : «هِيَ هَهُنَا كَقَوْلِ الرَّجُلِ وَهُوَ يَتَذَكَّرُ : قَدَى قَدِ فَعَلَ ، وَلَا يَفْعَلُ
مِثْلَ هَذَا عَلِمْنَا شَيْءٌ مِمَّا كَانَ مِنَ الْحُرُوفِ الْمَوْصُولَةِ» (٤٢) • وَلِأَنَّهَا بَسِيطَةٌ
عِنْدَهُ «كَانَ يَسْمِيهَا (أَلْ) ، كَقَوْلِنَا (قَد) ، وَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَقُولُ الْأَلْفَ وَاللَّامَ ، كَمَا
لَا يَقُولُ فِي قَدِ الْقَافِ وَالذَّالِ» (٤٣) •

وَالَّذِي يَسْتَفَادُ مِنْ أَقْوَالِ الْمُحَدِّثِينَ صَحَّةَ رَأْيِ الْحَلِيلِ فَأَدَاةُ التَّعْرِيفِ
مَوْجُودَةٌ فِي ثَلَاثٍ مِنَ اللُّغَاتِ السَّامِيَّةِ ، وَهِيَ الْعِبْرِيَّةُ وَالْآرَامِيَّةُ وَالْعَرَبِيَّةُ ،
وَهِيَ فِيهَا جَمِيعًا مَكُونَةٌ مِنْ حَرْفَيْنِ ، وَلَيْسَتْ أَدَاةُ التَّعْرِيفِ فِي هَذِهِ اللُّغَاتِ
تُؤَدَّى بِلَفْظٍ وَاحِدٍ ، فَهِيَ فِي الْعِبْرِيَّةِ وَالْآرَامِيَّةِ : ha ، أَلَا أَنَّهَا فِي الْعِبْرِيَّةِ
تَلْحَقُ بِأَوَّلِ الْكَلِمَةِ ، فَإِذَا أَرَادُوا أَنْ يَقُولُوا : (الملك) قَالُوا : هَا مَلِكٌ
hammelek • وَفِي الْآرَامِيَّةِ تَلْحَقُ بِآخِرِ الْكَلِمَةِ ، فَيَقُولُونَ : مَلِكًا ،

(٤١) الكتاب ج ٢ ص ٦٣ •

(٤٢) الكتاب ج ٢ ص ٦٤ •

(٤٣) سر صناعة الاعراب - حرف اللام •

وأصلها *malkha* • وهى فى العربية أل (al) (٤٤) ، وهو يؤيد

الخليل فى ذهابه الى أنها بسيطة مؤلفة من حرفين كقد وأن •

ويصدق مذهبه الذى صدرنا به هذا الفعل الخاص بالتركيب على جميع المركبات الأخرى ، غير الأدوات والحروف ، سواء أكانت من المركبات المزجية كحضموت وبعلك ومعديكرب ، أم من المركبات العددية ، كخمسة عشر وأخواتها ، أم من المركبات الظرفية ، كصباح مساء ، وبين بين أم غيرها ، كحيص بيص ، وشذّر مذّر ونحوها • فكلها يشترك فى أنها حصلت بتركيبها على أحكام خاصة لم تكن للأجزاء التى ضم بعضها الى بعض ، وان تكن هذه المركبات تختلف فيما بينها فبعضها متمكن ، وهو المركب المزجى ، وبعضها غير متمكن كخمسة عشر وبين بين وغيرهما •

وقد سأل سيويه يونس بن حبيب عن منع المركبات المزجية من الصرف اذا كانت عربية الأصل ، فاجابه يونس بقوله : « ليس شئ يجتمع من شيئين فيجعل اسما سمي به الا لم يصرف » (٤٥) •

ان يونس فى هذا ذاهب الى ماذهب اليه الخليل فى المركبات من أنها تتخذ لنفسها بعد جعلها اسما واحدا حكما جديدا ، ولكنه لم يكن مأخذه كماخذ الخليل • فالخليل ينسب هذا الى استعمال الجزئين متلازمين ، أو منزلين منزلة الكلمة الواحدة ، ويونس يرجعه الى عامل آخر هو شذوذها عن البناء الذى ألفه العرب ، فان بناء المركبات ليس من أصل بناء الأسماء ، ولذلك لم يصرف بعضها ، وبنى بعضه الآخر • ويستدل على شذوذها عن أصل البناء بقلته فى كلامهم • (٤٦)

(٤٤) التطور النحوى للغة العربية لبركستراسر ص ٩٣ •

(٤٥) الكتاب ج ٢ ص ٥٠ •

(٤٦) الكتاب ج ٢ ص ٥٠ •

بعد هذا كله نستطيع أن نؤكد الفرق بين النحت والتركيب وان كانا يلتقيان في استخلاص كلمة واحدة من كلمتين أو أكثر ، وكان لهذه الكلمة المستخلصة حكم جديد ، ذكرنا في صدر هذا الفصل • فالنحت يبنى على أساس اقتطاع بعض أجزاء الكلمتين المنحوت منهما ، كما هو ظاهر في مثل قولهم عشمى من عبدشمس وعبسى من عبدالقيس ، وعبرى من عبدالدار ، والبسمة من بسم الله الرحمن الرحيم ، ولن من لأن ، وليس من لأيس ، وغيرها • والتركيب يبنى على أساس الاتصال والتلازم بين الجزئين ، وعلى أساس تنزيلهما منزلة الكلمة الواحدة ، على أن لاتفقد المركبات بعض أجزاء الأصول التي ركبت منها ، كما هو واضح في حضرموت وبعبلك وصباح مساء ، وبين وبين وغيرها •

ثم ان المركبات عند الخليل تختلف فيما بينها ، فبعضها منزل منزلة الكلمة الواحدة واذا سمي به لم تكن التسمية على نحو الحكاية ، لأن الجزئين فيه معدودان كلمة واحدة ، كالتسمية بحضرموت ومعديكرب •

وبعضها لم ينزل منزلة الكلمة الواحدة واذا سمي به كانت التسمية على نحو الحكاية ، لأن كلا من الجزئين فيه لم يفقد استقلاله ، ولم يتجرد عن شخصيته ، كما اذا سمي بحيشما وانما ومهما وغيرها • (فما) في هذه الأدوات عند الخليل جاءت لمعنى ، وجاءت مغيرة لحكم ما اتصلت به ولازمته ، ولم تكن لغوا ، ومع ذلك لم تكن بمنزلة (موت) من حضرموت ، ولا بمنزلة (بك) في بعبلك ، ولا بمنزلة (كرب) في معديكرب • (٤٧)

الفصل السادس

الاعراب

أو النحو بمعناه الخاص

(١)

لم يترك الخليل لنا كتابا خاصا ألفه بنفسه نقف منه على تفاصيل أقواله وآرائه في المسائل النحوية المختلفة ، أو نعرف طريقته في تبويب هذه المسائل وتناولها بالدرس ، وكل ما للخليل من أقوال جاءت على لسان سيبويه في كتابه •

كان سيبويه ينقل عنه وعن شيوخه الآخرين ، كعيسى بن عمر ويونس ابن حبيب ، وسيبويه ثقة فيما كان يحدث به عن شيوخه ، وقد وثقه وشهد بصحة ما رواه يونس بن حبيب ، فقد قيل له يوما : « ان سيبويه ألف كتابا من ألف ورقة في علم الخليل • فقال يونس : ومتى سمع سيبويه من الخليل كل هذا ؟ جيئوني بكتابه • فلما نظر في كتابه ، ورأى كل ما حكى ، قال : يجب أن يكون هذا الرجل قد صدق عن الخليل فيما حكاه كما صدق فيما حكى عنى » (١) •

وقد تردد اسم يونس في ثمانين ومائة موضع من كتابه ، وربما أورد ليونس فصلا كاملا كما جاء في بحث التصغير ، فقد ختم سيبويه الباب الخاص بتصغير نحو حمراء وصفراء ، مما كان على ثلاثة أحرف ، ثم لحقته همزة

(١) طبقات النحويين للزبيدي « نسخة مصورة بدار الكتب » ص ٣٧ • نزهة الالباء ص ٧٣ ، أخبار النحويين البصريين للسيرافي ص ٤٨ •

التأنيث بعد ألف ، فصار على خمسة أحرف ، بقوله : «وجميع ما ذكرت لك ،
وما أذكر لك في الباب الذي يليه قول يونس» (٢) .

ومع كثرة مارواه عن يونس فإن مارواه عن الخليل أكثر كثيرا ، فقد تردد
اسم الخليل في اثنين وثلاثين وثلاث مائة موضع ، عدا ما كان يرويه عنه بقوله :
سألته أو زعم أو قال أو يقول ، وقد ذكر السيرافي وغيره أنه متى قال وسألته
أو زعم أو قال من غير أن يذكر اسم المسئول أو الزاعم أو القائل فالخليل هو
المقصود . فإذا أضيف عدد المواضع التي لم يذكر فيها اسمه الى عدد المواضع
التي صرح فيها باسمه بلغ عدد مروياته عنه قرابة ثمانين وثلاث مائة ، وكان
هذا العدد الضخم مشجعا للقائل بأن أصول الكتاب ومسائله للخليل .

على أننا نرجح أن يكون للخليل آراء وأقوال كثيرة بل أكثر مما نسبه
سيبويه إليه ، وهي مشبوهة في الكتاب ، بل لانستثنى من الكتاب شيئا الا ما نقله
عن يونس وعيسى بن عمر وعبدالله بن أبي اسحاق وأبي عمرو بن العلاء
وغيرهم ، وما كان له من آراء خاصة عارض بها الخليل أو رجح بها مذهبها
على مذهب .

وأكبر الظن أنه لم يذكر للخليل رأيا الا لبيان ما خالف الخليل فيه
غيره . ولا نستغرب مقالة القائل : «ان سيبويه ألف كتابا من ألف ورقة في
علم الخليل» ، كما لانستغرب أن يقول ثعلب - كما يروى ابن النديم عنه - :
الأصول والمسائل للخليل (٣) .

كان سيبويه ينقل عن الخليل بالواسطة أحيانا ، كما جاء من قوله :
«وحدثني من لا أتهم عن الخليل» (٤) ، وقوله : «ذكر لي بعضهم أن الخليل

(٢) الكتاب ج ٢ ص ١٠٩ .

(٣) فهرست ابن النديم ص ٧٦ .

(٤) الكتاب ج ١ ص ١٤١ .

قال» (٥) ، مما يدل على أن الكتاب لم يتم تأليفه كله في حياة الخليل ، ولو كان قد تمّ في حياته لما اعتمد على الوساطة في الرواية عنه لما نعلم من شدة اتصاله به .

هذا بالإضافة الى أنه كان أحيانا يذكر اسمه مترحما عليه ، كما جاء من قوله : «وهذا قول الخليل رحمه الله» (٦) ، ومن قوله : «وزعم الخليل رحمه الله» (٧) .

يؤيدنا في زعمنا هذا ما صرح به الدكتور ابراهيم بيومي مذكور في رده على تعليقه الدكتور عبدالوهاب عزام (٨) ، من أن كتاب سيبويه قد ألف قبيل وفاته سنة ١٧٧ للهجرة ، أي بعد وفاة الخليل بسنتين ، فان أكثر المؤرخين يرون أن وفاة الخليل كانت سنة ١٧٥ للهجرة . فان لم يكن الأمر كما قال الدكتور من أن سيبويه بدأ بالكتاب ، وانتهى منه بعد وفاة الخليل ، فلا أقل من أنه بدأ به في حياته ، ولم يتمه الا بعد وفاته كما استظهرنا .

أما ما قيل - والقائل هو ثعلب - من أن أربعين اسانا وسيبويه أحدهم ، تعاونوا على صنع الكتاب (٩) ، ففيه مجال للمناقشة . فقد اعترف في مقالته هذه «بأن أصول الكتاب ومسائله للخليل» ، وناقل علم الخليل في النحو الى الدارسين هو تلميذه وصاحبه سيبويه ، كما يستفاد من النقول الكثيرة في هذا الشأن ، وكما تنص عليه الرواية التي رواها الزبيدي في طبقاته ، وقدمر بنا ذكرها الآن .

(٥) الكتاب ج ١ ص ٤١٢ .

(٦) الكتاب ج ١ ص ٤٨ .

(٧) الكتاب ج ١ ص ٧٩ .

(٨) انظر صفحة ٦ من المحاضرة التي ألقاها الدكتور مذكور في مؤتمر المجمع ١٩٤٨ - ١٩٤٩ . وموضوعها : «منطق أرسطو والنحو العربي» .

(٩) فهرست ابن النديم ص ٧٦ .

ونحن الآن في غنى عن أن نعرض للكتاب بمدح أو تقرّظ ، فعند
الاولون امره ، والكتاب وان كان مبوبا ومرتباً الى حد ما - لم يكن ترتيبه
مبنياً على أساس منطقي ، كسائر كتب النحويين المتأخرين ، ولذلك كانت
الاستفادة من كتب المتأخرين أيسر من الاستفادة منه ، ومرجع هذا - فيما
أعتقد - أمور :

(١) أن التأليف كان في بداية نشوئه وفي أولى مراحلها ، ولم تنهياً للمؤلفين
اذ ذاك القدرة على التنظيم ودقة التبويب ، والكتاب هو أقدم ما وصل
اليها في النحو ، وقد ألفت في النصف الثاني من المائة الثانية •

(٢) وأن النحاة الأولين كالخليل ويونس وسيبويه لم يعنوا اذ ذاك بالترتيب
والتبويب ، وكل ما كانوا يعنون به هو تقعيد القواعد ، واستخراج
الأصول ، وتقرير الأحكام المختلفة •

(٣) وأن النحو عند الخليل وطبقته كان عاماً يشمل النحو الاصطلاحي ،
وما سمى بعلم الصرف ، وما سمى بعلم الأصوات • ومسائل هذه
العلوم الثلاثة متداخلة ، وأصولها متشابهة ، ولم يعن سيبويه ولا غيره
بفرزها وارجاع كل مسألة الى الباب الذي هي منه •

وأقوال الخليل في الكتاب مبنوثة في جميع أبوابه ، فلا نكاد نتقل من
باب الى آخر حتى نجد للخليل فيه رأياً ، مما يدل على أنه كان قد عرض
لجميع أبواب النحو المعروفة ، وأن النحو أصوله وقواعده هو الذي قرره
الخليل ، وأن الخليل كان الموجه لسيبويه في جميع الموضوعات واذ خالفه سيبويه فانما
يخالفه في الجزئيات ، ولم يخالفه في الأصول الا قليلاً جداً • فللخليل كلام
في الاشتغال والنداء والاستثناء ، وله كلام في المرفوعات والمنصوبات ، وله
كلام في الأفعال المضارعة نصبها وجزمها ورفعها وتوكيدها ، وله كلام في
الحروف الخمسة وعملها وفي الأفعال الناقصة وعملها ، وفيما يشبه الأفعال

المضارعة من أسماء الفاعلين والمفعولين والصفات المشبهة بأسماء الفاعلين ،
وفيما ينصرف وما لا ينصرف ، وفي أبنية المصادر والجموع والتصغير ، الى غير
ذلك من الأبواب التي احتواها الكتاب •

وهو في أكثر الاحيان مسؤل ، وفي بعضها سائل ، واذا أنعمت النظر
في أقواله لم تجده عارضا عليك موضوعا أو شارحا بابا ، وانما وجدته معللا
ظاهرة من الظواهر النحوية ، كنصب فعل او جر اسم ، أو معللا تعبيريا وافتنا الى
أسلوب ، أو قائما مسألة على مسألة وتعبيرا على تعبير ، وهو في كل ذلك
موجها أكثر منه ممليا وملقنا •

ولا أظن بي حاجة الى التأكيد بأن الخليل لم يعن بالاملاء والتقين
عنايته بفهم المسائل فهما يعتمد على كثير من التدوق والتعلل ، وأنه لم يكن من
أولئك الذين يعنون بملء فراغ الأذهان بأكداس من المسائل التي يتناقلها
الحلف عن السلف ، دون أن يخضعها لمحاكمة • أليس هو القائل : « كن على
مدارسة ما في قلبك أحرص منك على حفظ كتبك » (١٠) •

ولم يعن الخليل بالمسائل الجزئية عنايته بالأصول ، بل لم يعن بها لذاتها
ولكن للوصول الى أحكام عامة ، وكان يستعين بالتجربة والتدوق على الوصول
الى هذه الأحكام •

واذا أردنا أن نصور نهجه في دراسته بين المناهج التي حددت فيما بعد
فأقرب ما يكون الى المنهج الاستقرائي ، وهو ما قصدنا اليه حين زعمنا أنه كان
يعتمد في دراسته على التجربة ، لأن المناهج الدراسية ترجع الى منهجين
اثنين :

(١) المنهج الاستنتاجي •

(٢) والمنهج الاستقرائي •

(١٠) الكامل للمبرد ص ١٧١ « طبع لايبزج » •

فالمنهج الاستنتاجي : هو العملية التي ينزل فيها الفكر من الحقيقة العامة الى الحقائق الخاصة ، أو الى الحقائق الأقل عموماً ، والتي تندرج في الحقيقة الكبرى ، أو هو العملية التي ينزل فيها الفكر من المبدأ العام الى نتائجه .

والمنهج الاستقرائي : هو العملية التي يمضي فيها الفكر من الوقائع الخاصة ليصل الى القانون العام .

فالفكر في الحالة الأولى يتبع طريقاً هابطة ، وفي الثانية يتبع طريقاً صاعدة . ويمكن تصوير هذين الاتجاهين بالسلم المزدوج فحجراً نضعه بالاستقراء ونهبط بالاستنتاج . (١١)

فاذا أردنا تطبيق ذلك على أعمال الخليل ، وطريقته في دراسته فسنجد أنفسنا أمام عمليات استقرائية ، ان لم يكن الاستقراء فيها منهجاً واضح الحدود موثداً الأركان فانها تحمل في مطاوعها ملامح هذا المنهج .

ويخيل الى أن الدراسات اللغوية أكثر ما تعتمد على الاستقراء ، بل لاسيما الى دراستها واستخراج قواعدها الا عن طريق الاستقراء ، فليست الدراسات اللغوية من القضايا المجردة التي يصل العقل الى أحكامها الكلية قبل استقراء الجزئيات .

وقد سبق أن قلنا في التفرقة بين القياس المنطقي والقياس النحوي : ان القياس المنطقي انتقل من الكلي الى الجزئي ، وان القياس النحوي انتقل من الجزئي الى الكلي ، وليس القياس المنطقي الا الاستنتاج ، والقياس النحوي الا الاستقراء . (١٢)

(١١) ص ٢٠ من كتاب *Pedagogie Vecue* لمؤلفه *Charles Charvier*

(باريس) ١٩٢٨

(١٢) راجع الفقرة الخاصة بـ «منطق أرسطو ونحو الخليل من هذه الرسالة» .

كانت التجربة اذن عماد منهجه في دراسته ، أو لازمة من لوازمه الفكرية ، أجراها في دراسته الحروف ، وأجراها في دراسته البناء العام للكلمة العربية ، وأجراها في دراسته الاعراب كما سنقف عليه من أمثلة •

كان الخليل يتذوق الكلمات ومواقعها في العبارات ليدرك ماتدل عليه من معان اعرابية ، هي الصور النفسية التي مثلت في نفس العربي ، فأراد الى التعبير عنها • وكان يتذوق الكلمات ليفقه مافى هذه الكلمات من أسرار ، وكان يقبل الجمل على وجوهها التي يحتمل أن يكون العرب قصدوا اليها ، ليقف على المعاني المختلفة التي تدل عليها هذه الوجوه •

ومن الطبيعي أن تختلف الوجوه اذا اختلف قصد المتكلم • والخليل لم يعن بهذه الوجوه المختلفة من أجل التلاعب باللفظ ، واطهار المقدره على استخراج الصور اللفظية ، وانما عنى بها لأنها قد تصل به الى معان جديدة •

فن ذلك ما ذهب اليه من قولهم : «مرت به المسكين» ، ففى قولهم : «المسكين» وجوه : يرفع وينصب ويجر ، يرفع على اضمار هو ، «كأنه لما قال مرت به قال هو المسكين ، كما يقول مبتدئا المسكين هو» ، وينصب على اضمار فعل فبه معنى الترحم ، ويجر على اعتباره بدلا من الضمير المجرور (١٣) •

وهذه الوجوه المختلفة قد طرأت على هذه الجملة ، لأن المعانى التي قصد اليها المتكلم متعددة ، فاستبعت هذه المعانى الجديدة تغيرا في الاعراب واختلافا في الحركات •

وقد اصطنع التجربة أداة لتقعيد النحو والوصول الى أحكام عامة ، لأن عقلية تعنى بالنظر الكلى العام ، كان لايتهى من قاعدة الا ليواجه قاعدة أخرى ، ولا يفرغ من أصل الا لبيحث في أصل آخر ، أليس هو من الذين

(١٣) الكتاب ج ١ ص ٢٥٤ •

يعنون بأحكام العقل ؟ وأحكام العقل ليست جزئية ، لأن نظرة العقل الى الأشياء تعنى بايجاد الروابط العامة التى تنظم المسائل الجزئية •

وكان الخليل ممن يعتقد بهذه الاحكام ، وباستخراج هذه الخصائص العامة ، وكان يحاول اخضاع الأشتات لها ، لكى تصبح الدراسة اللغوية أشبه ماتكون بالدراسة العلمية ، حتى يتمكن الدارس من الاحاطة بالمسائل ، وتكون هذه الاصول أمامه بمنزلة الأعلام تهديه فى طريقه لدراسة هذه الموضوعات • وقد مر علينا كثير من هذه الأحكام العامة حين عرضنا لدراسة الأصوات ، ودراسة البناء العام للكلمة ، وسنعرض أيضا لبعض هذه الأحكام فى دراسة الاعراب •

ولست أزعم أن تلك الأصول التى أثبتتها ، والأصول التى سأثبتها فى هذا الفصل هى كل ما للخليل من آثار فى هذه الدراسات ، ولكنى أحاول بما أثبتته وأثبتته أن أضع نصب عيني القارىء ما يهديه الى تفهم عقلية الخليل • وتستطيع ارجاع هذه المبادئ التى تجدها فى كتب النحو الى عمل الخليل ، وتستطيع الاطمئنان الى أن الخليل فى النحو كالخليل فى العروض ، وقف على كلام العرب وأساليبهم واستخرج الأصول والقواعد ، وقلما تهيأ للنحاة من بعده أن يزيدوا فيها شيئا يذكر ، «ومن الصعوبة أن تجد واحدا من الباحثين التابعين للمدرسة البصرية من أضاف الى محتويات الكتاب شيئا» (١٤) • ولم أكن لأنسب الى الخليل شيئا ليس له حين قررت هذا الحكم ، بل لم أدع شيئا لم ألمسه فيما قرأت له من أقوال ، فقد جمعت ماتيسر لى جمعه من أقواله ، من كتاب سيبويه وغيره فراغنى أن كثيرا من النحاة كانوا يلقون الأحكام دون أن ينسبوا أو كثيرا منها الى صاحبها ، وقد يكون لهم فى ذلك بعض العذر ، لأن هذه المبادئ التى أصبحت فى النحو أوليات لا تحتمل

(١٤) دائرة المعارف الاسلامية - مادة (سيبويه) •

جدلا ولا تقبل مناقشة قد شاعت بين النحويين شيوعا جعلهم لا يفكرون في
ارجاعها الى مصادرها •

وكم كان عجبى شديدا حين تصفحت «سر صناعة الاعراب» لابن جنى
وقد أعارنيه أستاذى الجليل ابراهيم مصطفى ، وكدت اذ ذاك أفرغ من
جمع ما للخليل من أقوال وآراء فى الأصوات ، وماله من أوضاع ومصطلحات ،
فوجدتني كأنى استعيد قراءة ما جمعت من جذاذات ، اللهم الا ما كان لابن جنى
نفسه ، وما كان للغويين الذين عاشوا فى الفترة التى كانت بينه وبين الخليل •

قرأت ذلك فلم أجده الا ناسبا أقله للخليل ، ومهملا فى أكثره اسم
الخليل ، ولست متعديا حدود الصواب اذا ألحقت بابن جنى كثيرا من المؤلفين •
والحق أن النحاة التابعين للمدرسة البصرية كانوا قد دهشوا بأعمال
الخليل ، وأعجبوا بوفرة ماجاء فى الكتاب ، وهو - فيما أزعم - ثمرة من
ثمرات الخليل العلمية ، حتى أصبح الكتاب عندهم مثلا أعلى يحتذونه ولا
يجرؤون على تخطيه والخروج عليه • وكان من اعجابهم بالكتاب أن كان
أبو عثمان المازنى يقول : «من أراد أن يعمل كبيرا فى النحو بعد كتاب سيبويه
فليستحى» (١٥) •

وكان المبرد يقول لمن يريد أن يقرأ الكتاب عليه : «هل ركب البحر؟!
تعظيما له واستصعابا لما فيه» (١٦) •

وكل ما كان من النحاة أن أقبلوا على الكتاب يشرحونه ، ويكشفون عن
دقائقه ويفسرون شواهد ، واجتمع على شرحه شراح كثيرون من علماء
المدرسة البصرية ، منهم أبو سعيد السيرافى المتوفى سنة ٣٦٨ هـ ، ومنهم المبرد
المتوفى سنة ٢٨٤ هـ ، ومنهم على بن سليمان الأخفش المتوفى سنة ٣١٥ هـ ،

(١٥) أخبار النحويين البصريين لابى سعيد السيرافى ص ٥٠ «طبع بيروت» •

(١٦) أخبار النحويين البصريين ص ٥٠ •

ومنهم غير هؤلاء • (١٧) • وقد ندر أن استقرأ هؤلاء شيئاً لم يستقرئه الخليل وسيبويه ، أو استخرجوا أصلاً استدركوه على الخليل وسيبويه ، وأكثر ما جاءوا به أنهم أوضحوا منهجها وشرحوا ما غمض من آرائها ، ولاحظوا حرصها على تقعيد القواعد ، واستخراج الأصول ، وعنايتها بالقياس والفروض فراقهم ذلك ولم يفهموا أغراضها فاستزادوا من الفلسفة والمنطق اللذين نمت دراستهما في عهدهم ، وبالغوا في الاقتباس منها حتى باعدوا بين النحو طبيعته ، وكاد النحو بعملهم هذا يكون فرعاً من فروع الفلسفة ، فالقاعدة النحوية تكاد تكون من قوة التأثير - عندهم - كأحدى كليات المنطق .

والحق أن مدرسة الخليل التي كانت تضع الذوق العربي في الأسلوب والتأليف في المقام الأول بدئت بالخليل ، ولم يبرز من علماء اللغة من بعده من استطاع أن ينهج منهجه إلا قلة من فقهاء اللغة ، بنوا آثارهم على الأسس التي وضعها الخليل ، ومن أعلام هذه القلة أبو الفتح ابن جنى في كتابيه «الخصائص» ، و «سر صناعة الأعراب» •

فإذا بحثت في مسائل النحو وأصوله في كتب المتأخرين ، وأردت إرجاعها إلى أصولها ، فمن السهل لتحقيق ذلك أن ترجع إلى كتاب سيبويه ، وإلى عمل الخليل فيه ، فانك واجد فيه ضالتيك ، وانك ستطمئن إلى أن هذه الأصول العامة التي يرددها هؤلاء النحاة على أنها أوليات كان الخليل قد قررها ، وتوصل إليها وإلى كثير من أمثالها •

ومن الأمثلة التي تدل على صحة هذا الزعم ما شاع بين النحاة من أنه :

لا جراً في الأفعال

لأن الجراً علامة الإضافة ، والأفعال لا يضاف إليها ، والعرب من أجل

(١٧) دائرة المعارف الإسلامية - مادة «سيبويه» •

ذلك جنبوها - كما يرى الخليل - حتى شبيه الجر ، وهو ما اصطاح عليه النحويون بالكسر ، فلا تجد في العربية فعلا محركا آخره بالكسرة ، سواء أكانت علامة اعراب أم علامة بناء ، لذلك تراهم اذا اضطروهم التآليف الى كسر أو اخرها باتصالها بياء المتكلم جاءوا بنون سماها النحويون نون الوقاية ، لأنها تفصل الفعل من الياء ، وتحمل هي الكسرة عنه ، كما في نحو : علمني وأكرمني •

وكان الخليل يقول وقد سأله سيويه عن عدم الايتان بالنون في قولهم الضاربي - : «هذا اسم ، ويدخله الجر ، وانما قالوا في الفعل ضربي ويضربي كراهية أن يدخله الكسر كما منع الجر» (١٨) •

ولا جزم في الأسماء

لأن الجزم لايتأتى الا مع أدوات خاصة لا تدخل الا على الأفعال ، لدلالاتها على معان خاصة بالأفعال ، (فلم) لنفي وقوع الفعل في الماضي ، و (لما) لنفي وقوعه مستمرا الى الحال ، ولام الأمر لطلب الفعل في الحال ، ولا الناهية لترك الفعل في الحال ، والأسماء ليس لألفاظها دلالة على الزمان • وأما الأدوات الأخرى وهي أدوات الشرط فتأتي لمعان هي للأفعال مما لا يحتاج الى بيان •

وقد أشار الخليل الى ذلك حين عرض للحاق نون الوقاية بقط وعن ولدن بقوله : « وأما قط وعن ولدن فانهن تباعدن من الأسماء ، ولزمهن ما لا يدخل الأسماء المتمكنة وهو السكون • وانما يدخل ذلك على الفعل نحو خذْ و زِنْ » (١٩) •

(١٨) الكتاب ج ١ ص ٣٨٦ •

(١٩) المصدر السابق •

المنادى لاتدخله الألف واللام

لأن المنادى اما أن يكون مقصودا به شيء معين ، واما أن يكون مقصودا به واحد من أمة لابعينه ، فاذا قصد به معين كالمفرد المعرفة والنكرة المقصودة منع من الألف واللام ، «لأنك أشرت إليه ، وقصدت قصده ، واكتفيت بهذا عن ألف واللام ، وصار كالأسماء التي هي للإشارة ، نحو هذا وما أشبه ذلك ، وصار معرفة بغير الألف واللام ، لأنك انما قصدت قصد شيء بعينه وصار هذا بدلا في النداء من الألف واللام ، واستغنى به عنهما كما استغنت بقولك اضرب عن لتضرب ، وكما صار المجرور بدلا من التتوين ، وكما صارت الكاف في رأيتك بدلا من رأيت اياك ، وانما يدخلون الألف واللام ليعرفوك شيئا بعينه ، وقد رأيتيه أو سمعت به ، فاذا قصدوا قصد الشيء بعينه دون غيره ، وعنوه ، ولم يجعلوه واحدا من أمة ، فقد استغنوا عن الألف واللام . فمن ثم لم يدخلوها في هذا ولا في النداء» (٢٠) .

وان قصد به واحد من أمة لابعينه ، كالمضاف الى النكرة غير المقصودة لم تدخله الألف واللام ، لأنه نكرة دائما ، ولم يقصدوا في ندائه الى أن يكون واحدا بعينه .

المنادى المرفوع معرفة

يعنى أن كل اسم في النداء مبنى على الضم معرفة نحو يا محمد ويا رجل . وقد علل الخليل ذلك بقوله : «لأنك انما قصدت قصد شيء بعينه ، وصار هذا بدلا في النداء من الألف واللام ، واستغنى به عنهما» .

أراد أن يقول : انك حين تنادى بيا رجل انما تقصد انسانا معيننا

تدعوه اليك ، فيكون هذا القصد مخصصا للمنادى المدعو ، كما تكون (أل) مخصصة لما تدخل عليه • أما اذا ناديت مضافا الى نكرة أو نكرة غير مقصودة فالمناديان هنا نكرتان ، لأن القصد فيهما لم يكن كالقصد اذا ناديت شخصا بعينه •

أما قولك : يا ضاربا رجلا ، وهو الذى يسميه النحويون «شبيها بالمضاف» ، فهو عند الخليل معرفة كقولك يا ضارب ، ولكن مابال التوين ظاهرا فيه ، ولم يظهر فى المفرد المعرفة ، ولا فى النكرة المقصودة ؟؟ •

يجيب الخليل عن هذا بقوله : «ولكنّ التوين انما يثبت لأنه وسط الاسم ، و (رجلا) من تمام الاسم ، فصار التوين بمنزلة حرف قبل آخر الاسم ، ألا ترى أنك لو سميت رجلا «خيرا منك» لقلت : ياخيرا منك ، فألزمته التوين وهو معرفة ، لأن الرأى ليست آخر الاسم ولا متناه ، فصار بمنزلة (الذى) اذا قلت : هذا الذى فعل ، فكما أن (خيرا منك) لزمه التوين ، وهو معرفة ، كذلك لزم (ضاربا) ، لأن الباء ليست منتهى الاسم • وانما يحذف التوين فى النداء من آخر الاسم • فلما لزم التوين وطال الكلام رجع الى أصله» (٢١) •

وأما قولك : يا عبدالله ، ويا أخا محمد ، فالمنادى فيه معرفة ، ولكن تعريفه لم يكن بالنداء ، وانما هو بالاضافة الى المعرفة • فوجود بعض المناديات المنصوبة معرفة يفسر اكتفائه بقوله : «كل اسم فى النداء مرفوع معرفة» (٢٢) ولم يقل : وكل اسم فى النداء منصوب نكرة ، ولكنه حين أخرج المنادى المضاف الى معرفة ، وما يسمى شبيها بالمضاف نحو ضاربا رجلا ، تأتى له أصل

(٢١) الكتاب ج ١ ص ٣٢٥ •

(٢٢) الكتاب ج ١ ص ٣١٠ •

صحيح ، فقال : « إذا أردت النكرة فوصفت أو لم تصف فهذه منصوبة » (٢٣) .
فالمناديات المعارف عنده هي : المفرد المعرفة ، والنكرة المقصودة والشبيه
بالمضاف ، والمضاف الى معرفة •

ولم يسم الخليل المنادى في قولهم « يا رجل » نكرة مقصودة ، كما سماه
النحاة من بعد ، لأنه عنده معرفة قصد به قصد شيء بعينه ، كما يقصد بالاسم
المعرف بأل ، « لأنهم انما يدخلون الألف واللام ليعرفوك شيئاً بعينه قد رأيته
وسمعت به ، فاذا قصدوا قصد الشيء بعينه دون غيره ، ولم يجعلوه واحداً من
أمة فقد استغنوا عن الألف واللام فمن ثم لم يدخلوها في (هذا) ولا في
النداء » (٢٤) •

الموصوف بالنكرة لا يكون الا نكرة

من أساليب العرب - كما التفت اليه الخليل - اتباع الصفة للموصوف
في التعريف والتنكير ، لأنهم ينزلونهما منزلة الكلمة الواحدة ، كما أن من
أساليبهم اتباعها له في الرفع والنصب والجر ، فيكون لهما جميعاً علامة واحدة ،
فاذا كان الموصوف نكرة كانت الصفة نكرة ، واذا كان الموصوف معرفة كانت
الصفة معرفة أيضاً • وكان الخليل يقول : « الموصوف بالنكرة لا يكون الا
نكرة » (٢٥) •

المضاف الى النكرة لا يكون الا نكرة

لأن الغرض من الاضافة تعريف المضاف بالمضاف اليه اذا كان معرفة ،
نحو : هذه بنت الفرات ، فبنت كانت نكرة ، ثم عرفت باضافتها الى الفرات وهو

(٢٣) المصدر السابق •

(٢٤) المصدر السابق •

(٢٥) الكتاب ج ١ ص ٣٢٥ •

معرفة • أو تخصيصه اذا كان المضاف اليه نكرة ، نحو قولك هذه بنت عربي ،
تريد أنها ليست بنت فارسي ولا بنت تركي •

قال الخليل : «أما قولك يا أخا رجل فلا يكون الأخ ههنا الا نكرة ، لأنه
مضاف الى نكرة كما أن الموصوف بالنكرة لا يكون الا نكرة» (٢٦) •

البدل والمبدل منه لا يجتمعان

أى أنه اذا كان شيء فى كلمة بدلا من شيء فان البدل والمبدل منه
لا يجتمعان فيها ، وقد أشار الخليل الى هذا الأصل فى مواضع كثيرة منها :

(الفعل الذى ترك اظهاره) ، وهو الفعل المحذوف وجوبا بحيث لا يجوز
اظهاره فى الكلام ، ولا يتكلم به الا على نحو التمثيل ، كحذف الفعل فى المصادر
النائية عنه ، كما فى قولهم : جهادا أيها المؤمنون ، وصبرا فى مجال الموت ،
وغير ذلك ، لأنهما أصبحا كأنهما بدل من جاهدوا واصبروا • وكما فى
قولهم : له صوت صوتا حسنا ، فان (صوتا) مصدر منصوب بفعل لا يجوز
اظهاره ، لأنه أصبح نائبا عنه ، فكأنه صار بدلا من (يصوت) •

وكحذف الفعل وجوبا فى باب النداء ، لأن (يا) أصبحت بدلا من اللفظ
بالفعل ، وفى باب التحذير لأن (اياك) وأشباهاها أصبحت بدلا من اللفظ باحذر
وهكذا •

و (حذف التنوين فى حال الاضافة) ، لأن المضاف اليه عند الخليل بدل
من التنوين ، فلا يجتمع التنوين والاضافة فى الكلمة الواحدة •

و (حذف الألف واللام فى النداء) ، لأن (قصد الشيء بعينه) قام مقام
الألف واللام فلا يجتمعان فى النداء •

(٢٦) المصدر السابق •

و (عدم اجتماع لام الأمر وصيغة الأمر) ، لأن (اضرب) وما فيها من دلالة على الطلب بدل من (لتضرب) •

و (عدم اجتماع الكاف واياك في رأيتك) لأن الكاف فيها بدل من اياك •

و (عدم اجتماع «يا» في النداء مع الميم المشددة في (اللهم) ، فلا يقال (يا اللهم) لأن هذه الميم عنده عوض من (يا) •

و (عدم اجتماع الميم والواو في فم) ، فاذا جرى بالواو في بعض استعمالاتها (كأفواه) وفاء يفوه فوها ذهبت الميم ، وان لم يجأ بالواو جئت بالميم عوضا عنها ، ولن تجد هذه الكلمة وقد اجتمع فيها الميم والواو •

⑤

ومما يوصلنا الى تفهم منهج الخليل في دراسته أن نعرض لهذه الطريقة التي كان يصطنعها في دراسته وهي مبنية على الافتراض ، فلم يزل يفترض مسائل لم يرد منها شيء في كلام العرب لتطبيق الأصول التي استخرجها عليها ، وهو نوع من الاستقراء ، ولكنه استقراء لصور يستخرجها العقل في ضوء الأساليب ، وحمل لها في الحكم على ما ورد من كلامهم •

وكان الفقهاء من ذوى الرأى والقياس قد نهجوا هذا المنهج أيضا ، وكان الافتراض لازمة للمنهج العقلى الذى سار عليه أبو حنيفة فى الفقه والخليل فى النحو •

والحق أن كلتا المدرستين اجتهادية تعتمد على الرأى والقياس أكثر مما تعتمد على الرواية والنقل ، بل قد لاتعنى بالرويات وان صح سندها اذا خالفت شيئا من أصولها المقررة •

وقد لانستطيع الجزم بتأثير احدهما بالأخرى فى هذه الطريقة الافتراضية ، كما لم نستطيع الجزم بتأثر احدهما بالأخرى فى تناول القياس ،

وكنا قد استظهرنا أن القياس في النحو والقياس في الفقه سارا في طريقين متوازيين ، نشأ نشأة ساذجة ثم أخذنا يتعدان بعد تنظيم الدراساتين تنظيمًا علميًا •

يؤيد هذا أن مدرسة أبي حنيفة ومدرسة الحليل - وكلاهما معنىً بالعقل وأحكامه - كانتا متعاصرتين ، وليس بينهما من التفاوت في الزمن ما يحملنا على القول بتأثر احدهما بالأخرى •

ولعل موقف الفقهاء من الرأي والقياس لا يخلو من حرج بالقياس الى موقف النحاة من ذلك ، فاذا كان الفقهاء يتخرجون في الاندفاع نحو أحكام العقل اذا عارضها يقين من الكتاب والسنة فان النحويين أكثر حرية وأقوى اندفاعا نحوها ، ولذلك كان النحاة أكثر جرأة من الفقهاء في اهدار كثير من المسائل التي عارضت أصولهم ، وفي عدّها ساذجة لا يقاس عليها • وموقفهم من بعض القراء السبعة ، وتعليطهم قراءاته شاهد على ما نقول •

ولم تكف المدرسة القياسية النحوية بتطبيق منهجها على ما ورد من كلام العرب ، وكأنها أرادت أن تستغل ما توفر لديها من أسباب الاجتهاد والقياس أوسع استغلال ، فأباحت لنفسها اثاره الفروض ، وراحت تفترض حتى البعيد الوقوع الذي لم يطرأ استعماله على بال العرب •

كان الحليل يبدأ اصحابه بالافتراض أحيانا ، فيسألهم عن مسائل لم يرد شيء منها في كلام العرب ، طالبا اليهم أن يطبقوا ماورد له حكم على ما لم يرد له حكم •

وكان مما افترضه أن سألهم يوما « كيف تقولون اذا أردتم أن تلفظوا بالكاف في لك ، والكاف في مالك ، والباء في ضرب؟ فقيل له : نقول : باء كاف ••• فقال لهم : انما جئتم بالاسم ، ولم تلفظوا بالحرف • وقال : أقول : كهً وبه • فقالوا لم ألحقت الهاء؟ فقال : رأيتهم قالوا : عه فألحقوا هاء

حتى صيروها يستطيع الكلام بها ، لأنه لا يلفظ بحرف ، فان وصلت قلت :
ك و ب فاعلم يا فتى ، كما قالوا : عِ يا فتى • فهذه طريقة كل حرف كان
متحركا» (٢٧) •

وكان سيويه يسأله أحيانا عن مسائل يفترضها ويطلب اليه ارجاعها الى
الأصول المقررة ، فقد سأله عن تحقير (نَصَف) - نعت امرأة - فقال الخليل :
تحقيرها نَصَيْفٌ ، وذلك لأنه مذكر وصف به مؤنث (٢٨) • وسأله عن
رجل سمى (أَن) ، فقال : هذا أن لا أكسره • وقد مر بنا ما كان يسأله عنه
من بناء (فَعَل) من وأيت ، فيمن خفف الهمزة ، وفيمن حققها •

ولم يكتف الخليل بافتراض مسائل جديدة ، ولكنه كان يتبع وجوه
المسألة الواحدة محاولا استخراج جميع الصور المحتملة في المسألة الواحدة ،
وهو نوع من التقصي الذي يلازم العقليين ، فلم يزل يقلب المسائل ظهرا لبطن ،
ويتقصى وجوهها المقصودة وغير المقصودة ، حتى يطمئن الى أنه لم يبق وجه
من وجوهها المحتملة الا وله رأى فيه •

وقد سأله سيويه عن رجل يسمى دهقان ، فقال : «ان سميته من التدهقن
فهو مصروف ، وكذلك شيطان ان أخذته من التشيطان ، والنون عندنا في مثل
هذا من نفس الحرف اذا كان له فعل ثبت فيه النون ، وان جعلت دهقان من
الدهق ، وشيطان من شيط لم تصرفه» (٢٩) •

وقد ذهب الخليل الى «أنه لا يحسن في الكلام (ان تأتي لأفعلن) من
قبل أن (لأفعلن) تجيء مبتدأة ، ألا ترى أن الرجل يقول : لأفعلن كذا وكذا ،
فلو قلت : ان أتيتني لأكرمك ، وان لم تأتي لاغنمك ، جاز ، لأنه في معنى

(٢٧) الكتاب ج ٢ ص ٦١ •

(٢٨) الكتاب ج ٢ ص ١٣٧ •

(٢٩) الكتاب ج ٢ ص ١١ •

لئن أتيتني لأكرمك ، ولئن لم تأتني لا غمّتك • ولا بد من هذه اللام مضمرة أو مظهرة ، لأنها لليمين ، كأنك قلت : والله لئن أتيتني لأكرمك ، فان قلت لئن تفعل لأفعلن قبح ، لأن (لأفعلن) على أول الكلام وقبح في الكلام أن تعمل (ان) أو شيء من حروف الجزاء في الأفعال حتى تجزمه في اللفظ ، ثم لا يكون لها جواب ينجزم بما قبله ، ألا ترى أنك تقول : آتيك ان أتيتني ، ولا تقول آتيك ان تأتني ، الا في شعر ، لأنك أخّرت ان وما عملت فيه ، ولم تجعل لان جوابا ينجزم بما قبله • فهكذا جرى هذا في كلامهم (٣٠) •

ولا أريد أن أترك هذا الكلام قبل أن أؤكد مرة أخرى على تذوق التحليل للغة ، وفقهه للأساليب العربية ، وليس أدل على ذلك من تفريقه بين قولهم : (آتيك ان أتيتني) ، وقولهم (آتيك ان تأتني) ، فقد حسن الأول وقبح الثاني ، وقد علله بأن «ان وأخواتها» اذا جزمت في اللفظ قبح أن تترك بدون جواب منجزم بما قبله ، كما في قولك : آتيك ان تأتني ، ولم يرد مثله الا في الشعر • وان لم تجزم في اللفظ كما في قولك : آتيك ان أتيتني حسن الاستغناء عن جواب بعدها منجزم بما قبله •

هذا ما علّل به الحسن والقبح في التعبيرين ، ولكن يخيل اليّ أن يكون التحليل قد التفّت الى أدق من ذلك ، التفّت الى الفرق المعنويّ بين التعبيرين • وخلاصة هذا الفرق فيما أرى :

أن آتيك واجبة ، أي أنها واقعة أو منزلة منزلة الواقعة ، فان قال آتيك ان أتيتني حسن الكلام ، لأن (ان أتيتني) تدل على الوجوب أيضا ، بالرغم من

(٣٠) الكتاب ج ١ ص ٤٣٦ •

وجود أداة الشرط التي تحمل على الشك في وقوع الشرط ، وذلك لما في

صيغة الماضي من اشعار بالتحقق ، فهو هنا قد علق واجبا على واجب •

وان قال آتيك ان تأتني لم يحسن الكلام ، لأن (ان تأتني) لا يدل على

ذلك التحقق المستفاد من لفظ الماضي ، وانما اتيان المخاطب هنا مشكوك فيه ،

فاذا قال آتيك ان تأتني فقد علق واجبا على مشكوك فيه ، منصوص على الشك

في تحققه ووقوعه •

ومهما يكن من شيء فهو - كما رأيت - لم يكتف ببيان وجه واحد بل

راح يعرض للأمثلة التي يحتمل أن تعترض المتكلم في استعماله ، فيذكر

حسنها أو قبحها ، ويعلل جوازها أو عدم جوازها ، ولا تعرض لهذا وأمثاله الا

عقلية وفتت على دقائق الأساليب كعقلية الحليل •

(٢)

فكرة العامل في النحو

رأى الخليل وهو يتذوق الحروف ، ويحدد مخارجها ، ويرقب تألف بعضها مع بعض أن لبعض هذه الحروف انسجاما واثلافا مع بعض ، وتنافرا مع بعض ، وأن الموسيقى اللفظية لا تأتي الا اذا كانت الحروف متألفة على نظام خاص . وقد اجمل حدود هذا النظام بآلا تكون من مخرج واحد ، أو من مخارج متقاربة ، فثقل على اللسان أن ينطق بكلمات مؤلفة من أصوات متماثلة المخارج ، أو متقاربة المخارج ، واذا استساغ العربي أن يأتي بحرفين متعاقبين من مخرج واحد فان ذلك يكون في الأحياز القادرة على تأدية أعمالها في سهولة ويسر ، لمرونة عضلها ، ولا يكون ذلك في عضل الحلق ، لعدم مرونتها ، فحروف الحلق اذن أقل الحروف تمازجا وانسجاما ، ولذلك جاء عنه : «سمعنا كلمة شنعاء فأنكرنا تأليفها» ، يعنى «الهعخع ، وجاء عنه : «أن القاف والكاف تأليفهما معقوم» ، وغير ذلك مما يوضح لنا حسه اللغوى .

فلا بد لكى يستقيم الجرس الموسيقى أن تتألف الكلمات من أصوات متباعدة ، وقد أخذ فقهاء اللغة هذه الفكرة عن الخليل ، ولكن بعضهم غلا فعدّ تباعد المخارج شرطا فى فصاحة الكلمة .

ويرى المحدثون أن اللغة العربية فى تركيب أحرف كلماتها ، وتألف أصواتها تصطنع لنفسها أسلوبا خاصا ، وتتخذ نهجا تميز به ، وخالصة هذا الاسلوب تنبى على :

(١) ندرة تلاقى أصوات الحلق .

(٢) وندرة تلاقي الأحرف المتقاربة المخارج والصفات . (١)

وكلاهما مما التقت الخليل اليه •

ورأى الخليل ، وهو يرصد تمازج الحروف ، أن بعضها تأثيرا في بعض ، بل تأثيرا في بناء الكلمة ، كما سبق أن أشرنا اليه ، من أنه ليس من كلامهم بناء ذو أربعة أحرف أو خمسة أحرف خال من أحد حروف الذلاقة الستة ، وهي الراء واللام والنون والفاء والباء والميم ، فهذه الحروف الستة تأثير في تخفيف هذه الابنية الثقيلة بكثرة حروفها •

ولاحظ أن بعض الحروف أقوى من بعض (٢) ، وأن للقوى تأثيرا في في الضعيف ، ولذلك كانوا يقدمون القوى إذا اجتمع بضعيف في كلمة واحدة ، كما في مثل : أهل وعهد ووتد وورل •

وقد يؤثر القوى في الضعيف ، فيزحزحه الى مثل مخرجه ، ليكون عمل اللسان في الحرفين واحدا ، ولتحقق الانسجام الموسيقى للكلمة ، كقلب السين صادًا اذا وقعت بعدها قاف ، نحو صبقت والصويق ، وقد ينقله الى مخرجه حتى يكون الحرفان متماثلين ليكون عمل اللسان فيهما واحدا أيضا ، كما اذا اجتمع واو وياء ، وكانت الأولى منهما ساكنة ، فان الواو تنقلب ياءا تقدمت على الياء نحو (الطي) أو تأخرت عنها نحو (الحى) •

وكما اذا التقت لام (أل) بأحد الحروف الشمسية ، فان اللام تنقلب الى جنس ما يليها من هذه الحروف ، فتقلب تاءا اذا كان بعدها تاء ، وتقلب

(١) موسيقى الشعر للدكتور ابراهيم أنيس ص ٢٤ •

(٢) كنا قد عرضنا لفكرة القوة والضعف بين الحروف ، الفكرة انتى صرح بها ابن جنى ، وقد ناقشناها ، وقلنا لانستطيع متابعة القدماء في وصف بعض الحروف بالقوة ، وبعضها الاخر بالضعف ، وحملنا ذلك على ما لاحظته الخليل من ميل العرب الى الاقتصاد في الجهد العضلي ، وتحقيق الانسجام الموسيقى •

صادا اذا كان بعدها صاد ، وتقلب طاء اذا كان بعدها طاء ، وهكذا ، ليكون عمل اللسان في الحرفين واحدا وليتحقق الانسجام الموسيقي .

ورفع الخليل بهذا ونحوه الستار عن كثير من الظواهر اللغوية المبنية على هذه الأحكام الصوتية ، فادر كنا وجود هذه الظاهرة التي سماها الادغام ، وأدر كنا ليم وجد الابدال ، ولم وجد الاعلال ، ولم وجدت ظواهر أخرى خاضعة لمثل هذه الاعتبارات الصوتية ، كالاتباع والقلب وغيرهما .

وأبعد الخليل في هذه الملاحظة ، فوجد أن لبعض الحركات تأثيرا في بعض . ألم تكن الحركات أبعاض حروف ، فالضمة واو قصيرة ، والفتحة الف قصيرة ، والكسرة ياء قصيرة ، فلبعضها تأثير في بعض ، كما لبعض أصولها تأثير في بعض ، ومن هنا نفهم حركة الاتباع في الاعراب ، كما في قراءة « الحمد لله » وكما في قولهم : : « هذا جحرٌ ضبٌ حرب » .

وليس للحركات حرية التآلف كيفما اتفق وضعها وتأليفها ، فانها مفيدة بالموسيقى الكلامية المستخلصة من طبيعة العرب العامة في كلامهم ، فلم يألف العرب اجتماع أربع حركات متواليات في كلمة واحدة ، الا اذا كان في الكلمة حذف كما في نحو عُلِبَط ، ولذلك سكن آخر الفعل الماضي الثلاثي اذا اتصل به الضمير المرفوع المتحرك ، نحو خَرَجَتْ وَ ذَهَبَتْ .

وقد تلى الكسرة ضمة ، ويكون ذلك مقبولا مستساغا ، نحو ضَرِبَ وَأُخِذَ ولكن الكسرة لاتليها ضمة ، لأنه ليس مقبولا ولا مألوفا ، فلم يكن في كلامهم نحو ضَرِبَ .

على أن للحركات أثرا لاينكر في صميم المعاني التي تتضمنها الكلمات ، فمادة (ك ت ب) مثلا لامعنى لها ، بل لايمكن النطق بها دون أن تتدخل في ذلك حروف المدّ أو أبعاضها ، فاذا حركت هذه الأصوات بالحركات ، أو فصلت بحروف المدّ أمكن النطق بها ، وظهرت دلالتها على معنى ، واذا خولف

بين الحركات تغير المعنى تبعاً لتغير الحركات ، فكتبَ مثلاً بثلاث فتحات ،
غير كُتِبَ بضمة فكسرة ففتحة ، وغير كُتِبَ بفتحة فسكون فحركة أخرى •

وبعد أن لاحظ وجود هذا التفاعل بين الحروف والحركات أخذ يبحث
عنه في الكلمات حين يتألف بعضها مع بعض ، ولم يكن ليدرس الحروف الا
على أنها مقدمة طبيعية لدراسة الكلمات ، أو لدراسة تأليف الكلام منها •

فراى وهو يرصد تأليف الكلمات أن لبعضها تأثيراً في بعض أيضاً بحسب
ما لها من معنى ، (فالى) مثلاً لها تأثير فيما بعدها اذا ألفت كما تؤلف في نحو
«سرت الى المدينة» • و (لم) لها تأثير فيما تدخل عليه ، نحو (لم يسافر) ولم
يكتب) ، وكسر لها تأثير في القلم في نحو كسر محمد القلم •

ولاحظ وهو يقرب هذه التعبيرات أن حركة (القلم) تتغير اذا تغيرت
حركات الفعل ، فاذا قيل (كُسِرَ القلم) تغيرت حركة الميم من فتح الى ضم ،
ثم لاحظ أن هذا التغير انما يصيب أواخر الكلمات ، فقرر أن الاعراب انما
يظهر في أواخرها •

وفطن أن كثيراً من الأبنية اذا ألفت ، وتعرضت لمثل ما تعرض له غيرها
لم تتغير ، بل بقيت على حالها قبل التأليف •

وتتبع الكلمات راصدا استعمالاتها المختلفة ، ومراقبا ما يطرأ عليها من
تغير ، فأدرك أن بعض الكلمات يلزم حالة واحدة ، وبعضها يتغير بتغير
التراكيب • وكان الأول هو المبني ، والثانى هو المعرب ، لاعرابه عن المعانى
المختلفة التى يتعرض لها في التأليف •

وانفتح المجال أمامه لدراسة جديدة ، ليس موضوعها الصوت ومدرجته ،
ولا الكلمة وبنائها ، وميزانها ، وما يعرض لها من تغير في أصول بنائها ،
وانما موضوعها تغير أواخرها بحسب مواقعها من الكلام ••• هذه الدراسة
الجديدة هي الاعراب أو النحو بمعناه الخاص •

وعماد هذه الدراسة هو البحث عن هذه الوجوه المختلفة والمؤثرات التي دعت الى هذا التغيير الذي طرأ على أواخر جانب كبير من الكلمات ، أو نقول ان عماد هذه الدراسة - في تقدير الدارسين اليوم على الأقل - هو البحث عن العوامل في النحو • ومن أجل أن عماد هذه الدراسة هو البحث عن المؤثرات كان الاندفاع نحو فكرة العامل ، ووضع العامل في مقدمة الاعتبارات ، أو في مقدمة الأسس التي انبت عليها هذه الدراسة •

وأكبر الظن أن الذي استظهرناه من الخطوات التي سار عليها الخليل هو الثغرة التي نفذ منها الخليل الى قضية العامل في النحو ، ففكرة العامل جاءت - في أغلب الظن - من ملاحظته ذلك التفاعل بين الحروف والحركات والكلمات ، مما جعله يطمئن الى أن هذه الظواهر اللغوية سواء أكان منها ما يتصل بالبناء أم ما يتصل بحركات أواخر الكلمات ، ترجع الى هذا التأثير الكامن في طبيعة الحروف والكلمات •

وعلى هذا فلا ينبغي للدارس أن يتساءل عن هذا الاندفاع نحو فكرة العامل ، أو يستفسر عن الدافع الذي دفع الخليل الى البحث فيه وآثاره • كذلك لا ينبغي أن تتوجه باللوم الى الخليل ، لأنه لم يجعل المتكلم هو المرجع الأول في هذه التفاعلات الصوتية والعمليات الكلامية ، كما كان ذلك عند ابن جنبي في الخصائص ، والرضي في شرح الكافية ، وابن مضاء القرطبي في الرد على النجاة ، وأستاذنا في احياء النحو ، أو لأنه وقف عند هذا الحد ، ودفع الدارسين الى هذه المشكلة - مشكلة العامل - التي أحالت النحو الى علم نظري ، بينما هو بطبيعته ، أو بما ينبغي أن يكون عليه - بعيد عن ان يكون كذلك •

لا ينبغي أن يلام الخليل على ذلك فليس من ذنبه هو أن يستغل النجاة المتأخرون الفلسفة الى أبعد حدود الاستقلال ، ويفتحوا السبيل لها لغزو

المباحث النحوية ، وليس من ذنبه هو ألا يفهموا قصده ، أو يعجزوا عن أن
ينهجوا في دراسة اللغة والنحو نهجه •

لم يتهياً للنحو أمثال الخليل ، فقد أصبح أكثر دارسيه من الأعاجم الذين
شعروا بالحاجة الى دراسته لتصحيح كلامهم ، وصون ألسنتهم من اللحن ،
وأخذوا يدرسونه على أنه مجموعة من الأصول والقواعد ، أضفوا عليها
العموم الكامل ، وقاسوها بمقاييس عقلية بحتة ، ولو أنصفوا لرأوا أن النحو
علم التأليف ، والتأليف لا يقاس بمقاييس فلسفية بحتة ، لأنه يرجع الى
اعتبارات بيئية طبيعية ، والى عادات اجتماعية وظواهر نفسية ، والى اعتبارات
أخرى تتعلق بطبيعة الجماعة التي ينسب اليها هذا التأليف •

وهذا هو الذي يهيب بالدارسين أن يدعوا الى دراسة النحو من أوله ،
وأن يتبع الدارسون تلك الخطوات التي خطاها النحاة الأولون ، فلم يعد النحو
الآن وبعد أن غزت الفلسفة فصوله وأبوابه أداة لفهم النصوص الواردة في
الكتاب ، وفي الشعر العربي ، ووسيلة له ، كما ينبغي أن يكون ، بل أصبح
مجموعة من المسائل المفلسفة التي افترضها الفلاسفة النحاة ، وأصبح أداة
لفهم أمثلة وفروض وضعها هؤلاء الدارسون الفلاسفة ، وفرق بعيد بين الغاية
التي هدف اليها النحاة الأولون ، والنتيجة التي انتهى اليها النحاة المتأخرون ،
أو بين النحو الذي رسمت حدوده في القرن الثاني ، والنحو الذي سار
عليه النحاة في القرون المتأخرة •

صحيح أن الخليل كان يهدف الى تنظيم هذه الدراسة ، والى ادخالها في
جملة الدراسات العلمية ذوات القواعد والأصول العامة ، فان لم تكنها تماما
فأشبه ما تكون بها ، كما تدل عليه أقواله التي كان يرسلها على أنها أحكام
عامة وقوانين عامة ، كقوله : « ليس في الدنيا حرف تلحقه الاضافة الا كان

متحر كما مكسورا» ، وكقوله : الموصوف بالنكرة نكرة والمضاف الى النكرة نكرة ، ونحو ذلك •

وصحيح أنه كان يعنى بتلك الأصول ، وينسب المسائل التي لا تنطبق عليها هذه الأصول الى الشذوذ ، الا أنه لم يتكرر للطبيعة اللغوية ، ولم يتعافل عنها ، فلو تتبعت كلامه لوجدته واضحا ذلك نصب عينيه ، لم يقرر شيئا الا في ضوئه ، ولم يستخرج أصلا الا وهو يتصل بسبب منه • وفي اللغة من الظواهر العامة ما يصلح لأن تكون أصولا عامة أو شبه عامة ، وهذه الظواهر اللغوية العامة هي التي كان الخليل ينشد الوصول اليها ، ويعنى بتفسيرها •

ويظهر ذلك من قياسات الخليل وتعليقاته • فمن رأى الخليل أنه ليس من كلامهم أن تلتقى همزتان فتحققا ، لأنهم يستقلون اجتماع الهمزتين ، ومذهبه في ذلك أنه اذا التقت همزتان ، كل واحدة منهما في كلمة ، حققت الأولى وخضفت الآخرة ، نحو قوله تعالى : فقد جاء اشراطها • وقد سأله سيويه عن ترجيحه تخفيف الثانية ، مع أن أبا عمرو بن العلاء أحد القراء السبعة كان يقرأها بتخفيف الأولى ، وتحقيق الآخرة ، فقال : «اني رأيتهم حين أرادوا احدى الهمزتين اللتين تلتقيان في كلمة واحدة أبدلوا الآخرة ، وذلك جاء وآدم» (٣) •

فهو هنا قاس اجتماع الهمزتين ، كل واحدة منهما في كلمة ، على اجتماعهما في كلمة واحدة • وقياسه هذا صحيح يستند الى سليقة أغلب العرب في كلامهم ، في معاملتهم الهمزة الثانية اذا اجتمعت همزتان في كلمة واحدة ، لأن الملاك فيه هو اجتماع الهمزتين ، واستثقال العرب اياهما ، فالثقل الحاصل من الهمزتين هو هو سواء أكانتا في كلمتين أم في كلمة واحدة •

(٣) الكتاب ج ٢ ص ١٦٧ •

وليس أدل على ما نريد تقريره من أن الخليل فى قياسه وتعليقاته صادر
 عن ادراكه الطبيعة اللغوية ، وأنه لم يكن ليتحكم فى هذه الطبيعة ، أو يحاول
 إخضاعها لأصوله ••••• مما جاء فى الاقتراح ، مما رواه السيوطى عن بعض
 شيوخه من «أن الخليل بن أحمد سئل عن العلة التى يعقل بها فى النحو ،
 فقيل له : عن العرب أخذتها أم اخترعتها من نفسك ؟ فقال : ان العرب نطقت
 على سجيتها وطباعها ، وعرفت مواقع كلامهم ، وقامت فى عقولها علة ، وان
 لم ينقل ذلك عنها ، وعلمت أنا بما عندى أنه علة لما علته منه ، فان أكن أصبت
 العلة فهو الذى التمس ، وان يكن هناك علة غير ما ذكرت فالذى ذكرته
 محتمل أن يكون علة • ومثلى فى ذلك مثل حكيم دخل دارا محكمة
 البناء ، عجيبة النظم والأقسام ، وقد صحت عنده حكمة بانها بالخبر الصادق ،
 والبراهين الواضحة ، والحجج اللائحة ، فكلما وقف هذا الرجل الداخلى على
 شىء منها ، قال : انما فعل هذا هكذا ، لعله وسبب كذا ، لعله سنحت له ،
 وخطرت ، محتملة أن تكون علة ذلك ، فجائز أن يكون الحكيم البانى للدار
 فعل ذلك للعلة التى ذكرها هذا الذى دخل الدار ، وجائز أن يكون فعله لغير
 تلك العلة ، الا أن ما ذكره هذا الرجل محتمل أن يكون علة كذلك ، فان
 سنحت لغيرى علة لما علمته من النحو هى أليق مما ذكرته بالمعلول فليات
 بها» (٤) •

ولست أقصد الى أن أجنب الخليل التأثير بالفلسفة الكلامية والمنهج
 الكلامى ، لأن الخليل كان من أصحاب الكلام ، وله أقوال جاءت على لسان
 تلميذه فيها ظلال للفلسفة ، ولكنى بصدد الزعم بأن الخليل التفت الى فكرة
 العامل فى أثناء تذوقه الحروف ، ورصد الكلمات فى ثنايا الجمل ، أما تسمية
 المؤثر عاملا والمؤثر فيه معمولا ، وأمثال هذه من الأوضاع والمصطلحات فليس

(٤) الاقتراح للسيوطى ص ٥٧ ، ٥٨ «طبع الهند» •

بعيدا أن يكون من آثار الفلسفة الكلامية ، أو من الأوضاع التي عرفت عند المتكلمين •

ولم يتمم العامل النحوي صفات العلة الا بعد أن طغى المنهج الفلسفي على الدراسات ، وراق الدارسين ، وذلك في أكبر الظن بعد شيوع الترجمة وأقبال الدارسين على الفلسفة وفروعها المختلفة •

راقهم المنهج الفلسفي أو اضطروا اليه ، لأنه كان المنهج المؤلف والطريقة المتبعة لدى المفكرين والدارسين ، فتأثروا به تأثرا كبيرا يدل عليه كلامهم في عوامل النحو ، فلم ينظروا الى العامل وعمله كما كان الخليل ينظر اليه ، فنظرة الخليل اليه كانت في ضوء تذوقه الحروف ومراقبته الكلمات في ثنايا التأليف ، وملاحظته التفاعلات اللغوية بين الأصوات والكلمات • أما الآخرون فكانت نظرته اليه في ضوء التفكير الفلسفي المجرد ، فأصبح عندهم من المعمول بمنزلة العلة من المعلول • أخذوه من كلام المتكلمين في العلة والمعلول والسبب والمسبب ، وأصبح العامل في النحو كالعلة في الكلام ، وخصائصه هنا هي خصائصها هناك ، فإذا لم يجز عقلا أن تجتمع علتان على معمول واحد ، وإذا تنازعا فهو لاحدهما ، لم يجز عقلا أيضا أن يجتمع عاملان على معمول واحد ، وإذا اجتمعا وتنازعا معمولا واحدا فهو لأحدهما فقط ، كما قال ابن مالك :

ان عاملان اقتضيا في اسم عمل قبل فلولو احد منهما العمل

ومن هنا نشأ في النحو باب يسمونه باب التنازع ، وهو مبنى على اجتماع عاملين يتنازعا معمولا واحدا ، كقولهم : «أكرمني وأكرمت زيدا» ، فهنا عاملان ، وهما «أكرمني وأكرمت» ، وقد تنازعا معمولا واحدا هو (زيد) ، أحدهما يقتضي رفعه ، وهو الأول ، والثاني يقتضي نصبه ، وهو الثاني ،

ولا يجوز أن يكون معمولاً لهما جميعاً ، فيكون مرفوعاً ومنصوباً في آن واحد ،
لأن الضدين لا يجتمعان ، فلا بد أن يختص به أحد العامين •

وقد اتفق النحاة على أن هذا المعمول المتنازع انما هو لأحدهما ، ولا
يجوز أن يكون لهما جميعاً ، لما في ذلك من استحالة • واختلفوا في الحاقه بأحد
العاملين ، فالكوفيون يرجحون أعمال الأول مع تجويزهم أعمال الثاني ،
والبصريون يرجحون أعمال الثاني مع تجويزهم أعمال الأول ، ولكل من
الفرقيين وجهة نظر • فالكوفيون يلحقونه بالأول ، لسبقه ، والبصريون
يلحقونه بالثاني ، لقربه •

الا الفراء ، فانه أجاز أن يكون العاملان يشتركان في المعمول اذا اتفقا
في نوع الاقتضاء ، كأن يقتضى كلاهما الرفع مثلا ، وجوز أن يكون الاسم
الواحد فاعلاً للفعليين ، ولكن جمهور النحاة من البصريين والكوفيين لم
يرتضوا رأى الفراء ، «لأن اجتماع المؤثرين التامين على أثر واحد مدلول على
فساده في الأصول» (٥) ، لأنهم كانوا يجرون العوامل النحوية مجرى العلل
الحقيقية ، ونسوا ما بين الطبيعة الفلسفية والطبيعة النحوية من فروق
واختلافات •

أما الخليل فلا أعلم له رأياً في هذا ، اللهم الا ما ذكره سيبويه في الباب
الذي عقده لهذه المسألة ، وهو «باب الفاعليين والمفعولين اللذين كل واحد
منهما يفعل بفاعله مثل الذي يفعل به ، وما كان نحو ذلك ، وهو قولك :
ضربت وضربني زيد ، وضربني وضربت زيدا» (٦) ، لم ينقل فيه عن الخليل
شيئاً • وقد عرض سيبويه للمسألة كما عرض لها غيره ، الا أنه عرض لها في
ضوء الأمثلة المختلفة في استعمالاتهم ، كما فعل في قياسه هذا المثال على

(٥) شرح الرضى على الكافية ج ١ ص ٧٩ •

(٦) الكتاب ج ١ ص ٣٧ •

قولهم : «خسنت بصدرة و صدر زيد» ، من حمل (صدر زيد) على الباء لقربها منه ، وترك اعتبار النصب الذى يقتضيه الفعل لعلم المخاطب ، وحمل حذف المعمول من الفعل الأول على حذفه فى أمثلة كثيرة ، جاءت فى الكتاب وفى الشعر العربى كثيرا ، كقوله تعالى «والذاكرين الله كثيرا ، والذاكرات ، والحافظين فروجهم والحافظات» ، وكقول العربى :

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والرأى مختلف

وكقول الآخر :

فمن يك أمسى بالمدينة رحله فانى وقيارا بها لغريب

وأنت تلحظ ما فى كلام سيويه ، وقياسه قولهم «ضربنى وضربت زيدا» على أمثلة كثيرة مشابهة وردت فى الكتاب والشعر العربى الصحيح ، من حرص على تأييد قياسه باستعمالات عربية صحيحة ، ومن محافظة على روح الأسلوب العربى فى هذه المسألة التى خلصت عند المتأخرين عنه للتفكير الفلسفى المحض .



والحق أن الدراسة التحوية فى عهدنا الأول ، أو فى عهد الخليل ، وإن نالها شئ من التأثير بالفلسفة الكلامية ، كانت صبغتها الغالبة عليها لغوية ، ولم تتجرد للفلسفة لتطغى عليها إلا بعد حين .

ويرجع هذا الى أن الدراسة الطاغية فى ذلك العهد هى دراسة القرآن واللغة والادب . أما الفلسفات فلم يكن منها إلا بوادر ومقدمات ، لم تستطع التغلب على روح الدراسة ، وعلى ما فى الحركة الأدبية من قوّة .

الخاتمة

ظهر مما تقدم أن النحو كان في بادئ الأمر وليد التفكير في القرآن ، والعمل على صيانته من الأخطار ، التي كانت تهدده بسبب اختلاط العرب بالأجانب في أمصار العراق • ثم استغله الأجانب ، فأقبلوا عليه ، واستفادوا منه ، لأنه كان يحقق لهم حاجتهم لحياة مستقرة في ظل دولة عربية مسلمة • ورأينا كيف تشعبت الدراسة القرآنية ، وكيف انتهى العلماء الى أن يتناولوا الجانب اللغوي من القرآن ، وكيف تطورت دراسة الجانب اللغوي من النقط الذي اصطنعه أبو الأسود الى بحث في التأليف بحثا يتناول الكلمة ، من حيث أصولها ، ومن حيث بناؤها ، ومن حيث اعرابها •

وكان الباحثون في النحو من النحاة القدماء هم المعنيين بالقرآن ، وكان هؤلاء يدرسونه على أنه أداة لتصحيح لغة القرآن ، حتى جاء الخليل ، فانفصلت الدراسة النحوية عن الدراسة القرآنية ، وأخذ يعنى بالنحو لذاته ، وكان في الوقت نفسه يحقق ما كان يرمى اليه المعنيون بدراسة القرآن ، أو بتعبير آخر ، أصبح تصحيح القراءات غرضا من أغراضه •

وقام هو أيضا بأعمال قرآنية كانت متممة لما قام به العلماء الذين عسوا بدراسة القرآن ، ولكنه لم ير رأيهم في ربط دراسة اللغة والنحو بدراسة القرآن ، ولذلك كان له من الحرية ما لم يكن لمن سبقه •

وإذا كان الدارسون في عهده أحرارا ومحافظةين ، فقد كان هو زعيم الأحرار من اللغويين ، وكان اخضاعه هذه الدراسة للرأى والاجتهاد ، ولقوانين لغوية عامة ، ومعالجتها كما يعالج العالم الطبيعي موضوعه ، تحديا

للمحدثين والقراء ، وخروجا على المنهج الذى ساروا عليه ، وترخصا فيما
اعند به هؤلاء من أخبار الآحاد ، ووضع الرواية فوق كل اعتبار •

كان الحليل طرازا جديدا من الدارسين ، ألم بما عرف حوله من
ثقافات لا بد أن يلم بها رجل مثقف ، ألم بالموسيقى لا للمتعة والذادة ، فلم
يعرف عنه أنه كان يختلف الى مجالس اللهو ، أو يستمع الى الغناء ، بل
لاستخدامها فى فهم دقائق اللغة التى كان يرى أنها مجموعة من الأصوات
الموسيقية • وألم بالكلام ، فأفاد من منهجه الذى كان أمينا على تطبيقه ،
وتعميمه فى الدراسة اللغوية وآب من كل ذلك بنتائج عظيمة جدا ، اذا قيست
بالتائج التى وعها تاريخ العربية فى القرنين الأولين •

وبأعمال الحليل ، وسلوكه هذا المسلك الجديد قامت فى البيئة البصرية
مدرسة لغوية نحوية جديدة ، من أغراضها تقعيد القواعد واستخراج
الأصول ، ومن أدواتها التى استعانت بها على تلك الأغراض ، القياس
والتجربة ، فلم تعد اللغة والنحو مجموعات من المرويات يتناقلها الخلف عن
السلف ، أو أشتاتا من المسائل لا يتنظمها رابط عام ، بل عادت مجموعة من
الأصول العامة ، كل أصل منها يضم اليه جملة من المسائل والجزئيات التى
تشارك فى الخصائص والصفات •

كانت هذه المدرسة تستقرىء وتجرب ، وتربط بين المسائل المتفرقة
بمفاهيم عامة مستخلصة منها ، وتقيس بعضها على بعض ، ومالم يرد له نص
على ماورد له نص ، حتى تصل الى أحكام عامة ، وأصول شاملة •

أما التجربة فقد وجدنا أثرها فى دراسة الحليل للحروف والكلمات
والجمل ، وعرفنا كيف كان يخضع الحروف لتجاربه ومحاكماته ، وكيف
استطاع أن يحدد عدد أصولها ، ويقف على أحكام أوائلها وأواخرها ،
وأساليب العرب فى الابتداء بها والانتهاؤ منها ، واستطاع أن يتذوق دلالتها على

معانيها ، وأن يحسّ بالصلة بين الألفاظ والمعاني ، وأن يقف على كثير من أسرارها ، ويفقه كثيرا من ظواهرها •

وأبعد في استقراءها حتى استطاع أن يحصر القوالب التي صيغت فيها ، أو الأوزان التي بنيت عليها ، وكان ينهج في دراسته هذه نهجا قويا ، بنيت قواعده على تفقه في اللغة ، وإدراك للطبيعة اللغوية العامة •

وأما القياس فكان الخليل يعدّه أصلا من أصول النحو ، كما كان الفقهاء من أهل الرأي والاجتهاد يعدونه أصلا من أصول الفقه ، وكان الخليل لا يستغنى عنه كلما عرض لمسألة ، أو درس موضوعا ، ولكن قياسه في أكثر المواضع ملاحظ فيه طبيعة الأساليب العربية ، وطريقة العرب العامة في صوغ قوالب الألفاظ ، وبناء الجمل ، فلم يكن قياسه عقليا بحتا ، كأنه كان يدرك في أعماق نفسه أن طبيعة اللغة تختلف عن طبيعة العلوم ، فلا تنطبق القاعدة النحوية على مسائلها انطباق القاعدة العقلية على جزئياتها •

ومن هنا كان قياس الخليل لا يخلو من كونه لغويا ، لأنه إذا استعان بالقياس فانما يستعين به ضمن حدود اللغة ، بحيث لا يفرض جديدا على الأصول المستنبطة من الطبيعة اللغوية •

وهو إذا قاس أو علل فانما يقيس أو يعلل في هدى ما أحسّ به من خصائص ، وما أدركه من دقائق وأسرار ، وقد رأيت معي كيف قاس «كَهْ» و «بَهْ» إذا لفظ بالكاف والباء من (مالك وضرب) ، في الحاق هاء السكت بهما في الوقف ، وتركها في الوصل - على قول العرب (عِهْ) في الوقف ، و (عِ يافتي) في الوصل •

ورأيت كيف أنه لم يستعمل (فو) إذا سمّي به استعمال (ذو) وغيرها من الكلمات التائية بتشديد الحرف الثاني ، لأن العرب كما كان يقول ، قد كفته أمر هذا ، لأنها كانت تقول فيه إذا أفردته : (فم) ، فهو مهما يبالغ في

اصطناع القياس لم يجز لنفسه أن يخرج عن النطاق المرسوم للغة العرب •
يؤيد هذا ما رواه الأصمعي عنه • قال الأصمعي : « قال لى الخليل :
أنشدنا رجل : «ترافع العز بنا فارفعنا» • فقلت هذا لا يكون • فقال : وكيف
جاز للعجاج أن يقول : (تقاعس العز بنا فاقعنسس) » • (١)

وكان مقتضى القياس أن يصحح قوله (فارفعنا) ، لو كان الخليل من
الذين يغالون بالقياس حتى يخرج بهم عن الحدود المرسومة ، ولكن قياس
الخليل لم يكن بهذا الاتساع الذى قد يخرج به عن حدود ما تذوقه العرب
وألفوه كما ظن المنشد •

ولعل مارواه الأصمعي عن الخليل هو الذى دفع الأستاذ أحمد أمين الى
أن يضع الخليل فى فريق المحافظين من الدارسين الذين كانوا يلتزمون ما ورد
فى اللغة ، ولا يخرجون عنه بحال من الأحوال ، لأنه أنكر بناء افغئل من
رفع ، وأبى قياسها على (اقعنسس) فى قول العجاج المذكور (٢) •

وفات الأستاذ أن الخليل لم يكن من أصحاب القياس الذين يبنون
أحكامهم على مقاييس عقلية بحتة ، فالخليل لم يعترض عليه لأنه قاس صيغة
على صيغة ، كيف وعلمه فى النحو مبنى على القياس ، بل اعترض عليه لأن
قياسه فى نظره باطل ، لأنه لم يراع فيه الطبيعة اللغوية ، وهو يرى أن حروف
الحلق أقل الحروف اجتماعا وتآلفا ، لعدم مرونة عضله ، فكيف اذن لو كرر
حرف منها على غير سبيل الادغام ، كما فعل المنشد فى (ارفعنا) ؟؟ لاشك أن
الخليل قد شعر بالثقل الذى كان العربى ينفر منه ، ولا يبنى كلامه على شئ

(١) الخصائص لابن جنى ج ١ ص ٣٦٦ •

(٢) محاضرة الاستاذ عن (مدرسة القياس) ، فى مجمع فؤاد للغة العربية
١٩٤٨ - ١٩٤٩ ص ٣ •

منه ، كما شعر بالثقل في كلمة «الهعخع» ، ووصفها بأنها كلمة شنعاء ، وأنكر تأليفها •

وكان أبو الفتح ابن جنى قد التفت الى هذا ، فكان يقول - بعد أن عرض لرواية الأصمعي هذه - : «ان قيل فقد منع الخليل لما أشد «ترافع العز بنا فارفعنا» ، قياسا على قول العجاج «تقاعس العز بنا فاقعنسا» فدل على امتناع القياس في مثل هذه الأبنية • فالجواب أنه إنما أنكر ذلك ، لأنه فيما لامة حرف حلقي ، والعرب لم تبني هذا المثال مما لامة حرف حلقي ، خصوصا وحرف الحلقي فيه متكرر ، وذلك مستكر عندهم مستقل» (٣) •

ومهما يكن من شيء فلا يصح اغفال الخليل في معرض الكلام على القياس والقياسيين ، كما فعل الأستاذ ، فاذا كان أبو على الفارسي وتلميذه ابن جنى من أعلام هذه المدرسة ، فأعلام هذه المدرسة كانوا مسبوقين بمدرسة الخليل ، واذا أرتخ القياس ومدرسته بوصفه أصلا دراسيا فينبغي - فيما أرى - أن يؤرّخ بالخليل ومدرسته •

وقياس الخليل مبني على التشابه بين المقيس والمقيس عليه ، سواء أكان التشابه من جهة اللفظ أم من جهة الاعراب ، فهو تارة يقيس لفظا على لفظ ، وتارة يقيس اعرابا على اعراب ، وتارة يقيس أصلا على أصل ، لاشتراكهما في الغاية والغرض ، الى غير ذلك من المسائل التي تشترك في بعض المزايا والخصائص •

فمن الأول : ما رأيناه من قياس (كَهْ و بَهْ) ، و (كَ و بَ فاعلم يا فتى) ، على (عِهْ و عِ يا فتى) ، ووجه القياس في هذا ما وجدته من تشابه لفظي ، لأن كلا منهما على حرف واحد ، وهذا ما لم يألفه العرب ، أو هو

(٣) الخصائص لابن جنى ج ١ ص ٣٦٦ •

ما استقلوه ، لأنهم كانوا يستروحون الى مدّ آخر الكلمة في الوقف •
وما ذهب اليه من الحاق الهمزة بأبّ وأى وأد ، اذا أريد التلّفظ بباء
(اضرب) ، وياء (غلامى) ، ودال (قد) السواكن ، قياسا على الحاق العرب
اياها بالكلمات المبدوءة بحرف ساكن ، نحو قولهم : ابن واسم ، فقد
ألحقت بهما ألف الوصل ، للتوصل الى النطق بالسواكن • (٤)

ومن الثانى : قياس عمل اسم الفاعل فى المضاف الى ما فيه الألف واللام
على عمل الصفة المشبهة باسم الفاعل المضافة الى ما فيه الألف واللام • قال
الخليل : «وينبغى فى قياس من قال : الضارب الرجل ، أن يقول الضارب
أخى الرجل ، كما يقول الحسن الأخ والحسن وجه الأخ» (٥) •
وقياس الجزم فى (أكن) فى قوله تعالى : فأصدّق وأكنّ ، على جر
(سابق) فى قول زهير :

بدا لى أنى لست مدرك ما مضى ولا سابق شيئا اذا كان جائيا

فقد لاحظ أن فى كلّ منهما عطفًا على ما لم يشركه فى أعراجه لفظا ،
ولكنه بناه على التوهم ، فجزم الفعل فى الآية ، على توهم أن ما قبله يجىء
مجزوما ، وجر (سابق) فى البيت على توهم أن ما قبله قد دخله حرف الجر
الذى يكثر دخوله على خبر ليس •

ومن الثالث : قياس تنكير المضاف الى نكرة على تنكير الموصوف بالنكرة ،
لاشترائكهما فى غرض واحد ، وهو أن كلا من الاضافة والصفة انما يقصد
به الى تعريف المضاف والموصوف ، أو تخصيصهما ، فلما اشتركا فى التقصد
حمل أحدهما على الآخر ، فقد قال : « وأما قولك يا أخا رجل ، فلا يكون

(٤) الكتاب ج ٢ ص ٩٩ •

(٥) الكتاب ج ١ ص ٩٩ •

الأخ ههنا الا نكرة ، لأنه مضاف الى نكرة ، كما أن الموصوف بالنكرة لا يكون
الا نكرة » (٦) •

ومع ذلك ربما كان في قياسه شيء من التحكم لا يستند الى أساس واضح ،
أو على الأقل لم أستطع تبين أسبابه ، كقياسه الحروف الخمسة وهى ان
وأخواتها على كان وأخواتها فى عمل الرفع والنصب • وكقياسه (ان) على
(أرى) فى اعمالها وفى الغاء عملها ، كما مرّ من قوله : «انما لاتعمل فيما
بعدها ، كما أن (أرى) اذا كانت لغوا لم تعمل ، فجعلوا هذه نظيرها من
الفعل ، كما أن نظير (ان) من الفعل مايعمل» (٧) •

فلمَ قيست ان وأخواتها على كان وأخواتها ، ولم تقس على غيرها ؟ وما
هو القدر الجامع بينهما؟

ولمَ قيست (ان) فى العمل ، والغاء العمل على (أرى) ، عاملة وغير
عاملة ؟ وما هو الوجه الذى انبنى عليه هذا القياس ؟
ذلك ما لم يقع لى تعليله ، ولم أعثر على تفسيره •

ولعل هذا أن يرجع الى ما أشرنا اليه مرارا من أن طبيعة الدراسة
النحوية تختلف عن طبائع الدراسات العلمية النظرية ، لأن النحو دراسة
للتأليف ، وتأليف الكلام يستند الى اعتبارات كثيرة ، بيئية واجتماعية ونفسية ،
والى اعتبارات أخرى منتزعة من طبيعة الجماعة •

وهناك نوع آخر من القياس كان الخليل يصطنعه ، ولكنه ليس كهذا
القياس الذى مرت الاشارة اليه ، وهو قياس يعتمد على التأويل والتفسير ،
وهو التأويل •

(٦) الكتاب ج ١ ص ٣٢٥ •

(٧) الكتاب ج ١ ص ٢٨٣ •

وللتأول في النحو ميدان واسع يجرى في كل كل أصل من أصوله .
ويخضع النحويون له كل ما يعترضهم في تطبيق القواعد التي استخرجوها
على المسائل التي يرون أنها تدرج فيها ، أو يحاولون ادراجها فيها .

وكان التأول أداة لم يجدوا مفرا منها ، اقتضاها جنوحهم الى تعقيد
اللغة والنحو ، وتطبيق المنهج العلمي عليهما ، وطبيعتهما تأبى أن تخضع
للأصول العلمية ، فلا بد من وجود الشواذ ، ولا بد من ظهور مسائل لا تنطبق
عليها القواعد التي استخرجوها ، فاضطروا الى أن يتأولوها .

والحليل على رأس أولئك اللغويين النحويين الذين يعنون بالقواعد ،
فراح يشقّ لهم طريق التأول ، ليدخلوا في أصولهم المقررة ما خالفها في
الظاهر من مسائل ، معتمدين على تفسيرها تفسيراً ينتهي بها الى الاندراج فيما
استنبطوا من قواعد .

وفي الكتاب أمثلة كثيرة جدا استعمل فيها هذا القياس الذي يعتمد على
التأويل والتفسير ، أعنى التأول ، وفي جميعها يظهر التحليل وكأنه أدرك أن
هذه الصور اللفظية التي اصطنع فيها التأول أمثلة لصور نفسية ، ترك
الاستعمال فيها أثره ، فحذف بعض أجزائها ، وغير شيئاً من قوالبها وهيئاتها ،
فبعدت عن الصور العامة المستقرة في نفوس المتكلمين التي كانت هذه
الصور اللفظية طبقاً لها .

فمن هذه الأمثلة : ما جاء في باب التعجب في توجيه قولهم : ما أحسن
عبدالله فقد لاحظ فيه من التعجب ما هو مفهوم ، ولكن الجملة لا تجرى على
ظاهر الأصول المستقرة ، ففيها فعل ليس له فاعل ، والاسم الموجود لا يصلح
أن يكون فاعلاً ، لأنه منصوب ، فأخذ يتأولها تأولاً جعلها تدرج تحت أصوله ،
(فما) عنده مبتدأ بمعنى شيء ، وفي (أحسن) ضمير يعود على (ما) هو الفاعل ،

وعبدالله مفعول به • وكان يقول : «انه بمنزلة قولك شيء أحسن عبدالله ،
ودخله معنى التعجب» (٨) •

ومن الأمثلة : ما جاء في توجيه الجمل التي ينتصب فيها الفعل المضارع
بعد فاء السببية ، أو بعد واو المعية ، في سياق نفى أو طلب ، نحو قولهم :
لا تكسل فتفشل ، فتفشل منصوبة بأن المضمره بعد الفاء ، وأن وما بعدها في
تأويل المفرد ، فماذا يكون محل هذا المفرد من الاعراب ؟•

هنا يستعين الخليل بالتأول ، فيذهب الى أن هذا المفرد معطوف على اسم
متصيد من الكلام السابق ، كأنه قيل : لا يكن منك كسل ففشل •

وكقوله تعالى : «وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا ، أو من وراء
حجاب ، أو يرسل رسولا» • فقد سأله سيوييه عنه ، فقال : «ان النصب
محمول على (أن) سوى هذه التي قبلها ، ولو كانت هذه الكلمة على (أن) هذه
لم يكن للكلام وجه ، ولكنه لما قال الا وحيا في معنى الا أن يوحى ، وكان
(أو يرسل) فعلا لايجرى على (الا) فاجرى على (أن) هذه • كأنه قال : الا
أن يوحى أو يرسل ، لأنه لو قال الا وحيا والا أن يرسل كان حسنا ، وكان
(أن يرسل) بمنزلة الارسال ، فحملوه على (أن) ، إذ لم يجوز أن يقولوا : أو
الا يرسل ، فكأنه قال الا وحيا أو أن يرسل» (٩) •

ومن الأمثلة التي اصطنع فيها التأول : هذه المسائل التي حمل اعرابها
على التوهم ، فمما جرّ على التوهم قول زهير :

بدا لي أنني لست مدرك ما مضى ولا سابق شيئا اذا كان جائيا

(٨) الكتاب ج ١ ص ٣٧ •

(٩) الكتاب ج ١ ص ٤٢٨ •

فكان يقول : «انما جزوا هذا ، لأن الأول قد يدخله الباء ، فجاءوا
الثاني ، وكأنهم قد أثبتوا في الأول الباء» (١٠) .

وقولهم : هذا جحر ضب خرب ، وهو ما يدخل عند النحويين في باب
الاتباع • وكان الخليل يقول في تأويله : «الوجه الرفع ، وهو أكثر كلام
العرب وأفصحهم ، وهو القياس ، لأن الحَرَب نعت الجحر والجحر رفع ، ولكن
بعض العرب يجره ، وليس بنعت للضب ولكنه نعت للذي أضيف إلى الضب ، فجروه
لأنه نكرة ، ولأنه في موضع يقع فيه نعت الضب ، ولأنه صار هو والضب
بمنزلة اسم واحد ، ألا ترى أنك تقول هذا حب رمان ، فإذا كان لك قلت :
هذا حب رمانى ، فأضفت الرمان إليك ، وليس لك الرمان ، انما لك الحب» •
ثم قال : «لا يقولون الا هذان جحرا ضب خربان ، من قبل أن الضب واحد ،
والجحر جحران ، وانما يغلطون اذا كان الآخر بعدة الأول ، وكان مذكرا
مثله أو مؤنثا» • وقال : «هذه جحرة ضباب خربة ، لأن الضباب مؤنثة
ولأن الجحرة مؤنثة ، والعدة واحدة ، فغلطوا» (١١) .

ومما جزم على التوهم : قوله تعالى : «فأصدق وأكن من الصالحين» •
وسأله سيبويه عنها ، فحملها الخليل على قول زهير ، وقال : «لما كان الفعل الذى
قبله قد يكون جزما ، ولا فاء فيه تكلموا بالثاني ، وكأنهم قد جزموا قبله ، فعلى
هذا توهموا هذا» (١٢) .

ومن الأمثلة أيضا : ما جاء من قولهم : وراءك أوسع لك ، وانتهوا خيرا
لكم ، ولا تتكلم خيرا لك ، مما ينتصب في سياق أمر أو نهى • فقد أوّله
الخليل بقوله : «كأنك تحمله على ذلك المعنى ، كأنك قلت انته ، وادخل فيما

(١٠) الكتاب ج ١ ص ٤٥٢ •

(١١) الكتاب ج ١ ص ٢١٧ •

(١٢) الكتاب ج ١ ص ٤٥٢ •

هو خير لك ، فنصبته لأنك قد عرفت أنك اذا قلت له : اتته ، أنك تحمله على
معنى آخر ، فلذلك انتصب» (١٣) •

وظاهرة التأول مثبتة في مواضع كثيرة مما نقله سيويوه عنه ، متمثلة في
أكثر الأحيان في قوله : « كأنك قلت كذا وكذا » ، أو « كأنه قال كذا وكذا » ،
أو « كأنك تحمله على كذا وكذا » ، أو غير ذلك من التعيرات التي يقصد بها الى
تأويل محذوف ، أو تأويل معنى بجملته ، تضمنته عبارة أو جملة •

فالحليل اذن كان متمثلا لهذه الأصول المستقرة في نفوس المتكلمين ،
وكان معنياً باستنباط القواعد العامة ، لتكون على مثال تلك الأصول ، ولذلك
اصطنع القياس الظاهر والتأول في نطاق واسع ، واستعان على تكميل غرضه
بالفروض التي عرضنا لها من قبل •

على أن الكوفيين كانوا قد تأثروا بالخليل ، بوجه خاص ، حينما اتصل
الكسائي بالخليل وعلمه اتصالاً مباشراً بتلمذته له ، وحينما اتصل القراء بآرائه
بقراءة الكتاب ، واستيعاب مافيه ، فكانوا يعنون بالأقيسة أيضاً ، ولكنهم توسعوا
في القياس فأخذوا يعتدون بالمثل الواحد يقهسون عليه ، لعلمهم أنه يمثل بيئة
لغوية لا يصح اغفالها •

أما الحليل ومن ورائه نحاة البصرة فكان يرمى من افتراض الفروض ،
والأقيسة الى اخضاع الجزئيات لأصوله العامة التي كان يرى أنها صور مطابقة
للأصول النفسية العامة •

كان هذا عمله في النحو ، وهو عمل رائع حقا اذا قيس بأعمال من
سبقه ، أو بأعمال من تأخر عنه ، ويكفي أن تقرأ الكتاب لتعرف أى مجهود
بذله هذا الدارس الفذ ، وأى عمق اتسمت به دراسته وملاحظاته •

أما الأصوات اللغوية فيكفيه أنه كان أول دارس في العربية تناولها بالدرس والبحث ، وبالرغم من أن اليونان والهنود سبقوه الى هذه الدراسة ، لم يكن مقلدا ولا اكتفى بالحد الذي وصلوا اليه ، فقد أضاف الى هذه الدراسة ما لا بد منه ، لتكون دراسة مثمرة ، وكانت أصالته في خوض هذا الميدان الجديد تمثل فيما انتهى اليه من بحث العلاقات بين الحروف في تألقها وانسجامها ، ومراقبة استعمالها ، والنص على ما يتألف منها مع أخواته وما لا يتألف ، حتى انتهى الى نتائج جديدة فتحت للدراسة اللغوية آفاقا جديدة أيضا ، لايسع الدارس الا أن ينحني اجلالا لهذه العبقرية ، التي أضافت الى ما تمخضت عنه الانسانية من أعمال جليلة ، أعمالا جليلة أخرى •

وكان من هذه الأعمال الجليلة ظهور أول كتاب جامع لمفردات اللغة العربية وهو كتاب العين ، الذي كان أساسا لكل ما أُلّف في اللغة من بعده من معجمات ، وكان قد بناه على دراسة الحروف ، وترتيبها ترتيبا جديدا ، ولما كانت العين أول الحروف عنده سمي كتابه العظيم باسمها ، لأن الفصل الأول منه يتناول المفردات التي تبدأ بالعين أو تتضمنها ، مما سبقت الاشارة اليه •

وأما العروض فهو بعض الأعمال الرائعة التي كان الخليل فيها مبدعا ، وكان فيها خلاقا ، فهو الذي استقرأ أشعار العرب ، وهو الذي توصل الى معرفة بحورها ، وهو الذي درس هذه البحور ، ووصل الى ما تتألف منه من تفعيلات ، والى ما تتألف التفعيلات منه من أسباب وأوتاد ، وهو الذي اهتدى الى البحور الستة عشر كلها ، ثم هو الذي فكر في دوائر العروض الست •

وليس صحيحا ما قيل من أن الأخفش سعيد بن مسعدة الذي لم يكن أنبه تلاميذه ، كان قد استدرك عليه البحر السادس عشر ، فقد أشرنا الى أنه كان قد نظم عليه شعرا مما أوردنا الأمثلة عليه في فصل سابق •

ولا يسع الدارس الذي يسمع بعضهم يقول :

علم الخليل رحمة الله عليه سببه ميل الوري لسيويه

وهو يعنى العروض ، إلا أن يتسم اشقاقا على من يرى هذا الرأى ، فلم يكن الخليل بحاسد لسيويه وهو تلميذه الذى أحله منه محل الصديق ، ونشأه كما ينشئ الوالد ولده ، ولقى سيويه منه ما لم يلقه من أحد ، ولذلك لزمه حيا ، ووفى له ميتا ، وحفظ آراءه وأقواله فى كتاب كان قد أمته عليه ، أو أمله أكثره عليه جملة وتفصيلا ♦

وشأن سيويه لم يبلغ الدرجة التى وصل إليها فى حياة الخليل ، فلا يعرف التاريخ فى زمن الخليل دارسا يضعه الى جانبه ، فكيف اذن يحسد الخليل تلميذه ، ويظل يفكر فى الخطوة بمثل شهرته حتى ينتهى الى وضع العروض كما يقال !؟

هذه الأعمال التى عرضت لها فى الفصول السابقة هى أهم الأعمال التى تناولها الخليل بالدرس ، والتى تيسر الى الحصول عليها من بين أقواله وآرائه ♦ وقد حاولت أن أرسم لمنهجه فى دراسة اللغة والنحو صورة تامة واضحة ، فحال دون ذلك ما أحاط بهذه الغاية من عقبات ، وما اكتنف شخصيته من غموض ♦ فعناصر شخصيته اللازمة لرسم هذه الصورة لم تتوفر لى كاملة ، فقد نشأ فى فترة لم يكتب لها أن تشهد حياة التدوين والتأليف ، أو حياة التنظيم العلمى كما كان من بعد ♦

ولم أعر فاما استطعت الوقوف عليه من مصادر على عرض كامل لحياة الخليل ، وأعماله العلمية ، عرض يتسنى لى منه دراسته دراسة وافية ♦♦♦ وكل ما وقفت عليه أخبار متفرقة تتحدث عن الخليل بعد أن نضج ، وتصدر مجالس التدريس فى حلقات البصرة التى حفل بها مسجدها الجامع ♦ وليس

في هذه الأخبار المتفرقة مايفى برسم صورة واضحة مكتملة •
وظلت الكتب التي تعنى بالطبقات تردد هذه الأخبار ، وتتأقلمها ، كأن
العصر الذي نشأ فيه هذا الرجل الذي أحدث في حياة الأمة الاسلامية العقلية
ثورة عنيقة ، وانقلابا فكريا هائلا ، كان مغمض العينين عن مثل هذه الشخصية
النادرة •

ومن يدري؟! فلعل السر في أن يسكت عنه حتى معاصروه هو هذا
المستوى العقلي الذي هبط عنه معاصروه هبوطا لم يمكنهم الوقوف على أسرار
عقله وحل رموزها •

وأكبر الظن أن المؤرخين كانوا في موقف لايقبل عن موقفنا منه حيرة
وحرمانا مما يعين على دراسته دراسة وافية ، فقد أحاط الغموض بشخصيته
وبأعماله العلمية ، وبعُد ما بيننا وبينه ، فصعب المطّلب في آثاره كلها ، ولم
يتيسر الحصول على آرائه وأقواله جميعا •

ولست أخفي ما عانيت من أجل استجلاء آثاره والاحاطة بأقواله
وآرائه ، حتى أخرجتها على هذا النحو ، فقد جار الزمن عليها ، فمحا كثيرا
من الخطوط ، وعبث بكثير من الظلال •

وأنا - مع اعترافي بأن الصورة التي رسمتها للخليل تحتاج الى كثير
من الخطوط والظلال - أرجو أن تكون قد حملت معها الخطوط الرئيسة
التي تعتمد عليها كل صورة ، وتضمنت الملامح الأساسية التي تتم على شخصيته
العلمية •

الجماعات

حرف الالف

- أباضية - ٤٥ ، ٤٧
- أحباش - ١١
- الازد - ٧ ، ٧٨
- أساوره - ٧
- أسد - ٧٨
- اسكتلنديون - ١٠٥
- اشغانيون - ٢
- آشور - ١ ، ٤
- أكاسرة - ٢

حرف التاء

- ثقيف - ٧

حرف الجيم

- الجبرية - ١٥

حرف الحاء

- الحجازيون - ١١

حرف الخاء

- الخوارج - ٣٦ ، ٤٣ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٧

حرف الراء

- الرومان - ٢ ، ٣ ، ١٠ ، ١١ ، ١٣ ، ٥٧
- - ٦٦

حرف الزاي

- الزط - ٨ ، ٩ ، ٣١ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٧
- الزنج - ٩ ، ٦٨ ، ٧٣ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ١٩٥ ، ٢١٢

حرف السين

- الساسانيون - ٢
- السباجة - ٨
- السريانيون - ١٤ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٧ ، ٧٨
- السلوقيون - ١

حرف الباء

- البابليون - ١ ، ٤
- باهلة - ٧
- البصريون - ٩ ، ٣١ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٧
- ٢٦٦ ، ٢٢٧ ، ٢٤٨ ، ٢٥١ ، ٢٦٠
- ٢٦٦ ، ٢٢٧ ، ٢٨ ، ٢٥١ ، ٢٦٠
- بكر بن وائل - ٧

حرف التاء

- تغلب - ٧٨
- تميم - ٨ ، ٧٨

حرف الشين :

- شيبان - ٤
- الشيعة - ٣٦ ، ٤٣ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩

حرف الصاد :

- الصابئة - ٨

حرف الطاء :

- طيء - ٧٨

حرف العين :

- العباسيون - ١٣ ، ٢٣ ، ٣٥ ، ٤٣ ، ٤٦
- عبدالقيس - ٧ ، ٧٨ ، ١٢٦
- العبرانيون - ٧٨
- العجم - ٤ ، ١٥

حرف الغين :

- غسان - ٣ ، ٧٨

حرف الفاء :

- الفرس - من ١ الى ٥ ، ٧ ، من ١٠ الى ١٤ ، هذيل - ٧٨
- ٣٥ ، ٧٨

حرف القاف :

- قريش - ٧
- قضاة - ٧٨
- قيس - ٧٨

حرف الكاف :

- كنانة - ٧ ، ٧٨

- الكوفيون - ٣١ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٧٩ ، ٨٠

• ٢٦٠ ، ٢٤٨ ، ١٩٥

• الكيسانية - ٣٦

حرف اللام :

• لحم - ٣ ، ٧٨

حرف الميم :

• المدنيون - ٣١

• المرجئة - ٣٦

• مضر - ٧٨

• معد - ٣

• المعتزلة - ٣٦ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٧

• ٤٨ ، ٦٠ ، ٨٤ ، ١٩٥

• المكيون - ٣١

• المناذرة - ٣

حرف النون :

• النبط - ٨ ، ١٥ ، ٧٨ ، ١٢٥

• نصارى الحيرة - ٥٨

حرف الهاء :

• هذيل - ٧٨

• الهنود - ٨ ، ١١ ، ١٤ ، ٣٥ ، ١٤٥

• ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٩٠ ، ١٩١

• ١٩٢ ، ١٩٣ ، ٢٦١

حرف الياء :

• اليمانيون - ٣

• اليونان - ١ ، ٢ ، ٨ ، ٩ ، ١٤ ، ٣٥ ، ٥٧

• ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٢

• ٧٣ ، ٧٨ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٩٠

• ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ٢٦١

الاعلام

حرف الالف :

- ابن الفقيه - ٨٠
- ابن كيسان - ١٧٩ ، ١٩٠
- ابن مالك - ٧٩ ، ٢٤٧
- ابن محرز - ٥٧
- ابن مسجح - ٥٧
- ابن مضاء القرطبي - ٢٤٣
- ابن المقفع - ١٢ ، ٣٧ ، ٦٣ ، ٦٥
- ابن منظور - ١٤٨ ، ١٥٤ ، ١٦٨
- ابن النديم - ٢٤ ، ٣٣ ، ٤٨ ، ٥٦ ، ٧٣ ، ٢٢٠
- ابن يزيد الطائي (شاعر) - ١٦٧
- ابو بكر (خليفة) - ٤ ، ٤٠
- ابو حرب (ابن أبي الاسود) - ٢٨ ، ٢٩
- ابو حنيفة - ٢٢ ، ٥٥ ، ٧٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥
- ابو خيرة - ٥٥
- ابو الدقيش - ٥٦
- ابو زيد الانصاري - ٨١
- أبو العباس - ٩٧
- ابو عبيدة - ١٨ ، ٥٥ ، ٨١ ، ١٢٥ ، ١٥٠ ، ٢٠٥
- ابو علي (الفارسي) - ٨٤ ، ٨٩ ، ١٩٩ ، ٢٥٤
- ابو عمرو بن العلاء - ١٨ ، ٣١ ، ٣٢
- ٣٣ ، ٣٤ ، ٤٧ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦
- ٧٩ ، ١٣٥ ، ١٥٠ ، ٢٢٠ ، ٢٤٥
- ابو الفرج (صاحب الاغانى) - ٥٧
- ابو موسى الاشعري - ٨٤ ، ٨٧
- ابو النجم (شاعر) - ٧٩
- آدم - ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٦
- ابان اللاحقى (شاعر) - ١١
- ابراهيم بيومي مذكور - ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٥
- ٦٦ ، ٧٤ ، ٢٢١
- ابراهيم مصطفى - ٢٢٧
- ابراهيم الموصلي (مغنى) - ٥٨
- ابراهيم بن المهدي - ١٨٥
- ابراهيم بن هرمة (شاعر) - ٧٩
- ابن أبي اصيبعة - ٦٥ ، ٦٦
- ابن أبي ليلى (محمد) - ٢٣ ، ٧٢
- ابن أبي النجود (عاصم) - ٢٢
- ابن الانبارى - ٣٢ ، ٣٨
- ابن الجزرى - ٣٤
- ابن جنى - ٨٤ ، ٨٦ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٧ ، ١١٠ ، ١١١
- ١١٦ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٢ ، ١٢٥
- ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٩ ، ١٤٧
- ١٤٨ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٧ ، ٢١١
- ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٤٣ ، ٢٥٤
- ابن الحاجب - ٨٤ ، ٨٧ ، ١٢٠ ، ١٤٨
- ابن خلكان - ٢٩ ، ٣٣
- ابن دريد - ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥٣
- ابن زريق البغدادي - ١٨٠
- ابن سيرين (محمد) - ٣٠
- ابن عامر - ٨١
- ابن فارس - ٨٤ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٨
- ١٣٠ ، ١٣٧ ، ١٤٨ ، ١٥٤ ، ١٨٩

• التوجي (ابو محمد) - ٤٤

حرف التاء :

• ثعلب - ٢٤ ، ٧٩ ، ١٥٦ ، ٢٢٠ ، ٢٢١

حرف الجيم :

• الجاحظ - ١٢ ، ١٣ ، ١٦ ، ٢٧ ، ٢٨

• ٤٨ ، ٥٦ ، ٦٠ ، ٧٠ ، ١٩٠

• النجارم (علي) - ٦٨ ، ١٩٠ ، ١٩٣

• جب - ٦٤

• جرير (شاعر) - ٤٦ ، ٧٩ ، ١٨٠

• جعفر بن الحسن - ٢٥

• جعفر بن محمد (الصادق) - ٤٦ ، ٤٨

• جول روانيت - ٥٦

• الجوهرى - ١٥٤

حرف الحاء :

• الحاتمي - ٨٩ ، ٩٤ ، ٩٥

• الحجاج بن يوسف الثقفي - ٨ ، ٢٠ ، ٢٦

• ٢٩ ، ٣٠ ، ٤٠ ، ٤٧ ، ٩٦ ، ١٥٤

• ١٩١ ، ١٥٧

• الحسن البصرى - ١١ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٣٤

• ٤١ ، ٥٢ ، ٧٠ ، ٧٨ ، ٧٩

• الحسن بن علي - ٢٢

• الحسين بن علي - ٢٢

• حمزة بن حبيب الزيات - ٢٢ ، ٢٣

• ٢٤

• حمزة بن الحسن الاصفهاني - ٤٨ ، ٥٦

• ٧٠ ، ١٥١

• حنين بن اسحق - ٦٣ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧

• حنين بن بلوع (أبو كعب) - ٥٨

• ابو نواس - ١١ ، ٧٩

• ابو يوسف - ٧٣

• ابى بن كعب - ٢٢

• احمد أمين - ٦٦ ، ١٥٥ ، ٢٥٣

• الاخفش (سعيد بن مسعدة) -

• ٤٤ ، ٥١ ، ١٨٧ ، ٢٦١

• الاخفش (أبو الخطاب عبد الحميد بن

عبد المجيد) - ٥٥ ، ١٥٠

• الاخفش (علي بن سليمان) - ٢٢٧

• اردشير بن بابكان - ٣٢

• ارسطو - ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧

• ٦٨ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ١٤٥

• الازهرى - ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥٣

• اسحق بن ابراهيم (الموصلى) - ١٨٥

• الاسكندر - ٨١

• اصطيقتانوس - ٩

• الاصمعي - ١٨ ، ٤٧ ، ٧٩ ، ٨١ ، ١٥٠

• ٢٥٤ ، ٢٥٣ ، ١٨٧

• افلاطون - ١٤٥

• امرؤ القيس (شاعر) - ١٧٩

حرف الباء :

• الباقلاني - ١٩٣

• بر كستر اسر - ١٤٩ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤

• بركلمان - ١٥٨

• البستاني - ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠

• بشار بن برد (شاعر) - ١١ ، ٧٩

• البلاذرى - ٨

• بلال بن أبى بردة - ١٨ ، ٣٢

• البيرونى - ١٩١ ، ١٩٢

حرف التاء :

• ترند - ٥٦

حرف الحاء :

زهير - (شاعر) - ١٧٩ ، ٢٥٥ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩

زياد بن ابيه - ١٩ ، ٢٠ ، ٢٨ ، ٤٠ ، ٦٤ ، ١٥٧

حرف السين :

سابور بن أردشير - ٢

سابور ذو الاكتاف - ٣

السختناني (أبو أيوب) - ٤٥ ، ٤٨ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٥

سعد بن أبي وقاص - ٤ ، ٥ ، ٧

سعيد بن جبير - ١١ ، ٢٣ ، ٢٥

سفيان الثوري - ٤٢ ، ٥٣ ، ٨٠

السكاكي - ٨٩ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ١٤٨

سلم الخاسر (شاعر) - ١١

سلمان الفارسي - ١١

السلمي (أبو عبد الرحمن) - ٢٢

سلوقيوس - ١

سليمان بن حسان - ٦٥

سليمان بن علي - ٤٥

سويد بن قطبة - ٥

سياه الاسواري - ٧

سبيويه - يتردد اسمه في أكثر صفحات الكتاب

السيد الحميري (شاعر) - ٤٦ ، ٤٩

السيرافي - ٢٨ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٧٣ ، ٢٢٠ ، ٢٢٧

السيوطي - ٢٨ ، ٧٩ ، ١٥١ ، ١٥٦

١٨٩ ، ٢٤٦

خالد بن الوليد - ٥ ، ٧

الحفاجي (ابن سنان) - ١٢٩

خلف الاحمر - ٧٨

الخليل - يتردد اسمه في معظم صفحات الكتاب

حرف الدال :

دارا بن دارا - ١ ، ٢

الداني (أبو عمرو) - ٣٩ ، ٥٥

دانيال جونز - ١٠٧

الدؤلي (ابو الاسود) - ١٩ ، ٢٠ ، ٢١

٢٥ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٨ ، ٤١

٤٩ ، ٦٤ ، ٧٦ ، ١٥٧ ، ١٦٤ ، ٢٥٠

دي بور - ٦٥

الدينوري - ١ ، ٣

حرف الراء :

الرواسي (أبو جعفر) - ٢٤

رؤبة بن العجاج (شاعر) - ٧٩ ، ٢٥٣

٢٥٤

الربيع بن خثيم - ٨٣

الرضي - ١١٠ ، ١١٩ ، ١٣٧ ، ١٤٨

٢٤٣

الرقاشي (الفضل بن عيسى) - ١٦ ، ٢٧

حرف الزاي :

الزبيدي - ٤٩ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ١٥٥ ، ١٥٦

٢٢١

رزق بن حبيش - ٢٢

الزمخشري - ١٥٤

حرف الشين :

- شريح القاضي - ٢٣
- شيطان الطاق - ٤٨
- الشعبي (عامر بن شراحيل) - ٢٣

حرف الصاد :

- الصولي - ١٥٦

حرف الطاء :

- طه حسين - ١٤ ، ٧٢
- الطرامح (شاعر) - ٤٦
- طويس - ٥٧

حرف العين :

- عمرو بن عبيد - ١٦ ، ٢٧

- عمرو بن قائد الاسواري - ١٦

- عمرو بن كلثوم - ١٨٠

- عنيسة الفييل - ٢٩

- عيسى بن عمر - ٢٣ ، ٢٧ ، ٣١ ، ٣٣

- ٣٤ ، ٣٧ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٦١ ، ٧٩

- ٢١٩ ، ٢٢٠

حرف الغين :

- الغريض - ٥٧
- الغلابيني (مصطفى) - ١٩٦

حرف الفاء :

- فؤاد حسنين - ١٤٥

- فرانكو الكولوني - ٥٧

- انقراء (يحيى بن زياد) - ٢٤ ، ٧٩ ، ١١٠

- ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢١٢ ، ٢٤٨

- ٢٦٠

- الفزدق (شاعر) - ٣٢ ، ٤٦ ، ٧٩

- الفضل بن الربيع - ١٨

- الفيروز آبادي - ١٠٤ ، ١٣٠ ، ١٥٤

- ١٨٩

- الفيومي - ١٥٤

حرف القاف :

- قنادة - ٨٣

- قطري بن الفجاءة (شاعر) - ٤٦

- القفطي - ٤٦ ، ٤٨ ، ٥٦ ، ٦٥ ، ٦٦

- ١٨٧

حرف الكاف :

- كراوس (بول) - ٥ ، ٦

- عبدالله بن أبي اسحق - ١٨ ، ٣١ ، ٣٢

- ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٧ ، ٥٥ ، ٦١ ، ٧٣

- ٢٢٠

- عبدالله بن عباس - ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨

- ٨٣ ، ٨٤

- عبدالله بن مسعود - ٢٢ ، ٢٣

- عبدالمك بن مروان - ٦

- عبدالوهاب عزام - ٢٢١

- عبيدالله بن زياد - ٨ ، ١٣

- عبيدالله بن عون - ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٤

- عتبة بن غزوان - ٥ ، ٦ ، ٧

- عثمان بن عفان - ١٩ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٤٠

- العجاج - ٧٩ ، ١٣٦

- العسقلاني - ٤٧

- علي بن أبي طالب - ١٩ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٨

- علي بن نصر الجهضمي - ٤٤

- عمر بن الخطاب - ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ١٩

- ٢٠ ، ٤٠

الكسائي - ١٨ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٣٧ ، ٧٩ ، ٧٨ ، ٧٩

• ميمون الاقرن - ٧٩

• ١٥٩ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ٢٦٠

• الكميث (شاعر) - ٤٦

• كيرندر - ١٠١ ، ١٠٨ ، ١١٧

حرف النون :

حرف اللام :

• النابغة (شاعر) - ١٨٠

• لبيد (شاعر) - ١٨٠

• نصر بن عاصم - ٢٠ ، ٢١ ، ٢٩ ، ٣١

• ٩٦ ، ٩٧ ، ١٥٤ ، ١٥٧

• النبيث بن مظفر - ٤٤ ، ٤٥ ، ٥١ ، ١١١

• النضر بن شميل - ٤٤ ، ٤٥ ، ٥٠

• ١١٨ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٦٢ ، ١٦٧

• ٥٤

• ١٦٨ ، ٢٠٢

• النعمان - ٤

• ليتمان - ٦٤

• النيسابوري - ٤٦

حرف الميم :

حرف الواو :

• المازني (أبو عثمان) - ٢٢٧

• وافي (الدكتور علي عبدالواحد) - ١٩٩

• ماسنيون - ٦٨

• الوليد بن يزيد (ملحن) - ٥٧

• مؤرج بن عمرو السدوسي - ٤٤

حرف الهاء :

• المبرد - ٥٨ ، ٢٢٧

• هانيء بن مسعود - ٤

• المثني بن حارثة الشيباني - ٤

• مجاهد - ٨٣

• هشام بن الحكم - ٨

• محمد بن الحسن الشيباني - ٧٣

حرف الياء :

• محمد بن سيرين - ١١

• يحيى بن خالد - ١٨

• محمد بن عبدالله بن المقفع - ٦٥

• يحيى بن يعمر - ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١

• محمد بن عبدالوهاب الثقفي - ١٨٧

• يزيدجرد - ٧

• محمد بن القاسم الثقفي - ١٩١

• اليزيدي (أبو محمد) - ٤٤

• محمد بن مناذر - ١٨٧

• يعقوب الرهاوي - ٦٤

• مصطفي نظيف - ٦٦

• يونس بن حبيب - ١٦ ، ٣٢ ، ٣٦

• معاوية بن أبي سفيان - ١٩

• ٤٧ ، ٥٥ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ٢١٧ ، ٢١٩

• معبد (مغني) - ٥٧

• ٢٢٠ ، ٢٢٢

• معبد الجهني - ٧٠

• موسى بن سياه الاسواري - ١٢ ، ١٦ ، يونس الكاتب - ٥٧

• المنتصور (خليفة) - ٤٦

فهرس الامكنة والبقااع

حرف الالف :

- الابله - ٥٠
- اصطخر - ١ ، ٢
- اكتزيفون (راجع المدائن)
- الاندلس - ٧٩
- الاهواز - ٤٥
- ايران - ٦

حرف الباء :

- بابل - ٣
- البحرين - ٢ ، ٨

- البصرة - ٣ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١٢ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٢ ، ٣٩ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٥٢ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٨٠ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ٢٦٢

- البطيحة - ٨

- بغداد - ٦٥ ، ٧٩

- بلاد العرب - ٣ ، ٨

- بهر مسير - ٢

- بهمن أردشير - ٢

- بيت الله الحرام - ٤٥

- تهامة - ٤٥ ، ٥٦ ، ١٥٠ ، ١٥٩

حرف الجيم :

- جاوة - ٨

- الجبل (بلاد) - ٢

- جزائر الهند الشرقية - ٨

- الجزيرة (انعرية) - ١١ ، ١٥

- الجزيرة (ابن عمر) - ٢ ، ٣ ، ٤

- جنديسابور - ٢ ، ٦٧

حرف الحاء :

- الحجاز - ٧ ، ٤٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ١٥٠ ، ١٥٩

حرف الخاء :

- خراسان - ٤٥ ، ١٥١

- الخريبة - ٥ ، ٦

- الخط - ٢

- خوزستان - ٦٧

حرف الدال :

- دجلة - ١ ، ٦ ، ٨

- الدقاقة - ٥

- الدهدار (دير) - ٦٧

حرف الذال :

- ذو قار - ٤

حرف الزاي :

- الزابوقة - ٥

- زنجبار - ٩

حرف السين :

- سكة اصطفانوس - ٨

حرف الكاف :

- الكوفة - ٣ ، ٥ ، ٧ ، ١٤ ، ١٧ ، ٢٢ ،
- ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٣٩ ، ٥٨ ، ٧٢ .

حرف الميم :

- ما بين النهرين (بلاد) - ٨
- مخراق (دير) - ٦٧
- المدائن - ١ ، ٢ ، ٣
- مدرسة نصيبين - ٦٣
- المربد - ١٧ ، ١٥٩
- مسجد البصرة - ١٨٧
- مكة - ١٩٣
- الموصل - ٥٨

حرف النون :

- نجد - ٦ ، ٧ ، ٤٥ ، ٥٦ ، ١٥٠ ، ١٥٩
- نصيبين - ٦٣

حرف الواو :

- وادي الرافدين - ١
- واسط - ٦٧

حرف الهاء :

- الهند - ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٧٨
- هو الحمار - ٨

حرف الياء :

- اليمن - ٨

سلوقية (راجع المدائن) .

- السند - ٨
- السواد - ٢ ، ٥
- السودان - ٩

حرف الشين :

- الشام - ٤ ، ٥٧ ، ٦٤ ، ٧٨

حرف الصاد :

- الصين - ١١

حرف الظاء :

- طيسفون (راجع المدائن)

حرف العين :

- العراق - ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٦ ، ١٤ ، ١٥
- ١٧ ، ٢٥٠

- عمان - ٧

حرف الفاء :

- فارس - ١ ، ٢ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٥
- الفرات - ٣ ، ٦ ، ٨

- فيروزآباد - ٢

حرف القاف :

- القادسية - ٤

- القرنة - ٨

الكتب الواردة في المتن

- | | |
|--|---|
| <p>٢٢٨ ، ١٤٨ ، ١٣٩ ، ٩٥ ، ٩٢
• ٢٤٣</p> <p style="text-align: center;"><u>حرف الـدال :</u></p> <p>• دائرة المعارف الموسيقية - ٥٦</p> <p style="text-align: center;"><u>حرف الـراء :</u></p> <p>• الرد على النحاة (القرطبي) - ٢٤٣</p> <p style="text-align: center;"><u>حرف الـسين :</u></p> <p>• سر صناعة الاعراب (ابن جنى) - ١٤٨
• ٢٢٨ ، ٢٢٧</p> <p style="text-align: center;"><u>حرف الـشين :</u></p> <p>• شرح الشافية (الرضي) - ٢٤٣</p> <p style="text-align: center;"><u>حرف الـصاد :</u></p> <p>• اصحابي (ابن فارس) - ١٢٨ ، ١٣٠
• ١٤٨</p> <p>• انصاح (الجوهري) - ١٥٤</p> <p style="text-align: center;"><u>حرف الـضاد :</u></p> <p>• ضحى الاسلام (احمد امين) - ٦٦ ، ١٥٥</p> <p style="text-align: center;"><u>حرف الـعين :</u></p> <p>• العين (الخليل) - ٦٠ ، ٦٥ ، ٩٢
• ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٥٠ ، ١٥١
• ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ٢٦١</p> | <p style="text-align: center;"><u>حرف الـاتف :</u></p> <p>• الاتباع والمزاوجة (ابن فارس) - ١٨٩
• احياء النحو (ابراهيم مصطفى) - ٢٤٣
• اساس البلاغة (الزمخشري) - ١٥٤
• الاقتراح (السيوطي) - ٣٨
• الاكمال أو المكمل (عيسى بن عم) - ٣٣ ، ٥٤
• الامالى (القالي) - ٨١</p> <p style="text-align: center;"><u>حرف الـباء :</u></p> <p>• البلدان (ابن الفقيه) - ٥</p> <p style="text-align: center;"><u>حرف الـتاء :</u></p> <p>• تلقيب القوافي (ابن كيسان) - ١٩٠
• توراة - ٨٣ ، ٨٤
• التهذيب (الازهرى) - ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥٣</p> <p style="text-align: center;"><u>حرف الـجيم :</u></p> <p>• الجامع (عيسى بن عمر) - ٣٣ ، ٥٤
• الجمع والتثنية فى القرآن (الفراء) - ٢٤
• الجمهرة (ابن دريد) - ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥٣ ، ١٦٢</p> <p style="text-align: center;"><u>حرف الـحاء :</u></p> <p>• الحصائص (ابن جنى) - ٣٨ ، ٩٠</p> |
|--|---|

حرف الفاء :

- فقه اللغة (وافي) - ١٩٩
- الفيدا - ١٤٥

حرف القاف :

- القاموس المحيط (الفيروزابادى) - ١٥٤

حرف الكاف :

- الكشف (مجلة) - ١٩٦

- الكتاب (سيبويه) - ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٦ ، ٦٥ ، ٦٩ ، ٧٣ ، ١٤٩ ، ١٥٤ ، ١٦٢ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٦٠

حرف اللام :

- لسان العرب (ابن منظور) - ١٤٨
- ١٥٤

حرف الميم :

- مجانس ثعلب - ٨١
- المزهري : (السيوطي) - ١٨٩
- المصادر في القرآن (الفراء) - ٢٤
- المصباح المنير (الفيومي) - ١٥٤
- معاني القرآن (الفراء) - ٢٤
- المعجم (أخيليل) - ٦٩
- مقاييس اللغة (ابن فارس) - ١٥٤
- منتهى الوصول الى علم الاصول (ابن الحاجب)

ثبت تفصيلي لمواد البحث

١٨- ١

تمهيد :

- (١) العراق قبل الفتح اسلامي . (٢) البصرة - تمصيرها - مواردها - العناصر التي هاجرت اليها .
- (٣) الاندماج . (٤) المامة بحياة البصرة الثقافية .

٤١- ١٩

الفصل الاول

القرآن والمسلمون :

- (١) مدارس القرآن في الكوفة - مدرسة الاقراء - مدرسة الفقه - مدرسة الاعراب .
- (٢) مدارس القرآن في البصرة - مدرسة الاقراء - مدرسة التفسير والفقه - مدرسة الاقراء والاعراب - مدرسة الاقراء والاعراب والاعجام - مدرسة النحو الاصطلاحي الاولى - مدرسة النحو التعييدية القياسية - نتائج البحث في هذا الفصل .

٧٤- ٤٢

الفصل الثاني

الخليل بن أحمد الفراهيدي :

- (١) سيرته - زهده وورعه - ابأوه - هواه وعقيدته .
- (٢) حياته العلمية : شيوخه - ثقافته - أثر الثقافات المتنوعة في عقليته .
- (٣) منطق أرسطو ونحو الخليل - فكرة تأثير النحو العربي بمنطق ارسطو - وقفة عند مقالة للدكتور ابراهيم بيومي مذكور - مناقشته في الامور التي اعتمد عليها في تأثير النحو العربي بمنطق ارسطو - وقفة عند رأيه في تلمذة حنين بن اسحاق للخليل ومناقشته - دفع شبهة أن الخليل كان يلم باليونانية .

٧٤- ٦٢

نحو الخليل :

- (١) مذهب الخليل في اللغة - المصادر التي أعتمد عليها اللغويون - الخطوات التي ساروا عليها في دراسة اللغة - عمل الخليل في هذا . ٧٧ - ٨٢
- (٢) نشأة اللغة - آراء الاقدمين في نشأتها - ميل الخليل الى القول بأن أصل اللغات انما هو من الاصوات المسموعات . ٨٣ - ٨٦
- (٣) دلالة اللفظ على المعنى : استظهار طبيعية الدلالة عند الخليل - سبق الخليل الى القول بها . ٨٧ - ٩٠
- (٤) الاشتقاق : أنواعه - ينبغي ان يؤرخ الاشتقاق بعمل الخليل . ٩١ - ٩٥

الفصل الرابع

الاصوات اللغوية :

- (١) مخارج الحروف : حروف الحلق عند الخليل وسيبويه والمحدثين - الحروف اللهوية عند الخليل وعند المحدثين - الحروف الشجرية عند الخليل وسيبويه والمحدثين - الحروف الاسلية - الحروف النطعية - الحروف اللثوية - الحروف الذلقية - الحروف الشفوية - الحروف الهوائية - مقارنة بين عمل الخليل وسيبويه من جهة وعمله وعمل المحدثين من جهة اخرى .
- كيف استطاع الخليل ان يحدد مخارج الحروف - منشأ الخلاف بين ترتيب الحروف عند الخليل وترتيبها عند سيبويه - مقارنة بين منهج الخليل ومنهج المحدثين في دراسة الاصوات . ٩٦ - ١١٢
- (٢) صفات الحروف : المجهور والمهموس - الحروف المحقورة - الحروف الرخوة أو الاحتكاكية - الحروف الذلقية أو الذولقية - الحروف الخفية - صفات اخرى للحروف عند سيبويه - الخليل أول من قسم الكلمات الى

(٣) ائتلاف الحروف : الاصوات التي اختصت بها
بها العربية - تالف حروف الحلق : العين مع الحاء - الحاء
مع الهاء - العين مع الهاء - العين والغين لا يجتمعان -
العين والحاء يتآلفان بشرط - تفسير الخليل للتألف وعدمه
بين حروف الحلق *

القاف والجيم تأليفهما معقوم - الضاد والكاف
لا يجتمعان متصلتين - تأثير القاف في الصاد - الالف
والواو والياء اللينات يحرك ما قبلهن بحركة تناسبهن -
قلب الواو ياء اذا اتصلتا وكانت الاولى منهما ساكنة -
الهمزة أشد الحروف الشديدة - مذهب الخليل في
الهمزة - اجتماع الهمزتين في كلمة أو في كلمتين *

القلب - مواضع القلب عند الخليل *

تأثر الحروف بعضها ببعض - مناقشة القدماء في
قوة الحروف وضعفها - الاساس الذي تبنى عليه ظاهرة
التأول - ملاكها عند الخليل وعند المحدثين - التماثل
الكلي والتماثل الجزئي *

الابدال عند الخليل - اجتماع الواوين في أول
الكلمة ومذهب الخليل فيه *

الدراسة الصوتية يونانية فهندية فعربية - اقتباس

(٤) خطوة نحو التطبيق : احصاء اللغة احصاء
رياضيا - تصنيف الكلمات بحسب اصولها - الخليل
يرسم أول معجم في العربية - وصف موجز لكتاب العين -
وقفه عند العيوب التي نسبها الاستاذ أحمد أمين الى عمل
الخليل في كتاب العين *

البناء العام للكلمة العربية :

(١) كيف تتألف الكلمات : البناء الاصلى - الحركات

زوائد على البناء الاصلى - انواع الكلمات من حيث عدد
الاصول - الاسماء فى العربية لاتقل عن ثلاثة احرف -
تأول ما جاء على أقل من ثلاثة احرف - التسمية بالحروف
ومذهب الخليل فيها .

١٦٩-٦٣

(٢) حول الاصول الثلاثة : النتائج التى توصل
اليها الخليل باستقراؤه البناء العام : ليس فى كلامهم
واوان فى أول الكلمة - ليس فى كلامهم حرف آخره واوان
متحركتان - ليس فى كلامهم كلمة فأوها واو ولاهما واو -
ليس فى كلامهم حرف آخره واو أو ياء مفتوح ما قبلهما -
سلامة منهج الخليل فى تمهيدته الدراسة اللغوية بالدراسة
الصوتية .

١٧٥-١٧٠

(٣) الابتداء والوقف : أ - الابتداء : السنة
العرب لاتنطق بالساكن ابتداء ولا تنطق بالساكنين فى
وصل الكلام - ما يحرك به أحد الساكنين .

ب - الوقف : مذاهب العرب فى الروى - كيف
يقف العرب على الكلمة فى النثر - مواضع الحاق هاء
السكت .

١٨٤-١٧٦

(٤) موسيقى البناء العام : حس الخليل الموسيقى
وتوصله الى علم العروض - الاوزان الستة عشر كلها من
وضع الخليل - بناء الكلمات على (فعل) ومشتقاتها -
وقفة على نسبة العروض الى الخليل - اقوال القدماء
والمحدثين فيها .

١٩٣-١٨٥

(٥) الاستعمال واثره فى البناء :

٢١٨-١٩٤

أ - اشارات تدل على أن الخليل كان ينظر الى
التطور التاريخى للغة .

ب - النحت والتركيب : الفرق بينهما - التركيبي
فى العربية وغيرها - النحت فى الكلمات والحروف - (لن)
تركيبيها عند الخليل والمحدثين - (ليس) تركيبيها عند
الخليل والفراء وعند المحدثين - (اذن) استظهار ذهاب الخليل
الى تركيبيها .

أدوات للخليل فى تركيبيها أو بساطتها أقوال :

كأن - كأى - كذا ٠٠٠ مهما - انما - اما - لوما - حيثما ٠٠٠٠ لولا -
هلا - الا ٠٠٠ انت وفروعها - حبذا - اللهم - اياك - أل ٠
رأى الخليل فى المركبات - الفرق بين مذهبه ومذهب
يونس فيها ٠

٢٤٩-٢١٩

الفصل السادس

الاعراب أو النحو بمعناه الخاص :

(١) نبذة عن الكتاب وما للخليل فيه - تصوير
منهج الخليل فى دراسة الاعراب - المنهج الاستنتاجى
والمنهج الاستقرائى - أمثلة على أن أوليات النحو المعروفة
من استنباط الخليل : - لاجر فى الافعال - لا جزم فى
الاسماء - المنادى لاتدخله الالف واللام - المنادى المرفوع
معرفة - الموصف بالنكرة لا يكون الا نكرة - المضاف الى
النكرة لا يكون الا نكرة - البدل والمبدل منه لا يجتمعان -
افتراض فى دراسة الخليل للنحو ٠

٢٣٨-٢١٩

(٢) فكرة العامل فى النحو - الثغرة التى نفذ منها
الخليل الى قضية العامل - عناية الخليل بالاصول العامة -
قياسات الخليل وتعليقاته صادرة عن ادراكه الطبيعية
اللغوية - تأثر النحاة المتأخرين بالمنطق والفلسفة وأثره فى
الاعراب ٠

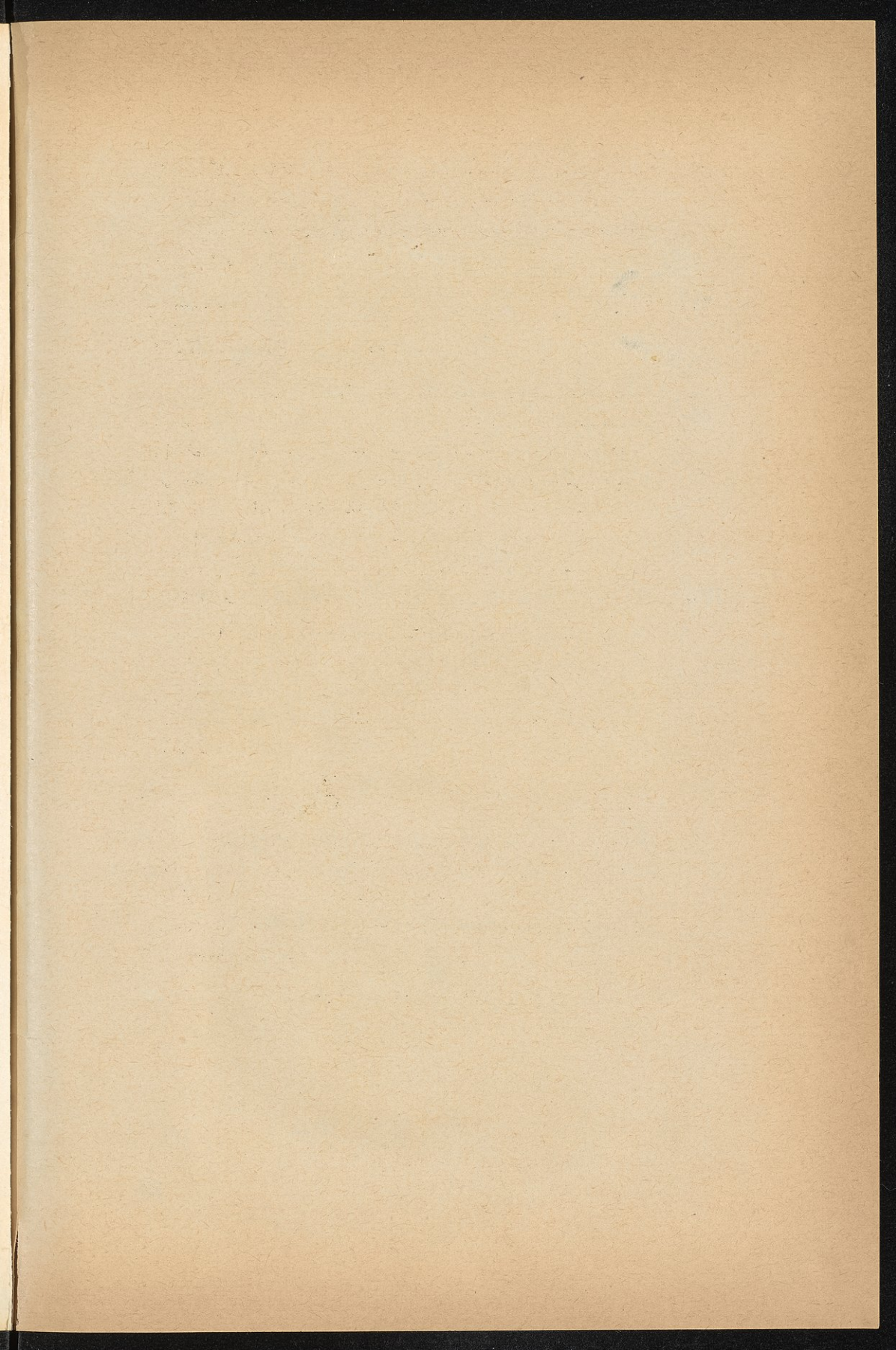
٢٤٩-٢٣٩

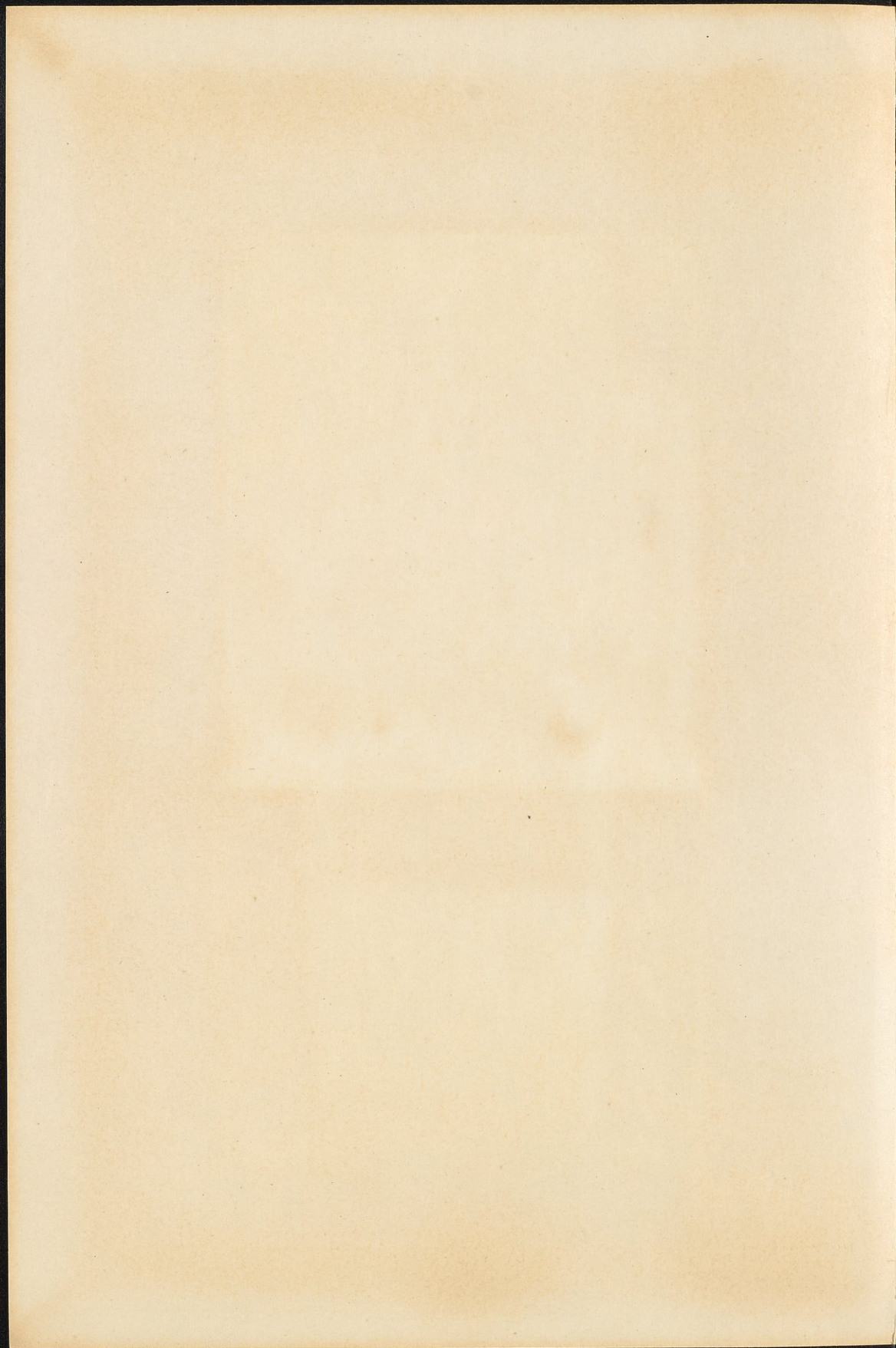
٢٦٣-٢٥٠

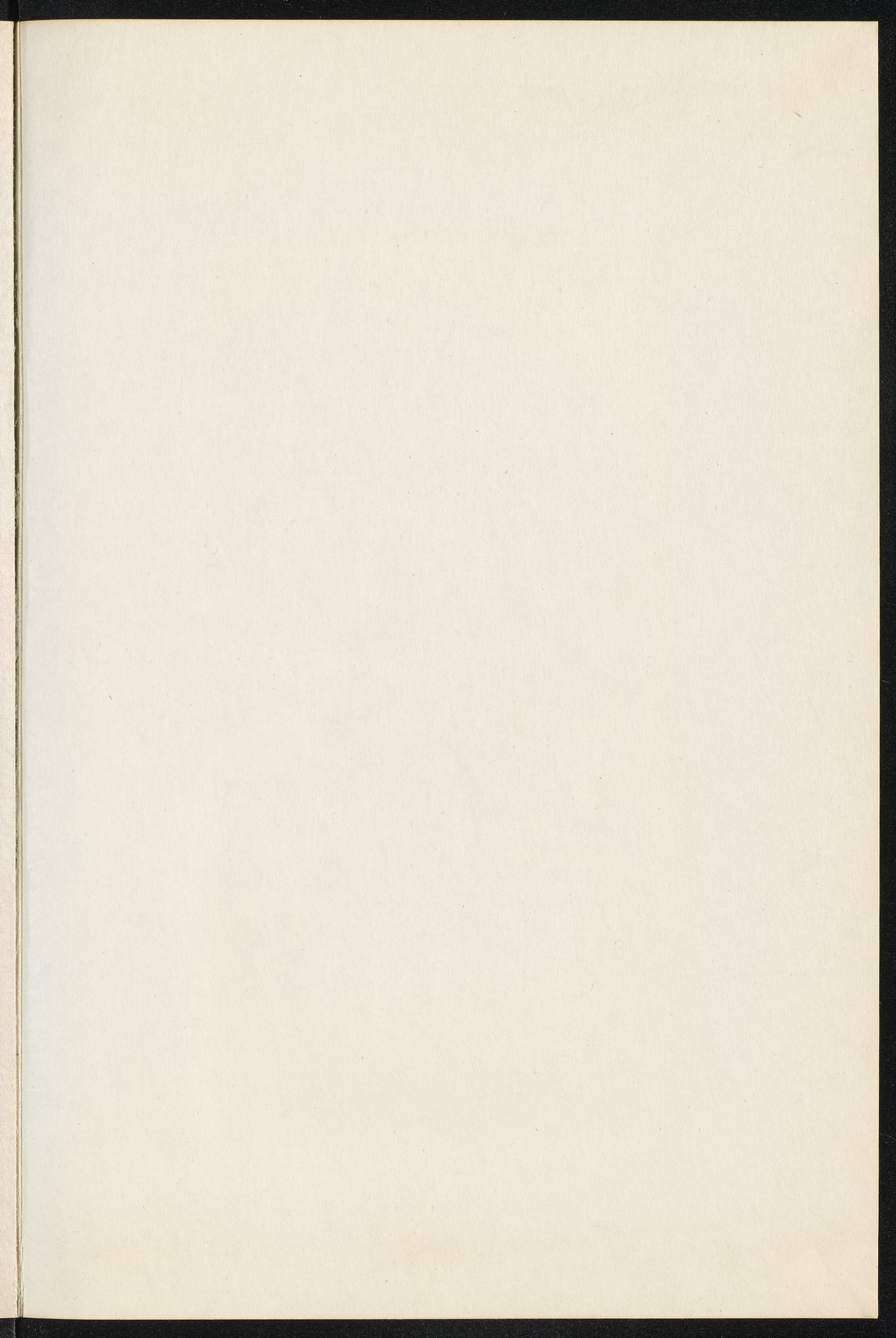
الخاتمة :

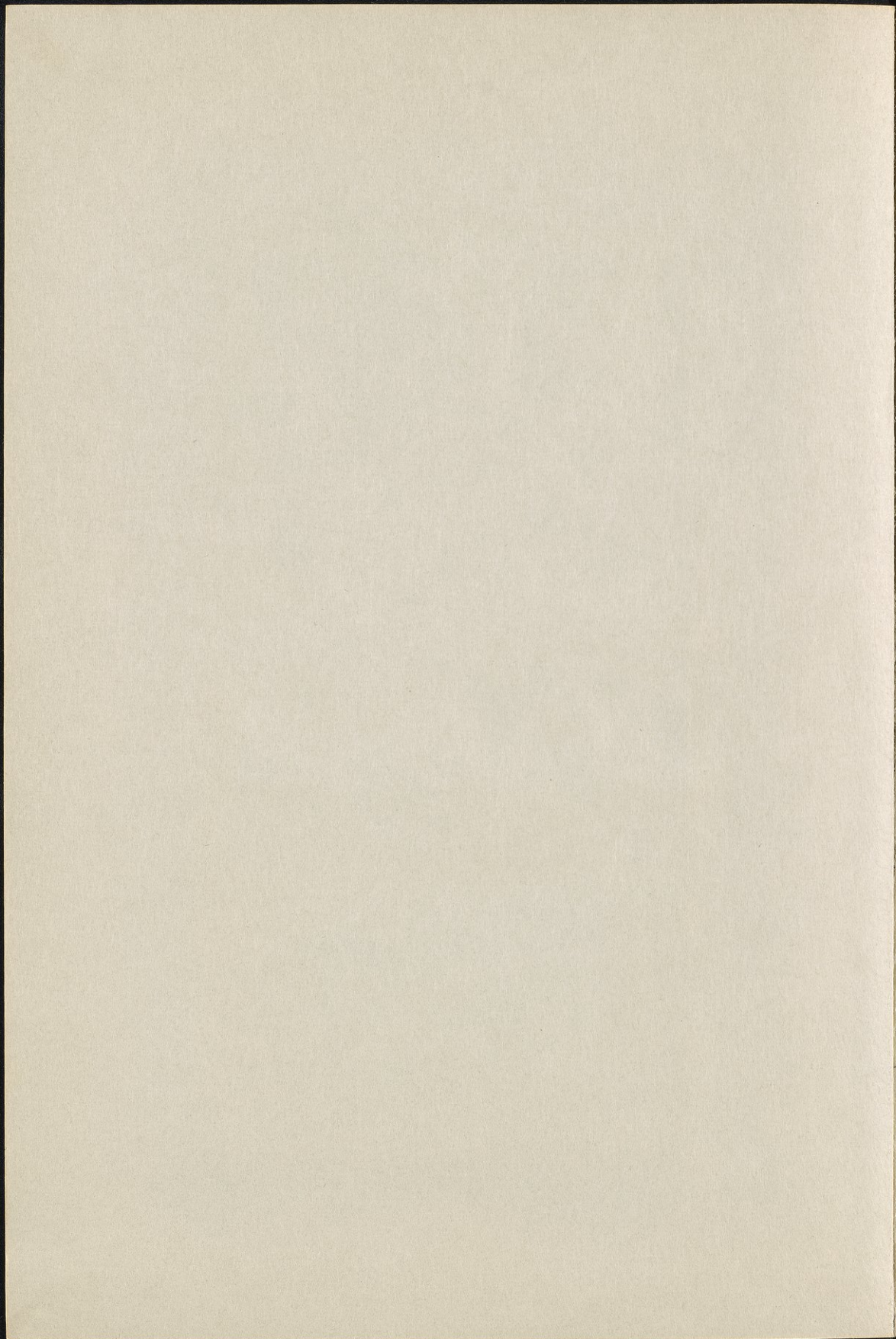
النحاة القدماء هم الذين عنوا بالقرآن - الخليل زعيم
الاحرار من اللغويين - التجربة عند الخليل واثرها فى
فى دراسة الحروف والكلمات - القياس عند الخليل
لا يخلو من صفة أدبية - وقفة عند رأى الاستاذ أحمد أمين
فى الخليل ٠

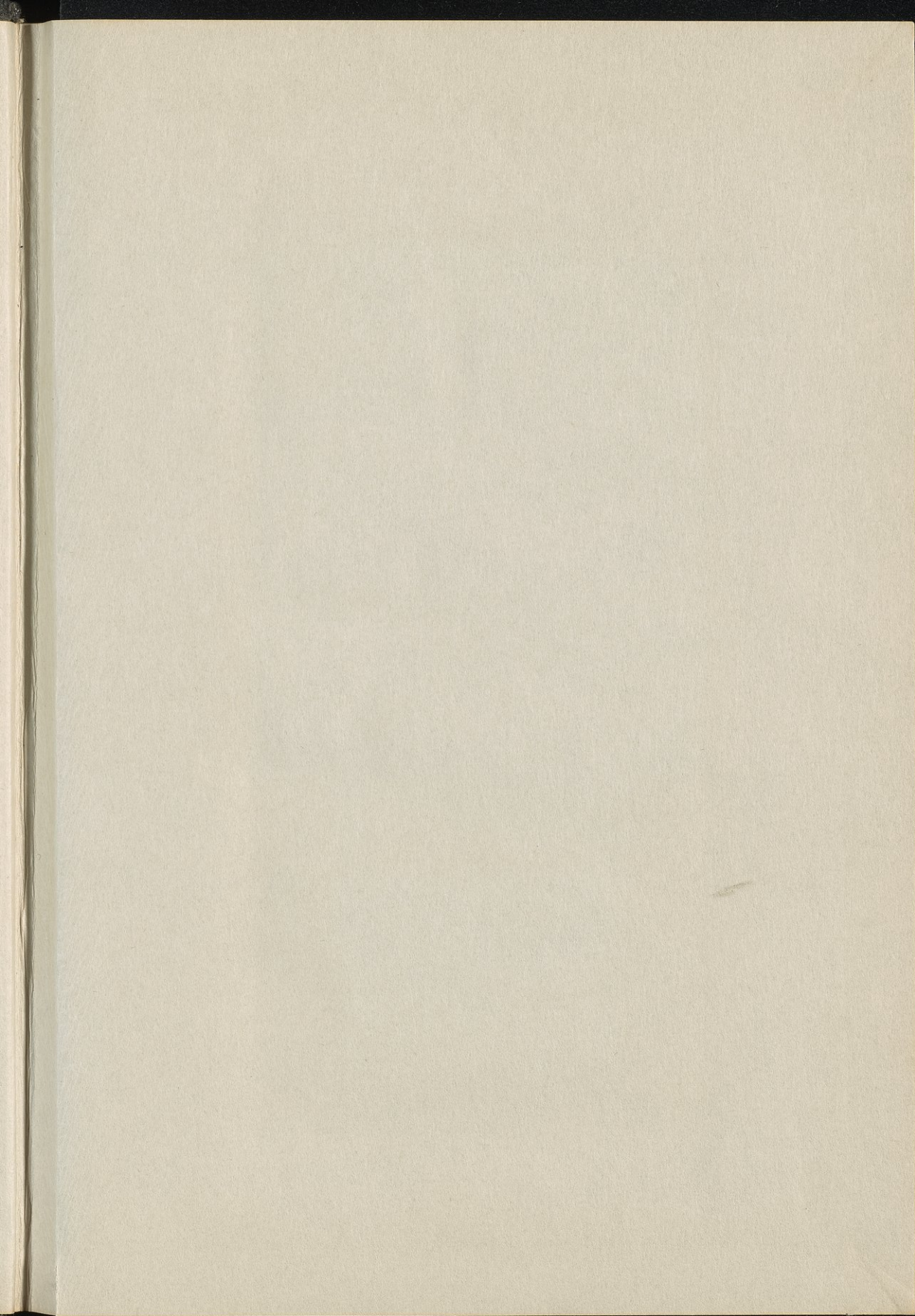
التأول عند الخليل - أمثلة لتأولاته ٠











893.72
M289

APR 24 1964

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



CU58879684

893.72 M289

Khalil ibn Ahmad al-